منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
دار الفرجاني

مجاهد البوسيفي

آزاتسي

مكتبة نوميديا

رواية

آزاتسی

آزاتسي

رواية

مجاهد البوسيفي

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0697-0

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com
بيروت - لبنان

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

لـ.. هدى السراري

1

لايدن، اكتوبر 1996

بعد يوم طويل في مركز استقبال اللاجئين بمطار أمستردام. اصطحبت موظفة دائرة الهجرة مجموعتنا الصغيرة إلى محطة القطارات الواقعة تحت الأرض؛ قطعت لنا التذاكر اللازمة، وأشرفت على صعودنا للقطار الذاهب إلى مدينة لايدن.

كنا؛ ثلاثة أكراد وعربي من العراق، أربعة أفغان بينهم امرأة، وإفريقي من سيراليون. معظمنا لم يركب قطارا وحتى لم يره مباشرة في حياته، لذا لم نكف عن سؤال من حولنا وتبادل الخبرات الطارئة في مجال القطارات ومحطاتها وبعد أن كدنا نتيه مرات عدة، تمكنا من الوصول بمشقة كبيرة إلى مركز إيواء اللاجئين على طرف المدينة، حيث تم توزعينا على الغرف.

دخلت مع الأفغاني إلى الغرفة التي خصصت لنا. كان محظوظا - أو مُهما كما ظننت -، إذ ما إن دخلنا الغرفة وبدأنا استطلاع المكان حتى حضر الشاي والحلوى، وجاء المرحبون. امتلأت الغرفة بحديث "الباشتون"، شرعت في ترتيب أغراضي في فردة الدولاب المستطيلة المخصصة لي، وضعت الكتب والأوراق القليلة التي جلبتها معي في الجزء السفلي منها، واضعا بحذر وانتباه - مشتريات السوق الحرة من مطار قرطاج، زجاجة فودكا روسية فحلة، وأخرى ريكارد فرنسي

يتحول لونه إلى الكابتشينو الداكن عند مزجه بالماء. أكملت ترتيب متاعي ودفعت بالحقيبة تحت سرير تصادف أنه لي. أخبرنا المشرف الذي منحنا مفتاحين خاصين بنا وزودنا بأدوات نظافة وفرش أسنان بأن لنا رفيقا ثالثا من الباكستان وهو في المطعم الآن، سلمنا تذاكر صغيرة مطبوعة على عجل للوجبات، وأعلمنا أن أمامنا ثلاثة أرباع الساعة للحاق بموعد العشاء.

بعد أن خرج زواره، جلس الأفغاني على كرسيه مقرفشا حلواه على مهل، غير مكترث وبعيدا عن حالة الترقب والإثارة التي تعتريني، أنيق وبه لمعة في جسمه وملابسه، جلست على الكرسي المقابل وتناولت الشاي الممدود لي في كوب كبير من زجاج أبيض سميك، شاي أفغاني خفيف بدون سكر، عليك أن تقرمش الحلوى إذا أردت تحليته. غمغم مرحبا وسهم يراقب أرنبا صغيرا يأكل باطمئنان العشب النامي بخجل في المسافة الصغيرة الفاصلة بين القاطعين خلف النافذة، ساد السكون للحظات ثم عاد ملتفتا من سفرته القصيرة ليكمل تعارفه:

- وير آر يو فروم؟.

- ليبيا، آي آم فروم ليبيا.

- ليبيا، تربولي..عرب مسلم..

من تركيبة الجملة عرفت أن إنجليزيته ليست بعيدة عن المتناول، أشاع هذا الكشف بعض الراحة داخلي فأجبته متشجعا:

- ياس..عرب مسلم.

فهمت منه أنه سبق له زيارة طرابلس وبمساعدة بسيطة مني تذكر اسم "الفندق الكبير" مقابل الكورنيش حيث أقام، وضع سبابته على صدره مكملا:

- مي..افغانستان، ماي نيم أز داوود.

كررها بالعربـــي الفصيح: إسمي ايميل داوود، افغانستان.

ثم غاب من جديد، يمسد صلعته اللامعة، مارا بما تبقى في نهايـــة الرأس من شعر بهدوء وتركيز، كمن يحصي خسائر بعيـــدة. كانـــت "طالبان" قد دخلت كابول منذ أيام، سحبوا آخر رؤساء أفغانســـتان الجنرال نجيب الله من قعر مندوبية الأمم المتحدة التي لجأ إليهـــا منـــذ سيطرة المجاهدين على العاصمة، وشنقوه في الميدان العام صحبة أخيـــه ومنذئذ تدفق الأفغان بوتيرة عالية على مراكز اللجوء، معظمهم في حالة رثة تعجب معها كيف تمكنوا من الوصول إلى هنا؟!

نهض مذكرا بموعد العشاء، تناول صحنه وكوبه ومعلقته وخرج بنفس الإيقاع المتريث، وكأنه يهم مع كل لحظة بـــالرجوع، فضـــلت البقاء فيي الغرفة، أخرجت "السندويتش" التي احتفظت بها من المطار، جبن وطماطم وخس، سكبت مسرعا بعض الفودكـــا في كوبـــــي، وتناولت رواية" دون كيخوتة" التي كنت قد اشتريتها مـــن دمشـــق، سرحت بعد أسطر وبدأت أفكر فيما حدث.

2

طرابلس (مارس) 1988

دفعت الخمسين قرشا إلى السائق، مندفعا من ميدان السويحلي قاطعا شارع الرشيد، -مطالعا الباعة الذين همدت ضوضاؤهم مع الشمس التي غربت منذ قليل - نحو ميدان بورقيبة، باتجاه مقر رابطة الكتاب لحضور الاحتفاء بالكتاب الذين خرجوا من السجن منذ أيام. الجو صاف، نسمة ربيعية مخلوطة بطعم البحر تجول المكان حرة طليقة مبتهجة منسجمة مع الجو العام المترع بالفرح والأمل.

أدار السائق الراديو فانطلق صوت محمد وردي منشدا قصيدة محمد الفيتوري التي صار يحفظها الجميع عن ظهر قلب:

أصبح الصبح فلا السجن ولا السجان باق

واذا الحزن الذى كحل هاتيك المأقي

فرحة نابعة من كل قلب يابلادى

بدأ هذا الأسبوع المجنون قبل أيام في مدينة "راس لانوف" حين كان أعضاء مؤتمر الشعب العام منهمكين بمناقشة جدول الأعمال مباشرة على التلفزيون، فجأة تدخل أمين المؤتمر العام ليسكت المتكلم طالبا عودة الأعضاء إلى أماكنهم والتزام الصمت التام، مبلغا إياهم بصوته المتحشرج أن الأخ القائد معهم على الخط ويريد أن يوجه كلمة للمؤتمر. ووسط صمت مطبق عميق جاء بعد لحظات صوت العقيد

الأبوي بنبرته البدوية هادئا في البدء ثم واضحا مرتفعا بالتدريج يطلب من أهالي السجناء السياسيين التوجه إلى سجن "بوسليم" بعد الغد كي يستقبلوا ذويهم المسجونين الذين سيطلق سراحهم في احتفال جماهيرى مهيب. رفع المؤتمرون جلستهم إلى أجل غير مسمى وركبوا سياراتهم في مواكب مرتجلة نحو العاصمة المنسية للحاق بالحدث، وتوجه أهالي السجناء ومن ساقه الجو المحموم الذي ساد بعد المداخلة مباشرة إلى الركن الجنوبي من طرابلس مقر السجن السياسي الرهيب على مشارف مشاريع الإسكان الشعبي المكتظة التي أقيم عليها مخيم مرتجل. وفي اليوم الموعود ظهر القائد وهو يقود بلدوز تعربش عليه الحرس من كل جانب متوجها إلى بوابة السجن ليطيح بها وسط الهتافات المجنونة من الجماهير التي أحاطت المكان كالسيل. وما إن انقشع الغبار حتى انكشف المشهد عن العقيد من جديد يعتلي منبرا أقيم على عجل بكامل قيافته العسكرية يخطب في الجماهير والسجناء المبهوتين، مرددا أبيات قصيدة الفيتوري التي نظمها بمناسبة الانتفاضة على الجنرال إبراهيم عبود في السودان، معلنا للسجناء المتكومين بجانب أغراضهم، أنهم طلقاء أحرار وأن الثورة غفرت لهم ماتقدم منهم، وبإمكانهم العودة إلى أعمالهم دون خوف، داعيا إياهم إلى التجمع غدا أمام مبنى الجوازات لاستلام وثائقهم المحجوزة.

ومن جديد ظهر العقيد منتشيا من شباك الدور الثالث في مبنى الجوازات بشارع السيدي علي وسط المدينة، كان يرتدي بذلة بيضاء أنيقة وموحية على قميص حريرى أخضر مسدلا كوفية فلسطينية رصاصية رقيقة تنتهي عند حافتها بألوان العلم الفلسطيني، الزغاريد والهتافات تأتي من تحت، العقيد يمزق قوائم الممنوعين من السفر ليعلو الصخب، الذي زاده دخول المطرب السوداني محمد وردي ليحتضن

العقيد مطولا قبل أن يسلمه المايك ويشرع في تجويد أغنيـــة "أصـــبح الصبح" مباشرة على الجماهير دون موسيقى، وما إن انطلـــق صـــوته الشجي حتى اتجه العقيد إلى أدراج الجوازات المحجوزة ملقيا بهـــا مـــن النافذة على الطلقاء الذين انهمكوا في "البربشة" بحثا عن أوراقهم وسط تدافع الحرية المجنون.

أصبح الصبح

فلا السجن ولا السجان باق

واذا الفجر جناحان يرفان عليك

واذا الحزن الذي كحل هاتيك المآقي

والذي شد وثاقا بوثاق

والذي بعثرنا في كل واد

فرحة نابعة من كل قلب يابلادي

يستمر "الراديو" في الغناء، والبحر يلحس مساء طرابلس والكـــل في عيد، لقد أحدث خروج المساجين المفاجيء هزة في جسد الـــبلاد الميت منذ سنوات طويلة، قامت البلد من موتها السريري وارتسم على ملامح وجهها المتعب علامات الأمل والعودة للحياة، هذا مـــا أراه في وجوه رفاق التاكسي الآن، وهو مايحدث في كل مكان مـــن الـــبلاد؛ حالة من الفرح والخفة تنتاب طرابلس السكرانة بالنشـــوة لتصـــدرها مسرح الحدث بعد غيبة طويلة، حيث مكنها احتضانها لحدث "الطلقاء" من استرداد مكانتها بعد تجاهل طويل، استعادت منـــزلتها التي فقدتها منذ الغارة الأمريكية أواسط الثمانينات عندما اســـتمرت المضـــادات الأرضية تطلق نيرانها بمعدل مرتين كل ليلة لمـــدة ثلاثـــة أيـــام ودأب التلفزيون وكذلك الإذاعة والصحف والبيانات العسكرية المتتالية علـــى الإعلان عن إسقاط الطائرات الأمريكية، الأمر الذي دفع الأمريكان إلى

نفي ذلك، وحصروا اعتداءهم بغارة واحدة شنوها في الساعة الثانية وانتهت فى الثانية والربع من فجر يوم الخامس عشر من ابريل 1986، معتذرين لأهالي الضحايا الذين مزقتهم قنابل طائراتها الوحشية، ومتعللين بسوء الطقس، خاتمين الرد بأن لاعلاقة لهم بأية غارات أخرى يعلن عنها التلفزيون المحلي، وهكذا وقع الناس فيي الحيرة والغموض حول مصدر هذه الغارات المتكررة وقرروا الخروج إلى البساتين والمزارع والقرى المجاورة بينما انهمك العديد من أعضاء اللجان الثورية الحاكمة في اقتحام مقار هم وشرعوا في تمزيق ملفاتهم تحسبا لتغير الظروف.

قرر الجميع انتظار انجلاء الموقف، فالتصريح الأمريكي شوش على الناس وجعل من احتمال وجود عدو ثالث لازال مجهولا أمرا واردا، واستمر الحال بهذا الشكل حتى كادت العاصمة تخلو من الناس لولا بعض الكتائب الأمنية المخلصة وماتبقى من ضباط وحدويين أحرارا وأقلية من العائلات الطرابلسية العريقة التي لاتملك ملجأ غير بيوتها المعتادة، حتى الليلة الثالثة عندما خرج العقيد معمر القذافي بعد فاصل مطول من مدافع (م.ط) المضادة للطائرات للمرة الأولى منذ الأحداث في بذلته الماريشالية البيضاء بياقتها المذهبة ليطلب من السكان العودة إلى أماكنهم داعيا الجماهير للخروج إلى الشارع والتعبير عن تحديهم للعدوان والاحتفال بالنصر، وهو ماحدث فورا بعد أن اشعلت الأضواء وتم العثور على مايكفي من عدد لتدبير مجموعة فرحة خرجت للشارع واستمرت في الهتاف مباشرة أمام شاشة التلفزيون حتى الصباح لينضم لها مجاميع أخرى استلمت منها هذا الواجب الثوري الطارئء والمهم.

غير أن موقف السكان أوقعهم تحت سلطة الالتباس، ففي نهاية الأسبوع ظهر القائد ببذلة الصاعقة المرقطة في مدينة بنغازي على بعد

ألف كيلو متر من العاصمة ليعلن من فوق سيارة (رنج روفر) مموهة أن الذين فروا في يوم المواجهه سقطت مصداقية مسيراتهم ووضعت عهودهم تحت سلطة الشك، وبعد هذه الرسالة الصريحة تحولت طرابلس إلى مدينة منبوذة في أدبيات الثورة يشار إليها بالرهافة والجبن وعدم الوطنية وأخذ بدو المناطق الوسطى والجنوب الذين استوطنوها يتحرشون بها متجولين في شوارعها بأسلحتهم البارزة للعيان، و لم يكف منذئذ كتاب برامج موسم شهر رمضان عن وضع مشاهد لئيمة تصور فارين أخذوا أولاد الجيران بالخطأ وفلاحين وصلوا للتو محملين بالإمدادات الغذائية وهم في كامل دهشتهم لخلو المدينة من السكان وعمال مقيمين من شرق آسيا مستمتعين بالنوم وسط الطرقات الخالية من السيارات بعد عمليات الفرار الكبيرة، وبدورهم كان سكان العاصمة الجريحة يردون على هذا بحملات مضادة من النكات "الشنيعة" الموجهة مباشرة إلى الهدف.

توقف التاكسي في زحمة شارع قرقارش الذي حافظ على مباهجه في أصعب الأوقات، الطريق المزدوجة دون حاجز يفصلها والناس تتقاطر بين الجانبين للتبضع وارتياد المقاهي ومحلات المثلجات، الموسيقى تعلو من أماكن مختلفة بينما تتجول نساء الطبقة المرفهة غير عابئات بالتحذيرات التي يطلقها البدو الذين يمتطون سيارات فارهة تطل من نوافذها بنادق الكلاشينكوف وكأنهم خارجون للصيد.

عندما جئت من القرية إلى طرابلس كان البدوي يدخل العاصمة كميلاد جديد له، متكيفا مع قانونها ومحتملا سخريتها اللاذعة وتشابه بنيانها وملابسها الضيقة التي تحد من حركة الجسم ولكنة أهلها السريعة الشبيهه بلكنة الطليان، المدينة للبدوي: هي الجنة والنار في الوقت نفسه، حب وكره، تعال وتذلل، غزل وإعراض وكل المتضادات التي

تتكرر في الحياة وتتكثف في هذه العلاقة المتشكلة من طيات متشابكة لاحدود لها بقدر مامر من حضر ومضر وتاريخ وأزمان.

عندما قرر أخي الذي سبقنا وتمكن من الحصول على عمل أن يأتي بنا إلى طرابلس من قريتنا الصغيرة المحذوفة في الصحراء وسكانها الذين يتكونون من قبيلة واحدة صافية مقتصرة على ذاتها ومكتفية بها، أخذنا نجمع متاعنا القليل في صرر و"سحاحير"، سألت أبي في ليلة مغادرتنا ما إذا كان مناسبا أن آخذ معي بعض الأحجار لأهل المدينة على اعتبار أن وجودها غير محتمل قياسا بالصورة الرخامية الخضراء التي تشكلت عندي عن المكان الذي نقصده، ضحك أبي، ضحك طويلا فاحصا بقدميه الأرض حتى جمع صوته باقي العائلة، وبعد برهة أنهى ضحكته الطويلة الصافية وانسحب ليكمل ترتيباته مكتفيا عن التعليق بضمة قوية حتى سمعت صدى ضحكته المتراجعة إلى صدره العريض، كان قد جاء إلى طرابلس مرة واحدة في أواخر الأربعينات بقصد التموين عام الثلج، الذي تزامن مع عام نكبة فلسطين وانتشار الجوع كالوباء صحبة رجال من القبيلة، باتوا فى "قرقارش" التي يعبرها التاكسي بصعوبة الآن عندما كانت كثبانا من الرمال تواجه البحر، مهجورة وخالية من العمران.

تخلص السائق من الزحمة أخيرا وركن السيارة بجانب محطة البنزين التي بالكاد تبرز بين الأوساخ وكان بالإمكان في زمن مضى أن تنتظر فيها تنظيف سيارتك وتغيير زيوتها وأنت تتناول البيرة الباردة، اتجهت يمينا نحو الفيلا البحرية حيث الصالة التي سيقام فيها حفل الاحتفاء الذي كان بالطبع ينظم تحت عنوان فخم: مهرجان الحرية.

1

لايدن

أمضيت الأسبوع الأول في المركز أتحسس المكان وأتعرف على قاطنيه والقيام بإجراءات طلب اللجوء ومتابعة الفحص الطبي الذي يشمل الكشف على الجهاز التنفسي وتحاليل الدم وخلافه. وحاولت التعود على نمط وأوقات المهام اليومية البسيطة مثل تغيير الشراشف واستلام الصابون والتعود على الجو العام، فعلت كل ذلك بإحساس من التقبل، وبحبور قريب من الفرح نتج عن معرفتي بأنه لن يتوجب علي بعد اليوم أن أرجع من حيث أتيت وهو أشد ماكنت اخشاه في الأيام الأولى، على الأقل لاعودة في المدى المنظور حتى يتم البت في طلبي، وهو مارفع معنوياتي وأنساني شقاء الوصول، عدم الرجوع إلى ليبيا الجماهيرية كان المعلومة الوحيدة القادرة على انتشالي من اضطرابي، راجعت محاولاتي المتكررة للخروج والجهد الذي بذلته من أجل ذلك وإحساس القرف المركز الذي صاحبني فى الأشهر والسنوات التي سبقت، ونتيجة لهذه المراجعات كان دائما من المستحيل علي العودة تحت أي ظرف، لقد أتيت من متاهة متقنة وقرار العودة إليها غير قابل للتنفيذ ولو بالذهاب بعيدا في كل شيء، من يريد العودة إلى تلك السنوات التي كنت فيها حائرا! ماذا أفعل بروحي التي تعطلت عن الحياة وماعاد يجديها إلا الخروج فيي أرض الله الواسعة للبحث عن

براح جديد أصهل فيه أو أنبح أ وأئن مثل جريح مكلوم، أشد أنـــواع الموت هو موت الروح، وأن تستيقظ صباحا وتسأل نفســـك ذلـــك السؤال الكريه، لماذا استيقظت وما الذي سأفعله في يوم آخر طويـــل؟ فليس هناك في الخارج وجود أفق ولو ليوم واحد.

مركز اللجوء الذي أقيم فيه الآن على شكل مقفل مـــن البنـــاء الجاهز، على الطرف الجنوبـــي من المدينة يبعد مسافة عشـــر دقـــائق بالحافلة، تحوطه مساحة خضراء تحفها بعض المزارع وتنتهي إلى غابـــة صغيرة في الطرف الأيمن، على جانب الطريق السريع الموصل إلى مدينة (أوترخت). يقع المطعم على يسار البوابة والقســـم الرسمـــي الخـــاص بالشرطة والصحة والإدارة يقابله على الطرف الثاني بحيث تفصل بينهما البوابة، بعد مسافة فارغة للمشي والحركة توجد ستة قواطع مســـتطيلة متجانبة يقطن فيها زهاء ثلاثمائة لاجئ من أربعين جنسية كما فهمـــت في اليوم التالي لوصولي عندما دعوا المجموعة الجديدة لاجتماع معلوماتي حول المخيم وسكانه وقوانينه.

بصبر وتأن شرحت لنا الموظفة المكلفة (موبى) حقوقنا وواجباتنـــا (اساسا تقتصر على احترام الآخرين وعدم تمييزهم وتنظيـــف أمـــاكن نومنا) ثم زودتنا بنسخ مكتوبة بلغاتنا لما قيل وما إن شرحت لنا مـــوبى المراحل التي يمر بها طلب اللجوء وعرفت أن عندي مايكفي من الوقـــت لتدبر حلول لكل طارئ حتى انتابني شعور الراحة واســـتعدت قـــدرا لابأس به من الطمأنينة وانـــزرعت في روحي مداميك السكينة وحب الحياة، كنت اعرف أنني أتيت من القاع، وعدم العودة إليه تعني أنـــني فعلا لازلت رابحا في هذه اللعبة. بهذا الشعور المقبل أتممت الإجراءات وتحصلت على "الكارت الأصفر" الذي يسمح لي بالتنقل داخل حدود هولندا ودخل اسمي السجلات بشكل رسمي.

سريري يقع في الغرفة 427 بالقاطع الخامس بقرب المطعم وأمام البوابة، يحتوي كل قاطع (يسمى هنا بلوك) عشرين غرفة معظمها رباعية، مدخل 427 يواجه الحمام وغير بعيد عن الباب الرئيسي الخاص بالقاطع، غرفة رباعية بسريرين فوق بعض كأسرة معسكرات الجيش، الأفغاني الذي أتى معي من المطار غادر إلى "كامب" آخر كما أخبرني قبل ذهابه وجاء محله لاجئ باكستاني آخر، عرف عن نفسه بأنه المهندس شاكير، هادئ الطباع ويردد بعض جمل عربية حفظها أثناء عمله بالمملكة العربية السعودية، عبد الاحمد (رفيق الغرفة الآخر الذي وجدته أمامي) كان أيضا في السعودية، فهمت ذلك منه أثناء أحاديثنا القصيرة التي نستخدم فيها مزيجا من العربية والإنجليزية وكمية وافرة من إشارات اليد، عبد الاحمد هو أول من خلخل صورة اللجوء المثالية القابعة في خيالي حين افترضت قبل وصولي أنني سأخوض نقاشا مستمرا في السياسة والأدب والمصير متوهما أن اللاجئين من أهل المعرفة وأصحاب القضايا، عندما سألته ماذا كان يفعل فى السعودية أجابني بأنه كان يعمل لسنوات كسائق آلات ثقيلة، جرارات وماشابه، قال ذلك وهو يهمس ويتلفت رغم أننا كنا وحدنا في الغرفة وكان وجهه يعبر لي أنه إنما يخصني بهذه المعلومة التي يكاد يندم على قولها، ومن هذا الجواب العفوي المنفتح والقاسي تعلمت أول درس واقعي في الكامب، صدمني وأنار لي طريقي فيي الوقت نفسه، ارتبط طلب اللجوء في ذهني بصورة عاطفية، كنت أتخيل نفسي أحيانا وأنا اتبادل وجهات النظر مع إخواني من النخبة الهاربة حول مشاكل الدنيا وخاصة العالم الثالث ونحن نحتسي النبيذ (انا لا أحب النبيذ فى الواقع)، وجاء جواب رفيقي سائق الشاحنة ليردني إلى الواقع الحقيقي في المكان الذى سأنام فيه أشهرا منذ الآن.

أصبح لي روتيني الخاص، أستيقظ في الضحى أواجه أصعب أوقات اليوم عند الدخول إلى الحمام المشترك حيث الدوش والمغاسل والمراحيض فى نفس الحيز، رائحة خليط من أنواع رديئة من المعاجين والنشادر ومخاط من يصادف وجوده من القاطنين، لافتة معلقة فى المغاسل مكتوب عليها:don't shit in the douche

ذلك أن بعض البدو والأفارقة والآسيويين العفويين يختلط عليهم الأمر ويقضون الحاجة في الأماكن غير المناسبة، للتغلب على هذه المشكلة طورت تكتيكا خاصا بي أسميته (فن اختراق المقرف)، أستلقي عادة على السرير مرخيا صوت التلفزيون متسمعا الممر محاولا معرفة إن كان عامل التنظيفات قد مر قبل أن أخرج، أحيانا يخيب تقديري فأجد المكان فى حالة سيئة فأنهي(واجباتي) بأسرع وقت ممكن وأعبر إلى الغرفة من جديد، وعندما يكون الحظ حسنا أنتهز الفرصة وأستحم غالبا ينتابني إحساس بالاشمئزاز والحنق لعدم استطاعتي التوقف عن التفكير في عدد الذين سبقوني واستمنوا على نفس المسافة التي اقف عليها الآن.

عند عودتي للغرفة أسكب كأس شاي من "الترمس" الذي على الطاولة والعائد إلى المهندس شاكير، أمضي بعض الوقت أمام التلفزيون المعلق ومراقبة الجو العام من النافذة أو تقليب بعض الكتب والمجلات القليلة التي أحضرها معي، منتظرا أن يحين دور قاطعنا للغداء، إذ إن النظام يقتضي البدء بالبلوك رقم واحد، حوالي الساعة الثانية آخذ صحني وشوكتي وسكيني من على الطاولة متفقدا وجود تذكرتي في جيبي وأتجه للمطعم، حيث سندويشات الجبنة والمارتديلا والشاي كوجبة إفطار مثالية لبداية اليوم، بعد الفطور أتوجه لمكتب الاستعلامات لتوقيع التمام اليومي ثم إلى المكتبة لقراءة الجريدة ولقاء

أبوهدى حيث يكون عندنا بعض الإقتراحات لتمضية الوقت، نلعب الدومينو في المقهى الذي يحتل جزءا صغيرا بجانب المطعم أو نذهب لغرفته التي يتشارك فيها مع أفغانيين وعراقي لمتابعة الأخبار وأحيانا نذهب في جولات مستطلعة للمدينة وتناول شيء من البيرة أو الشاي متبادلين أخبار المركز وماجمعناه من خبرات حول اللجوء. أحاول ما أمكن تقليل ترددي على الغرفة التي تكون عادة مشغولة بمعارف عبد الاحد وشاكير الذين يتجمعون منذ الظهر يشربون الشاي ويتابعون أخبار المعركة الدائرة بين نواز شريف وبناظير بوتو على السي ان ان معلقين بلغة الاردو على الأحداث في نقاشات طويلة تستمر إلى مابعد دخول الليل.

أبو هدى

تعرفت على أبو هدى في المكتبة عندما كان كلانا ينتظر دوره لقراءة النسخة الوحيدة الموجودة من جريدة الحياة، كنا نقلب في الرف البسيط الذي يحوي الكتب العربية. خمسيني قوي البنية ومألوف الوجه، من مواليد الزبير جنوب البصرة أصبح عضوا في الحزب الشيوعي العراقي إثر حملة قام بها الحزب لاستقطاب الشقاوات في السجن ومثل حيوان وفي، منح حياته بالكامل منذئذ للمعاني الجديدة التي رباه عليها الحزب، عاش في فورة الشباب مجد الحزب وعزته أيام عبدالكريم قاسم ثم بعد ذلك سنوات الشدة والقحط بعد أن نجح القوميون في الإنقلاب على قاسم وقتله وتجريد الحرس القومي لحملة شرسة قتلت الآلاف من الشيوعيين وطوحت ببوهدى إلى سجن نقرة السلمان الرهيب في وسط الصحراء ليبقى هناك حتى تصالح حزبه مع البعثيين الذين كانوا بدورهم

قد انقلبوا على شريكهم القومي وانفردوا بالحكم. غير أن الجبهة الوطنية التي ضمت الحزب الشيوعي وحزب البعث لم تدم طويلا وعاد التنكيل بالشيوعيين إلى الحال الأول لتتخذ قيادة حزبهم قرارا بتهجير الأعضاء إلى خارج البلاد ثم قرارا آخر بتجميعهم في كردستان لتشكيل سرايا مقاتلة ليقضي بوهدى سنوات أخرى بين الجبال والثلوج والقرى المتناثرة والطبيعة ذات الجمال المتوحش يقود سرية بها كتاب وفنانون - التقيت بعضهم فيما بعد في ليبيا ودمشق وصار لي أصدقاء منهم - في حمى مجنونة وعبثية بهدف محاصرة المدينة بالريف، وهو أمر لن يتم أبدا خصوصا في ظل ذلك النهج الأحمق لقيادة الحزب.

استمرت حرب الجمهورية المنسية مع إيران تلك، طوال الثمانينات قبل أن تتناثر سرية بوهدى بين المنافي من جديد. بعد أن توقفت اللجنة المركزية عن إبداعاتها المهلكة.

سيتمكن ابوهدى من ممارسة ماتبقى من حياته بحرية جبرية حيث قام بجولة في الإتحاد السوفياتي الحليف الكبير، أوصلته إلى معامل سيبيريا للحديد حيث كان لزاما عليه تناول ربع قنينة من الفودكا المحلية وكمية معقولة من الشحوم على الريق كي يتمكن من الذهاب للعمل.

من سيبيريا انحدر بوهدى في رحلة طويلة نحو البحر ليتفقد شباب أيدولوجيته ويعيش مع رفيقة قديمة في بودابست حيث استأجر محالا لبيع الخمور شراكة مع صديقين سعوديين، وهي تجارة سرعان ماغضبت عليها السماء لتبور وتنتهي على شكل دعوات للرفاق والمعارف الطارئين الذين يصادف وجودهم، تشرب فيها البضاعة حتى آخر قنينة بالمجان، وبالكاد استطاع تدبير أوراق صالحة للفرار من بئر الكحول تلك، ليصل كامب لايدن قبلي بيوم.

البارحة مر علي في الغرفة بعد العشاء، متسلحا بمظلة وجاكت أسود من الجلد الطبيعي يضفي عليه وجاهة مناسبة لماضيه، كنت جالسا على سرير عبدالاحد بقرب الباب، أقلب في رواية(دون كيخوتة) التي كنت قد اشتريتها قبل ثلاث سنوات من دمشق.

لم أجدها في معرض "مكتبة الأسد" ولا ميسلون فرجوت صديقا عراقيا أن يتدبرها لي، وبعد مشاورات قصيرة في مقهى الروضة مكان تجمع عراقيي دمشق للعب الدومينو وقراءة الصحف وتبادل الأخبار، ذهبنا إلى مكتبة جانبية عتيقة لا يكاد مدخلها يرى، تحس وأنت تدخلها بأنك في "داموس"، تحدثت جانبا مع البائع الذي غاب قليلا في مغارته وعاد بنسخة مهلهلة استلمتها بتردد قبل أن ألاحظ أنه مامن اسم لكاتب أو مترجم على الغلاف بل كلمة (بن محمد)، تمهل البائع في الرد وهو يزنني بعينين ناعستين من بين خلطة الظلام والنور الخفيف اللذان يتصارعان في ذلك الكهف المحير، كان على بعض الأسف والضجر وعدم الرغبة في شرح ما لاجدوى من شرحه، لكنه أجابني أخيرا بأن رواية مثل "دون كيخوتة" تجاوزت كاتبها(ثربانتيس) منذ زمان طويل، وأن هذا لم يحدث إلا مع بضعة كتب صارت لقلتها وندرة مافيها تتنقل بين القارات بوقار حقيقي كبير، ألف ليلة والألياذة، هذه كتب لم يعد تغيير اسم الكاتب أو المكتوب أو الإضافة إليه والأخذ منه..كل ذلك لم يعد يعني شيئا. ثم توقف للحظة هازا النسخة المهلهلة في وجهي قبل أن يوقفها أمام عيني مباشرة مؤنبا إياي بتؤدة لعدم ملاحظة أن اسم الغلاف يبدأ ببن وليس بأبو مما يعني أن الكتاب جاء أصلا من المغرب العربي جماعة بن محمد وليس ابو محمد، وأن هذا بحد ذاته دليل على حرية التنقل الكبيرة التي يحظى بها الكتاب الذي يكتبه من جديد من يشاء ويضيف إليه ويأخذ منه ما يحب ويرغب

ويحس، وعبر هذه الكتابات المجهولة والأسفار الجديدة تحولت هذه الكتب إلى ملك انساني مشترك يضم كل الناموس المتفق عليه في الحياة، المولد والحب والممات.

كنت أفكر في كلام البائع وهو يتحدث ضاع مني بعضه و لم أذكره إلا بالتدريج وعلى مراحل متباعدة وأماكن متفرقة، بعد أن أنهى البائع مطالعته نبه علي بكلمتين حاسمتين:

جلّد الكتاب

وأشار إلى مغارة جانبية تشبه دكانه فدخلتها وطلبت من صاحب المحل تجليد الكتاب وعدت بعد يومين لأستلمه بغلافه الأسود المتين.

عندما عدت إلى طرابلس أعرت الكتاب لأياد عدة، و لم يرجع لي إلا في الأسابيع ألأخيرة لمغادرتي فقررت جلبه معي لأكمل قراءته.

كان سريري الواقع تحت التلفزيون المعلق محجوزا من قبل ثلاثة باكستانيين، يشتركون مع المجموعة التي امتلأت بها الغرفة في نقاش ساخن حول الأوضاع في الباكستان التي شهدت تصعيدا جديدا، إذ تم اغتيال مرتضى بوتو أخو بناظير، كانوا يتابعون الحدث على البريك نيوز في قناة السي ان ان، ويتداخلون في نقاشات عالية بالاردو تتردد فيها أسماء بوتو وضياء الحق وأمريكا والهند، أنقذتني طرقات بوهدى، بداية ظننته باكستانيا آخر قد يكون سمع خبرا جديدا يريد إيصاله لغرفة العمليات هذه، وما إن فتحت الباب حتى فاجأني بوهدى بسؤاله:

- **تلعب كونكان؟**
- **شنو الكونكان؟**
- **انت ماعليك بس تعال نروح لبوآثار وبعدين أعلّمك.**

كنت متعودا على حكاية ال (بو) عند عرب آسيا عموما من خلال عملي ورحلاتي، إذ لاتوجد في ليبيا ويحل محلها بن يعني فلان بن فلان وليس فلان ابو فلان اندسسنا تحت المظلة اتقاء المطر الغزير فى الخارج، مطر (أكتوبر) المنذر بشتاء طويل، اتجهنا إلى البلك الأول ونحن نغمغم بجمل متقطعة بفعل اختراق الماء لمظلتنا، كان بعض القاطنين يمرون سريعا نحو مقاصدهم، وآخرين اكتفوا بمراقبة المنظر من الباب الرئيسي للقاطع ومن خلف النوافذ، فتح لنا الباب رجل جسيم مرحبا، دخلنا الحيز الضيق المخصص لشخص واحد، سرير مفرد جلس عليه بوهدى بجانب بوآثار وجلس الرجل السبعيني الذي وجدناه في الغرفة مقابلي على طاولة البلاستيك البيضاء، الغرفة الصغيرة ممتلئة برائحة البنسلين المخلوطة بالتبغ، ومن خلال العبارات الترحيبية وجمل التعارف الأولى، تذكرت أني رأيت هذا الشيخ الوقور بقامته المعبرة المنحنية تحت الثقل ونظارته المدغدشة بالذكريات بأناقة ملبسه ومشيته المتئدة في المرات القليلة التي يُرى فيها، الواقع كان هذا الكائن الهادئ الكبير في السن يأخذ بعض تفكيري في الأوقات القليلة التي أخلو فيها مع نفسي في الغرفة أو في أوقات ماقبل النوم، مفكرا في مواضيع مختلفة تمر مثل شريط سريع تصب في منبع طلب اللجوء، ما الذي دفع بهذا (الكُبارة) الى طلب اللجوء؟ وكيف يتدبر حياته في الغرفة الرباعية مع ثلاثة شبان؟ ثم من هو قبل كل شئ؟ مثل هذه اللقطات كانت تمر أمامي سريعة عندما أراه او وأنا اتهاوى بين الصحو والنوم في السرير الواقع تحت التلفزيون المعلق. قام بوهدى بمهمة التعريف، أشار الي الرجل قائلا:

- **ألأستاذ بوجواد، فنان كبير ومن مؤسسي السينما والمسرح في العراق، صديق عزيز ومناضل قديم.**

- **هلا عيني، والله هلا بخونا الليبـــي**

ردد المؤسس بصوت هادئ وقور.

- **وهذا**

واصل بوهدى بعد قليل مشيرا إلى صاحب الغرفة على السرير - بوآثار، عزيز بصراوي يعجبك، صار له شي شهرين هنا، أخرج رجل علبتي بيرة نوع هانيكان ومدهما باتجاهنا، فرشنا الورق وأخذنا نلعـــب الكونكان الذي تبين أنه لعبة (الرومينو) التي نلعبها فىي ليبيا بتبـــديل بسيط في مواقع الأوراق عند الترتيب، شرح لي بوهدى قانون اللعبـــة العراقي وتدخل أثناء اللعب لتصحيح الأخطاء التي كنت أرتكبها مرارا وتكرارا ومع ذلك فقد أربكت اللعب في كل مرة تقريبا لأنني كنـــت أرتب كل أوراقي بالطريقة الليبية التي تعودت عليها ف المرات المتباعدة التي كان يصادف أن العب فيها الريمينو.

بوآثار

- **خرطي.. سالفة اللجوء كلها خرطي بخرطي.**

قال بوآثار ردا على استفساري حول فكرته عن اللجوء باعتباره أقدم من في الجلسة ومتحصلا على اللجوء السياسي بعد ثلاثة أســابيع من وصوله، ويفترض أن يغادر المركز بمجرد أن يتحصل على بيـــت. كان يبدو في عمر بو هدى تقريبا، انحدر من الجنوب نحو بغداد برتبـــة رئيس عرفاء وتقارير رؤسائه التي تمتدح إخلاصه وكفاءته. في بغـــداد تأهل بفضل بنيته الجسدية وحضور بديهته لأخذ دورات متقدمة تخرج منها ملازما في الإنضباط العسكري، وكلف فيما بعد بقيـــادة وحـــدة صغيرة مكلفة بالقبض على الجنود الفارين من الجيش والمواطنين الـــذين

لم يلتحقوا بخدمة العلم بعد، ازدهر عمله أثناء الحرب مع ايـــران لمـــدة ثماني سنوات، لقد كان العمل يزداد تلقائيا، فكلما أمعنت الحـــرب في الوقت والدم ازداد عدد الفارين.

بعد الحرب استدعي بو آثار الذي اصبح برتبة رائد لمبنى مخابرات الجيش ليكلف من جديد بالمساهمة مع ضباط آخـــرين وعـــدة رفـــاق متجهمين بحماية المقر الرئيسي للحزب وبقى في هذه المهمة حتى اتخـــذ الأمين العام للحزب الرفيق المهيب صدام حسين إثر ر رؤية مضللة قرار غزو الكويت لتفتح أبواب جهنم على العراق ويخرج بو آثار من ضمن مئات الآلاف الذين فروا بما تبقى من حياتهم إلى خارج تلك الجمهورية المرعبة.

يتمتع بو آثار بشعبية كبيرة في "الكامب" بفضل موهبة تـــأليف قصص اللجوء التي برع فيها مستخدما خبرته السابقة في الحياة، وهـــي خدمة تطوعية تمكنت منه حتى أنه كان أحيانا كثيرة يقوم بهـــا ونحـــن نلعب الكونكان.

- **كيف خرطي... يعنى تقصد دوة فارغة، كذب.**

جربت صوتي ما إن تمكنت من استعادته وأنا أستمع لبـــو آثـــار يكمل تهديم الصورة التي هشمها عبد الأحد في وقت سابق، صـــاحب جملتي صوت رعد قوي اخترق الغرفة تحت وابل من مطر كان يقذف النافذة مما أصابني برعدة خفيفة تشبه رعدة المعرفة والتيقن مـــن خيبـــة الأمل.

- الله ينور عليك.. قال بو آثار وهو يتجه بكامل جسده الضخم ناحيتي، اقترب مني حتى تيقنت أنه مصدر البنسلين الذي يطـــوف في الغرفة، حدق في بعينيه الصغيرتين الحادتين بتركيز حتى أني أشفقت على من كان يقبض عليهم متخيلا ابتسامته الذئبية المرافقة لهذه النظرة الـــتي

تخترق كالإبر، ظل ممسكا بيدي طوال الوقت، في هيئة من سبق له وأن عاش هذا الموقف وخبر مايكون عليه من في حالتي، حتى كدت أتبلل من رذاذه وهو يضيف: يعني كذب، اش كثر ماتكذب واش كثر مايكون كذبك عدل ومسقم اش كثر انت ماتحصل على اللجوء، ثم ارتد حتى تساوى مع كتف بو هدى على السرير ملتفتا نحو الجالسين:

- هلا والله هلا..هلا ببوجواد وبوهدى. قبل أن ينقض علي من جديد:

- **انت شنو قدمت؟ عراقي؟.**

- **قدمت كليبي طبعا، حتى أني سلمت جواز سفري في المطار.**

بدا وكأنني قد خيبت أمله بإجابتي، تقدم بوهدى بهيئة من نفذ صبره حتى زاحم بوجواد ثم قام بالتفاتة مفاجئة لبوآثار: لك هذولا الليبيين مايفهمون، هذولا جماعة القذافي شنو هو يقول يرددون وراه، جماعة الله غالب. ماتعرفهم؟

- **يخرب عرضك، بس لو قدمت عراقي بس..كنت اسويلك قصة تأخذ بيها لجوء في شهر.**

بهذه الطريقة العراقية الحميمة التي تخالها سبا وشتما في بعض الأحيان، فهمت أنني ارتكبت أخطاء لايرتكبها إلا مبتدئ من شعب لاعلاقة له تذكر بالسفر والتغرب وطلبات اللجوء السياسي، وضعت نفسي في موقف حرج يقلل من فرص حصولي على اللجوء، إذ كان يكفي أن أمزق جواز سفري في الطائرة وأقدم نفسي على أساس أني عراقي كما يفعل الكثيرون، حيث يتمتع العراقيون إلى جانب الأفغان والقادمين من جنوب السودان، بحظوظ شبه مضمونة. غير أني لم أنفعل من معرفتي بصعوبة اللجوء فقط، لكن أزعجني أيضا تأكدي من تلاشي الصورة الرومانسية التي كونتها عن اللجوء الى الأبد، وعلي - بداية من

الآن – أن أنشغل بترتيب قصتي (كما قال ابو آثار)، لروايتها لموظف وزارة العدل الذي لابد وسيأتي للإستماع إليها كما درجت العادة هنا،،،

صحوت من النوم وفي رأسي ضرورة البدء في إعداد مرافعتي أو قصتي كما يقول بوآثار، لكل لاجئ قصة يحتفظ بها أو ببعض تفاصيلها الخاصة فقط لنفسه ولموظف وزارة العدل المختص، الأمر يشبه مايحدث في السجن في هذا الجانب، عليك ألا تتبرع بإعطاء معلومات عن نفسك أكثر مما هو ضروري، أغلب من هم داخل هذا المكان يجولون الآن بأسماء وهويات مختلقة بالكامل، هولاء بالذات عليهم ان يبدأو تأليف قصصهم من الصفر، وإذا ما احتاجوا للعون هناك دائما بعض الخبراء الذين بمقدورهم تقديم مساعدات ثمينة تحتوي على جرعات من خيال بارع وجريء، وعلى رأس هولاء بالطبع بو آثار الذي لم تسجل عليه خسارة واحدة لكل القصص التي قام بتأليفها للذين لاذوا به، أتساءل أحيانا مالقصة التي قدمها جاري عبدالاحد لوزارة العدل طلبا للجوء!!!، وماهو النقاش السياسي الذي سيدور بين ذاك الإفريقي الذي أراه الآن من النافذة وهو يمشي متخابلا في حذائه فوق إسفلت الممر والمحقق الذي سيأتي لأخذ إفادته وتسجيل طلبه رسميا في ملفات وزارته؟ هل سأتبع طريقة بو آثار في التعامل مع الموضوع أم سأروي حكايتي كما أعرفها؟ قررت تأجيل هذه المسألة إلى مابعد، أقفلت النافذة واتجهت إلى الخارج.

بوجواد

بعد الليلة الاولى التي سهرت فيها بغرفة بوآثار، وعند رجوعنا معا، عرفت أن بوجواد– ألاستاذ كامل شوقي ابراهيم– هو أب

الكاتب جواد كامل التي بدأ يصبح معروفا، إثر روايته الثانية (افضل مدينة) التي تسجل حياة مجموعة مثقفة من أنصار الحزب الشيوعي وهم في تيه كردستان، كنت قد قرأت الرواية وأعجبت كثيرا بها لأنها مثلت نفسا جديدا لتجربة مختلفة في الرواية العربية والعراقية، رواية كانت واحدة من البدايات لتأريخ تلك المرحلة والنبش في ماضيها، كان بو جواد يقطن على بعد غرفة من يميني، على سرير أرضي ملاصق للحائط يسار الباب مباشرة، بقربه منضدة صغيره رتب عليها أشياءه الخاصة، علبة التبغ الاسود، وورق لف وغمد النظارة، يقيم مع ثلاثة شباب، شيركو من كردستان، وحسين من النجف، وكاظم الذي سبق أن رأيته في مكتب اللجوء بالمطار وأخبرني أنه من بغداد.

بدأت أمر عليه أحيانا حيث أجده في الغرفة غارقا في التأمل والتدخين أو متصفحا بعض الأوراق حيث نتحدث قليلا ثم نمضي إلى المطعم ليتناول غداءه وفطوري ونحن نتبادل الكلام على إيقاع وتيرته البطيئة الصادرة على مهل رجل خلع نفسه من جذور حياته ويبدو غير مهتم بزرعها في المكان الجديد، كان يتوقف من وقت لآخر بينما كنا ندب بتمهل ليقول جملة من نوع: لك هذولا الهولنديين...وين وحنا وين؟.. ثم يواصل خطواته دون مبالاة كبيرة.

لم يكن يبدي أي تطلع لما سيأتي، ملتفتا طوال الوقت للذكريات الطازجة التي خلفه، يتحدث عن بعضها - تلك التي تبدو اكثر إلحاحا عليه - حول طاولة الطعام. على مهل وبتدرج وبعض الحذر يناسب اهتمام المستمع واستيعابه، كنا غالبا مانحكي عن بغداد مستخدما بعض معلوماتي التي جمعتها من رفقتي للعراقيين، شارع بونواس وشارع المتنبي للكتب، وتجربة المسرح العراقي وحياة بعض الكتاب والفنانين الذين جايلهم، كان يفعل ذلك بعد بعض الإلحاح وبشكل متقطع كل

مرة، إذ أن انشغاله بكون الحديث مقتصرا علينا فقط يحد من تدفق الكلام.

كان معروفا تقريبا لكل العراقيين الذين بالمركز، يتلقى التحايا كل بضعة خطوات ويحظى باحترام الجميع لكنه -كما خمنت - لايبدو سعيدا كما ينبغي، فهم لا يعرفونه إلا من خلال مسلسلاته التلفزيونية وخاصة الكوميدية منها، وهو نوع الشغل الذي يقوم به من أجل الحياة وتكاليفها وليس من أجل الفن ومتعته ومايريد قوله حيث يفعل ذلك في المسرح والتجارب السينمائية القليلة التي يشارك فيها، وهذا جانب لايعرفه محيوه الذين يكاد يسمع في رنات أصواتهم تقليدا خفيا لأصوات شخصيات مثلها في التلفزيون، خاصة صوته فى دوره بمسلسل (الحلاق) الذي يبدو أن كل العراقيين الذين بالمركز قد شاهدوه، والذي يقلده كاظم عندما كنا في الغرفة الخالية من بوجواد مع شيركو اكثر من مرة، وصرت على معرفة معقولة بأحداثه التي تروي يوميات حلاق غريب الأطوار يتبادل الأحاديث مع زبائنه.

تطفو رائحة عطن خفيفة فى ممر القاطع والغرف، مزيج من العرق والأنفاس ورائحة المنافع، الرائحة نفسها تقريبا في كل قاطع، المكان يشبه القسم الداخلي لولا العائلات، يوجد في قاطعنا عائلة إفريقية بطفلين، وفي أول غرفة يسار يقيم إيراني أرمني مع زوجته الشابة وطفل يمشي بتعثر، وفي الركن القصي على اليمين تقيم عائلة أفغانية في غرفتين متجاورتين خصصت واحدة منها لبنات العائلة الثلاث، بينما يقيم الأب مع زوجته وابنه في الغرفة الملاصقة، عائلة مختلفة عن النمط الأفغاني السائد في المركز، الأب يرتدي غالبا بذلة بألوان هادئة، والأم ترتدي خمارا خفيفا على نصف رأسها وتسير غير مرتبكة نحو حاجاتها، والبنات يقضين مشاويرهن مرتديات سراويل جينز ومعاطف أنيقة،

الأب يتحدث عربية بطيئة لكنها صحيحة، أقام في السعودية لسنوات طويلة، وأخبرني بوهدى أنه كان يشارك في تنسيق الدعم للمجاهدين، الواقع لاشيء يوحي بذلك، صعب تصور أن يعمل هذا الرجل المتعلم لصالح معمل تخلف كما حدث في أفغانستان، وأصعب منه تصور خروجه وعائلته من ذلك المعمل على هذا القدر من التنور والانفتاح. وجود هذه العائلات يمنح لمسة إنسانية تبدد من الذكورة الطاغية في المكان، كان خفير السكن الداخلي للجامعة علي النعاس يردد دائما: إمرأة تبكي ولاراجل يغني.

عندما رجعت بعد الغداء لإرجاع الصحن والكوب والملعقة، وجدت وافدا جديدا يرتب السرير الشاغر فوق فراش شاكير، حييته وقدمت نفسي له مشيرا إلى سريري وأنا في طريقي إلى الطاولة المحاذية لوضع أدوات الأكل، تقريبا في عمري (بداية الثلاثين)، يرتدي شورتا خفيف الخضرة وتي شيرت باهت اللون وقبقابا هولنديا يشبه قبقاب الصادق النيهوم، ويحمل اسما فخيما: شيخ زكريا، لم أبذل جهدا يذكر لاستنتاج أنه من جمهورية بوتو وضياء الحق التي تعقد ندواتها كل يوم في الغرفة... حييت الشاب شيخ بحددا وخرجت.

الجو في الخارج يكاد يكون صحوا، في ركن قصي في سقف السماء تواصل الشمس تقدمها لتبديد مافي طريقها من غيوم قصديرية متورمة بالشحم، شحنني الطقس الملائم بنفحة من حياة، جلست أتشمس على أحد الكراسي العريضة التي بجانب ممر الإسفلت في الوسط، أراقب الرائح والغادي، البعض باتجاه المطعم آخرون يتجهون نحو الاستعلامات للتوقيع اليومي وتفقد قائمة البريد المعلقة على الباب والبعض تناثر على الكراسي القليلة ذات الثلاثة مطارح ككراسي الفصول الابتدائية منتهزا فرصة ظهور الشمس الصريح المفتقد. الإيقاع

البطيء المعتاد ذاته مامن أحد على عجلة من أمره، أرد بعض التحايا من المارين بـــي، أتعرف على البعض بالوجوه وآخرين قلة بأسمائهم الـــتي قالوا إنها لهم، ألمح من بعيد جون النيجيري الضخم سيد لعبـــة كـــرة الطاولة في المقهى، يمشي بتؤدة متثاقلا نحو القاطع الثاني حيث يقـــيم، مجموعة متوقفة أمام لوحة كبيرة معلقة خارج حائط مكتب الشـــرطة، بها الأسماء التي عليها مراجعة النقطة لسبب ما، الهواء خارج القواطـــع نقي تكاد تمسك به لحضوره، أمضيت الأيام الفائتة وانا أتشمم الفراغ، للهواء أيضا طعم خاص كالماء، لا تستطيع تفسيره ولا إثباتـــه ولكنـــه موجود، عندما تسير في شوارع طرابلس التي تحولت الى أزقة متربة أو أينما كنت في القاهرة حيث بإمكان المنبهات والسحب السود الصغيرة وملايين السجائر التي تشتعل في نفس الوقت، تعرف أن للهواء رائحـــة وطعم يشبهان رائحة الحرية والإحساس بنظافة الأشياء، إنه الإحســـاس نفسه الذي يقابلك وأنت تجلس هنا أو تتمشي خارج قواطع المركـــز بعيدا عن تلك الرائحة المختلطة للقاطنين الآتية من كل القارات.

- **مرحبا مستر سالم.**

التفت للصوت فوجدته شاكير رفيق الغرفة صاحب الابتســـامه المسالمة، في حوالي الأربعين، مهندس كهربـــاء، قضـــى ســـنوات في السعودية، كأغلب أصدقائه الذين يقضون الوقت يتناقشـــون حـــول التطورات المتلاحقة في باكستان، كلهم كما فهمت كانوا في السعودية أو باقي دول الخليج الأخرى، رددت تحيته وقمت بحركة صغيرة موهما إياه بأني أفسح له اكثر في المجلس ففهم أن المكان ضيق وبقي واقفـــا، سألته حول ماتوصلوا اليه بخصوص المتهم بقتل مرتضى بوتو، أجـــاب بأن الأمر غامض والأحداث سريعة التداعي مما يجعل متابعتـــها أمـــرا صعبا، لكنهم يشكون جديا في زوج بناظير آصف زارداري، فهو رجل

جشع ولاحدود لنهمه تجاه السلطة والمال، قال ذلك بتأثر كبير فعواطفه محطمة بين حبه لآل بوتو من جهة، وبين هذا الانحدار السريع المخيم على حكم بناظير الذي طالما انتظره معتقدا بأنه حل مثالي لمشاكل البلد التي غرقت في الدكتاتورية والتخلف بعد الانقلاب على والدها ذو الفقار بوتو، حياني برفق بعد أن ألقى ماعنده، انسحب بخطوات متمهلة نحو صديق مقبل علينا، تبادل معه بضعة كلمات مترافقة بإشارات من يديه ثم انسحبا معا باتجاه البوابة، أجد صعوبة في متابعة إنجليزية شاكير، تبدو متدفقة وسليمة ومشوبة بنغمة آسيوية، كنت من الطلبة المغرمين بالإنجليزية، درجاتي جيدة، يمدحني المعلم من وقت لآخر واستمر الأمر هكذا حتى المرحلة الثانوية، كان ذلك في رمضان، زار القائد كلية الفنون الجميلة ووجه تحت نفح إيماني غامض بإيقاف تعليم اللغات الأجنبية لأنها لغات استعمار تساهم في تغريب الجماهير وتمثل مقدمة لكتائب الغزو الثقافي الغربي المتربص بالعرب، قائلا أيضا:بضرورة (تكسير) الآلات الموسيقية الغربية وفقا للحجة ذاتها حيث أن الشعوب لاتنسجم إلا مع فنونها وتراثها، وتولى ابن عمه أمين التعليم ذو الوجه الأحمر الملتحي، فيلسوف الثورة وابنه الأيديولجي، تنفيذ القرار فورا فتم إيقاف المنهج اللغوي في الحال وتجميع آلات الفرق المدرسية وفناني الأعراس الشعبية وماتوفر في قسم الموسيقى بالتلفزيون، ووضعت اكوام رمزية منها في الساحة الخضراء - ميدان الشهداء سابقا - وأشعلت فيها النيران على وقع الهتافات الثورية الحماسية، ثم استمرت الحملة بانتشار وحدات من ميليشيا اللجان الثورية والمباحث العامة ورجال المرور في الميادين والشوارع الرئيسة للمدينة، يقومون بدوريات عشوائية مفاجئة ومتعاقبة، يفتشون فيها السيارات ويصادرون الأشرطة الأجنبية معززين أصحابها على سلوكهم المديني المشبوه والمخنث.

بذلك انقطعت سبل تعلم الإنجليزية، وباءت محاولتي للاستمرار بالتعثر والفشل في بيئة معادية تماما لهذا الفعل المعرفي، وبالكاد تدبرت أمري قبل خروجي بدورة ذاتية مختصرة لتذكر مايمكن أن يفيد في ماهممت به حيث استعرت من يحي صديق مراهقتي بعض كاسيتات قديمة من البي بي سي خلفها له والده قبل أن يتوفى. لحسن الحظ الإنجليزية ليست لغة المركز اليومية، هي لغة الجانب الرسمي المتعلق بالشرطة والخدمات، أما بين القاطنين فتسود لغة أخرى خليط منها ومايصادف من الهولندية وكلمات ملتقطة من القواطع ممزوجة ببعض مفردات من اللغة الأم وكمية وافرة من الإشارات اليدوية، إنها (سبرانتو) أخترعت خصيصا لهذا المكان يسلمها لاجيء لآخر تلبية لضرورة التعايش وتبادل الخبرات. أتابع المشهد بتشجيع من الطقس الدافئ الذي دفع بالجميع إلى الخارج للتمتع وتوديع الشمس التي ستغيب لشهور قادمة.

2

طرابلس 1993

توالت التغييرات بعد هبة (أصبح الصبح)، سُمح للطلقاء بالعودة إلى أعمالهم من جديد، ومُنح الذين اختفت مؤسساتهم بفعل الزحف الثوري الإشتراكي وظائف بديلة، وتم للمرة الأولى تحديد الخدمة العسكرية بثلاث سنوات بعدما كانت مفتوحة على الظروف التي لم تكف عن الحدوث، وفُصلت تخريجات نظرية مناسبة سمحت بعودة شيء شبيه بالتجارة والمسابقة المحلية لكرة القدم شرط أن لاتذكر أسماء اللاعبين في أي وسيلة إعلامية مخافة وباء النجومية، كما أعيدت الكراسي للمقاهي بعد حظرها قبل عشرين عاما أثناء الثورة الثقافية خوفا من تعطل المواطنين عن الإنتاج إذا ماخضعوا للاغراء وجلسوا لشرب طلباتهم بدل القيام بذلك على الماشي، وأعطي لمصنع المشروبات إذن مشروطا بإنتاج نسخة منقحة من بيرة (أويا) المنقرضة على أن تكون خالية من الكحول، ثم ألغيت التأشيرة المحلية المفروضة على من يستطيع السفر، لتنطلق فورا قوافل طويلة من السيارات عابرة الحدود نحو البلدان المجاورة لتعود محملة أطنانا من العلكة والفواكه وسراويل الجينز وأنواع لاتصدق من الشوكلاتة، وكل تلك الأشياء اللذيذة التي وضعتها الثورة في باب الكماليات البرجوازية ومنعت استيرادها منذ أن تسلم الشعب السلطة في احتفال رسمي بهيج أعقب نجاح الثورة الثقافية.

لقد كانت نوبة جنون تامة وحقيقية، حين امتلأت الأسواق والساحات العامة والبيوت بتلك الاختراعات الملونة التي تبهر من كل ركن، فواكه طازجة لم يرها الجيل الأخير حتى في كتاب العلوم، وأنواع من الحلويات تبعث على سريان الريق، ألبسة وسجاد وكل ما يمكن وضعه في البيت من أغراض.

خلال هذه اللوثة أُقيمت مآدب باذخة اقتصرت على تقديم أطنان من الموز والتفاح والعنب وأنواع أخرى مجففة تم اكتشافها صدفة عند الجيران، وتحول الشارع إلى عرض متنقل لأزياء الشباب المزهوين كما يفعل الطليان، واستمر هذا الربيع قرابة العام، لم يكف فيه التلفزيون عن بث صور السجناء السابقين وترديد أغنية محمد وردي التي صارت بمثابة نشيد وطني جديد بالغ بعضهم وغناه حتى في الأعراس قبل أن تبدأ الحياة في العودة إلى روتينها المعتاد.

بعد أن انفض المولد وانصرف الناس إلى التعامل مع مكاسبهم الصغيرة اليومية التي تحصلوا عليها في هذه المدة، والبحث عن طرق لتنميتها وحمايتها من الضرر، وانحسرت الحياة في مطالبها المعيشية التي بدأت صعوباتها تطل من جديد، تراجعت أفكار التغيير مسافة إلى الخلف وحلت مكانها أولويات جديدة للحكم، أخرج اليسار والإسلاميون المعتدلون وبدأت الثورة تستعد لمعركة أخرى كبيرة مع عدو لم يظهر بعد، كان (اصبح الصبح) خطوة أملتها الضرورة للإيحاء بنوع من بروسترويكا محلية ترفع شعار التصحيح لامتصاص الضغط الخارجي وتحييده بالتوقف على الأنشطة الخارجية والتفرغ لترتيب البيت الأمني الداخلي وتعديل أموره بما يتطلب الحال، لم يكن هناك اعتذار عما حدث، ولا تعويضا معنويا وماديا للمتضررين من الفترة السابقة و لم يصدر قرار يقنن خروجهم من السجن بحيث بدا الأمر

وكأن المساجين بالكاد نجوا من محاكمتهم بتهمة دفع الثورة لسجنهم وإجبارها للتدخل وإنهاء تصرفاتهم الحمقاء مما وضعها في موقف تشوه فيه سمعتها بيدها وتتحول إلى جلاد.

لاتغييرات ملموسة في الطريقة الثورية لإدارة الأمور. ولم تمض أشهر على خفوت هذا المهرجان حتى بدأت بركات(اصبح الصبح) المخفية في الحلول، لقد خسر النظام كل معاركه في الخارج من تصديره لمعلبات الفكر الجماهيري التي لم يقبل عليها زبون واحد إلى اختلافه مع حركات تحريره التي مولها لسنوات وقرر الاتجاه للداخل لتحميله مسؤولية كل هذا الفشل، فلولا المقاومة السلبية التي يبديها الناس لكانت الأمور قد سارت كما خطط لها،... بدأت البركات في الحلول.

عندما استيقظت من النوم في الظهيرة كما يكون الأمر حين تكون عندي مناوبة في الوكالة وجدت رسالة مقتضبة من وهاب، كانت مختصرة: عندي خبر أريد ان أزعجك به، لاتنس موعد الغداء.

تفحصت الجملتين مجددا أعددت قهوة وجلست أفكر في هذا الخبر المزعج، أعرف وهاب من سنوات عندما التقينا في أحد النشاطات التي كنت أغطيها لقسم الأخبار، يعتبر اليوم من الشعراء المتميزين في البلد، درس الكيمياء في إيرلندا وعين بعد عودته معيدا في الجامعة بكلية العلوم، كنا نكتب مقالات في صحيفة (الجماهيرية) الثورية - لاتوجد صحف مستقلة منذ تأميم الصحافة أول السبعينات- ثم اشتركنا مع مجموعة أصدقاء في اصدار ملحق ثقافي تابع للصحيفة حقق نجاحا ملفتا وصار يبيع حوالي عشرة آلاف نسخة وهو رقم يتجاوز أي مطبوعة أخرى في البلد.

عندما لاحظ الصعوبات التي أواجهها في إيجاد سكن عرض علي الإقامة معه في شقته الصغيرة بالسكن الجامعي التي استلمها من أخيه الذي كان أستاذا يدرس العمارة في كلية الهندسة قبل أن يقرر العودة إلى الولايات المتحدة وهو أمر أحاط وهاب بالشبهات الأمنية التي أضيفت إلى مقالاته متلقيا عدم الارتياح في الصحيفة والملحق فيما بعد، كنا مجموعة من شباب الجيل الثاني لآباء من أصول بدوية وقروية، عشنا وتربينا على حواف طرابلس ودرسنا في مدارسها ما جعلنا في موقع المتصالح معها على عكس الآباء الذين استمروا في شتمها وحنينهم لمرابعهم الأولى التي ألهتهم عنها هذه المدينة القاسية، يجمعنا حب الكتابة والقراءة والنقاشات الطويلة التي نفتعل فيها خلافات ثقافية بيننا ونقر في نهاياتها أننا متفقون، اشتغلنا على هامش المطبوعات الرسمية لحركة اللجان الثورية التي فقدت بعض سلطاتها لصالح الكتائب الأمنية الخاصة التي توسع في تكوينها بعد الغارة الأمريكية، لقد أدرك مؤسسها نفسه القدرات المحدودة للحركة التي كونها من شباب قرويين أشرف شخصيا على أدلجتهم وتسليحهم، وقاد بهم ثوراته الصغيرة المتوالدة كما عند ماو قائد الصين الذي برع في الزحف على الطلبة والتجار ونخبة المجتمع.

لكن القذافي في الوقت نفسه كان مازال في حاجة لخدمات حركة اللجان الثورية لسمعتها الترهيبية العالية بين المواطنين، إذ أن حضور شخص ثوري واحد يتكلم تلك اللهجة المطاطة الخاصة - التي طورها العقيد القائد عن لهجته الأصلية- بنبرة الصوت تلك، وبعض المصطلحات الثورية، يستطيع تغيير مجرى تجمع بكامله لصالح الثورة حتى ولو كان جنازة ميت.

بعد خسارة الحركة لبعض هيبتها إثر تزاحم اعضائها أمام المثابات الثورية لتمزيق ملفات عضويتهم ليلة الغارة، الأمر الذي أدخلها في

قاموس النكتة اليومية المتنقلة بين الناس، ساد جو من الغموض والقلق في أوساط الأعضاء الثوريين، وسرعان ما لفت الملحق الثقافي الذي نصدره النظر، في البداية رحب مكتب اللجان الثورية به واعتبره من إنجازاته الثقافية، بخاصة لأنه يوفر له مساحة لخلق جو متكلف الجرأة من خلال المقالات التي كانت تكتب.

ولكن فيما بعد بدأت الشكوك تحيط بالملحق، أخذ اعضاء الحركة المكلفين بالعمل الإعلامي والتوجيهي التعبوي يراقبون خفية وبتوجس تلك المجموعة الفوضوية وهى منكبة في الغرفة الجنوبية على تصحيح وإخراج تلك المواد المليئة بالجمل التي بدت لهم غامضة ومصحوبة برسومات غير واضحة المعالم، لم نكن نصغي لتلك التلميحات التي تتهمنا بالشيوعية والفوضوية والانحلال الخلقي، فقد كنا نتقن عملنا ونعرف بأنهم بحاجة ماسة لنا، ولكن عندما زادت الشكوك وبدأت تصاحبها بعض التهديدات الضمنية بدأت ووهاب التردد على رابطة الكتاب وهي آخر تكوين مدني في ليبيا بكاملها، نجلس فى البلكونة منفتحين على منظر البحر الجميل في الطابق الثاني من الفيلا المتهالكة بحي قرقارش الفخم، نشرب الشاي والقهوة ونتحدث في الاهتمامات، المجموعة الصغيرة من الكتاب كبار السن التي كان قد تم ترويضها منذ زمن وتعودت على أحاديث صرف العملة والمهام الخارجية وماشابه ضاقت بنا في البداية ثم تعودت على وجودنا ووهبوا لنا البلكونة المقابلة للبحر، بحديدها الصدىء ومكيفها البارز وكراسيها البلاستيك البيضاء الشائعة في كل مكان من المدينة، انفتح لنا أفق آخر وبدأت لنا بعض المشاريع قابلة للتحقق...

نظرت للساعة الموضوعة فوق التلفزيون التي كانت تشير إلى قرب الواحدة ظهرا وشرعت في تغيير ملابسي ثم خرجت من الباب الخلفي

المطل على الهضبة الشرقية حيث بدأت الحياة ضاجة ومستمرة في ذلك الحي الشعبي الذي يسمى بالصين لكثافته السكانية وفقره، وقفت بجانب الطريق الرث حتى توقفت سيارة أجرة بجانبي فكرت أنا أفكر في الخبر المزعج، فكرت أن أمر على وهاب في الكلية وتراجعت لأن ذلك بدا لي إلحاحا غير مبرر، عدت البارحة قرابة الفجر من المناوبة في قسم الأخبار وكان هو نائما في الغرفة ذات السريرين، حرصت على عدم إحداث جلبة أثناء مروري نحو السرير الثاني وسط الظلمة ولكنه كعادته همهم معلقا وعاد للنوم، كان وهاب حذرا مثل ذئب ولكنه يجيد إخفاء ذلك تحت مظهر من السخرية والمرح، يبدو وكأنه يدرك جيدا لمعنى مايفعل، وكان ذلك الشعور يصيبني أحيانا بالخوف. نظرت لساعة التاكسي ونحن نقترب من وسط المدينة فوجدت أنه مازال أمامي نصف ساعة على موعد الغذاء الذي اتفقنا أن يكون بمطعم الشجرة بشارع جمال عبدالناصر، وهو مكان صغير وغير مرتب يحتوي على بضعة طاولات بعضها دائري كبير ولكنه نظيف، يقصده موظفو التلفزيون والإذاعة وبعض الصحفيين والمشتغلين بالإعلام، قررت أن أتوقف في شارع احمد المقريف للتمشي في الشارع باتجاه المكان، أخذت الطرف الذي يفترشه الظل وانطلقت بتمهل سارحا في المعمار الإيطالي الجميل حيث حرص الفاشست في لمسة نادرة أن يمزجوا المهارة الرومانية بالروح الشرقية في المعمار، مررت على مكتبة تصفحت فيها بعض الكتب ثم استدرت مع شارع عمر المختار وعندما وصلت للمطعم لمحت سيارة وهاب التويوتا الزرقاء فدخلت باحثا عن الطاولة التي يجلس عليها في المكان المزدحم بزبائنه.

وجدته في الركن على طاولة مشتركة مع عمار الناهي ونفرين آخرين من التلفزيون واضح أن ضرورة ضيق المكان هي التي اقتضت

جلوسهما، كان قد احتفظ لي بكرسي بينه وعمار وجلسنا منشـــرحين نتحدث عمانريد أن نطلبه من الأطباق الطرابلسية اللذيذة، التي ابتكرها يهود المدينة الذين هاجروا تباعا منذ قيام (اسرائيل) والتي حملهم القسم الاكبر من الشعب مسئولية قيامها، اتجهنا إلى مكان الطلبـــات الـــذي يفصله حاجز خشبـــي يعلوه لوح زجاجي عن مكان الزبائن وطلـــب وهاب صحن حرايمي وعمار فاصوليا بالكرشة ورجعت أنـــا بصـــحن كوارع بالفاصولويا كفيلة بأن تبعث في حرارتها نشاطا يطـــرد بعـــض الترهل الذي أحس به، كانت تلك عادتنا، يطلب كلا منا صحنا مختلفا لنشكل في النهاية مائدة صغيرة متنوعة نتبادل اكل صـــحونها حســـب الرغبة، وما إن بدأنا في ذلك حتى بدأ رفاق الطاولة مـــن التلفزيـــون الحديث عن قائمة طويلة أصدرها رئيس الوزراء تشمل أسماء مئات من الذين تم الاستغناء عنهم وتحويلهم لهيئة الأمن الداخلي للعمـــل بهـــا، وعندما سمعت ذلك نظرت إلى وهاب وعرفت فورا من الطريقة الـــتي دس بها رأسه في الصحن بأن اسمي من ضمن الأسماء وأن هذا هو الخبر المزعج الذي تركه لي في الورقة، وبعد خروجنا ذهبنا لبيت عمار حيث استقبلتنا زوجته بالشاي والمواساة وعندما جلسنا أخرج عمار القائمـــة التي تحصل عليها من صديق بالوزارة، كانت عبارة عن عشـــر أوراق وكان اسمي يحمل رقم 280 وموقعة من رئيس الوزراء مع إشـــارة أن المذكرة أساسا محولة من وزارة الإعلام.

قضيت الأيام التالية في التفكير ومحاولة السيطرة على غضبـــــي لأني آخر من عرف وليقيني أن هذه الحادثة هي مفصل بين ماقبل وبعد، وأن الأمور كانت سيئة ولكنها منذ الآن ستكون في غاية الســـوء، لم يخبرني مديري في العمل كما حدث في مرة سابقة عندما كنت أعمـــل في النشرة اليومية الخاصة التي تصدرها الوكالة وقرر مـــديري الســـابق

تحويلي للجيش وبالكاد تدبرت الأمر بالانتقال لقسم الأخبار والنجاة من القدر البائس الذي رسم لي، الجميع يتعرض لمثل هذه المطبات المفاجئة، ولهذا تلزمك مهارات لابأس بها كي تستطيع أان تعبر إلى اليوم التالي في ظل الغياب التام للنظام. يبدو لي أن هذا المطب جدي ويصعب الفكاك منه، دخلت في نقاش مع وهاب وعمار الناهي حول الخطوة القادمة التي بدا أنها غير موجودة بالأساس وخالط نقاشنا مناطق حادة صاحبها لوم وقسوة ومساندة وتعهدات ثم سرعان مانسينا الأمر برمته عندما بدأنا الشرب.

وفي اليوم الذي تقرر فيه اجتماع المحولين للهيئة يرأسه عضو مجلس قيادة الثورة حامد الأشهب اتجهت بعد تردد وفضول إلى قاعة الشعب التي كانت قبل مصادرتها مشروعا نموذجيا يضم صالات ترفيه وسينما ومسرح تم تأميمها جميعا وأصبحت لسنوات مقر مؤتمر الشعب العام الرسمي ومات صاحبها الحقيقي بجلطة مفاجئة في المخ ناجيا بذلك من محاكمته كما حدث لأصحاب الأعمال الذين جاءوا بهم للتلفزيون في مسلسل طويل تابعه الناس في كل بيت، كان التاجر أو المقاول يجلس مقابل الكاميرا ويدلي بإجابات يطرحها شخص غير موجود في الصورة وإن كانت الناس كلها تعرف أنه العقيد سنوسي التهامي، عرفه الناس لأنه كلف بالتحقيق التلفزيوني مع كل المتهمين طوال سنوات حتى أصبح العقيد سنوسي في شهرة المذيعين ولو بالصوت فقط، ومن خلال تلك الإجابات كانت سيرة المتهم تتكون وتحوي داخلها اعترافات بأعمال شائنة استغل فيها أهله وبلده، ورغم أنه مامن أحد كان يصدق ذلك، إلا أن البث كان يتواصل كل يوم، وبعد أن انتهى سجن التجار والمقاولين كل حسب ثروته انقطعت أخبارهم.

تقع القاعة في بداية طريق قرقارش بجانب حي مستحدث من الفلل، لونها أبيض ومحاطة بحديقة كبيرة بدت متعارضة مع إحساس التصحر الذي خيم على مستقبلها، توجهت لرجال الأمن في الاستعلامات حيث الطابور، أعطيت اسمي عندما حان دوري أخذ الرجل القابع خلف الفاصل قائمة تبينت أنها نفس القائمة التي تحصل عليها وهاب ومر على الأسماء سريعا حتى وصل إلى حرف السين وعند الرقم 280 ردد الاسم حتى أسمعه جيدا: سالم ناجي سالم، وعندما أكدت له ذلك مبرزا بطاقة الوكالة الصحفية أشار علي بالاتجاه إلى الباب حيث كان طابور آخر يتزاحم على الدخول.

مررت النظر في الصالة وتبادلت التحايا مع المعارف والأصدقاء من هذا الجمع الكبير الذي بدأ متوحدا في المصيبة ومتطلعا لما يمكن أن يسمعه من الرجل النافذ الذي كان على وشك الوصول، كان العقيد حامد الأشهب مشهورا بأنه يتاجر في كل شيء بما في ذلك السجائر وحفاظات الاطفال، فهو يحوز بفضل منصبه كممثل لمجلس الثورة في الأمن على حصة وافرة من سوق البزنس الذي احتكره ووزعه على ضباطه وناسه المخلصين، يظهر التدين والتواضع حيث يميزه عن باقي أعضاء المجلس عدم صبغ شعره ما أضفى على سنواته القريبة من الستين وقارا مخادعا يزينه دائما بملابس يغلب عليها اللون الأبيض موحيا بذلك ببعض التقوى والسلام، إلا أن هذه الصورة اكتشفت مع الأيام وصار مضربا للمثل في النهم والتقية والبخل الشديد، عندما دخل مع مرافقيه من الباب الخلفي ساد الصمت والسكون، كان يرتدي بدلة الكاكي ويحمل عصا صغيرة نَحرها من شجرة رتم، توجه لوسط الطاولة العريضة وجلس حوله مساعدوه ووزير الإعلام الذي كان خريج السوربون ومنشيء خلية سارتر في الجامعة قبل أن يتحول في الزمن الجديد لداعية ومنظر لحكم الجماهير.

مسح العقيد الصالة بعينيه الثعلبيتين بهدوء وتأن ماصا ريقه على شفة المايك ومحركا لغزته البارزة ككرة صغيرة من القات، أتى صوته كحشرجة تأتي من قاع بئر شارحا نظرية الأمن الجديدة التي ستتبناها الجماهير، حيث سيتم نشر الأمن الثقافي لمقاومة الغزو الفكري القادم من الغرب، ثم انعطف بعد دقائق ليفسر الهدف الذي تحول فيه المئات من الإعلاميين فجأة إلى هيئته وقد تم ذلك بعد دراسة عميقة ضاربا مثلا بطريقة بناء المخابرات الأمريكية التي تعتمد بدورها على الآلاف من العاملين في هذه الشريحة وكيف أن هؤلاء يلعبون دورا أساسيا في مخططات هذه المؤسسة الإمبريالية وخلص إلى أن دولة الجماهير عليها أحيانا أن تستخدم نفس أساليب أعدائها كي تنتصر عليهم، وعند وصول العقيد حامد لهذا الحد انفصلت عن صوته ومررت بعيني على الصالة الهامدة أتفرس في الوجوه المتعبة التي بدا أنها تنتظر مثلي انتهاء جلسة التعذيب هذه للخروج لاستنشاق الهواء من جديد، ولمحت أيضا العديد من الزملاء - المعروف عنهم انتماؤهم للأمن والمخابرات من قبل وقد وردت أسماؤهم مجددا في القوائم للتعمية والتضليل - وقد بدوا منهمكين في أدوارهم بالاستماع المركز للكلمة ثم الشروع في طرح الاسئلة المقررة سلفا والتي غطت على استفسارات القلة التي بادرت مستوضحة عن آلية العمل وحركة الرواتب وسجل الخدمة السابقة وغيرها من التفاصيل التي تقع على هامش ماحدث.

قضيت شهرين في دوامة الهيئة والمؤسسة الوهمية التي شرحها العقيد وتبين أنها مجرد كلام، كنت أحضر آخر الشهر، أقف في الطابور خارج أحد المقرات الأمنية بشارع الجمهورية واقبض راتبي وأنا في غاية الخجل، كان العدد يتناقص في كل مرة حيث تحصل الكثيرون من المحالين على ملفاتهم من جديد وعادوا إلى أعمالهم التي توقفت بفضل

القرار فاحتاجوا لهم من جديد وظللت أبحث عن مخرج ووساطة توصلني إلى ملفي أنا الآخر رغم أنه كان واضحا أنني لم أترك فراغا ولا يحتاجني أحد، حتى توصلت بزميل معروف بخدماته الأمنية. تردد في البداية ثم ضرب لي موعدا وذهبنا سوية إلى إحدى الإدارات التابعة للأمن حيث التقينا موظفا يقبع في وسط ملفات متهالكة تحيطه من كل مكان، استقبلنا بحيادية ميت وأشار إلى زاوية في الركن حيث وقفنا منتظرين حتى حضر بعد دقائق موحشة بالملف وهو يهز رأسه بهدوء:

- **هذا ملفك، قال بحياد ثم استأنف، ولكن اعذرني ما أفعله الآن منافي للتعليمات.**
- **اعرف، انا مدين لك بهذه الخدمة، قلت ذلك متطلعا الى رفيقي الذي استحسن الجملة دون ان يغير من سحنته.**
- **شوف، قال الموظف الذي يحمل اسم ابراهيم، ساقول لك شيئا لانك جئت مع الافندي عاشور، انظر الى التأشيرة هنا.**
- **نظرت إلى المكان الذي حدده فوجدت قميشة بقلم ازرق تنص على عدم منح الملف لحامله تحت اي ظرف فسألت الملازم عاشور عن مايعني ذلك فاخبرني أن هذا يعني ان احدا ما اوصى عليك بشكل شخصي.**
- **من يكون، ربما نعثر على احد يعرفه.**
- **لاتحاول، قال الموظف الخبير، صاحب التوصية لن يتراجع عنها، انتظر لحظة، ثم غاب دقائق اخرى طويلة قبل ان يرجع.**
- **شوف، قال وهو يمنحني ملفا آخر.**

كان الملف المتهالك يخص زميلا آخرا رفض ابراهيم ان يذكر اسمه ولكنه أظهر لي تأشيرة يختلف لون حبرها وخطها عن الأولى وهو أمر سرعان ماوضح عندما استأنف ابراهيم مستطردا:

- حتى هذا هناك من وصى عليه زيك، انس الموضوع، قال عاشور ووافقه الموظف بهزة من رأسه، لن يخرج ملفك من هنا مهما فعلت وعليك ان تتدبر البدء من جديد بعد ان تهدأ الأمور، وهذا ماسيكون على مجموعة اخرى عليها نفس تهميشتك ان تفعله.
- من هم، قلت متسرعا بلهفة من يبحث على رفاق للتأسي.
- ابتسم ابراهيم من هذه الخفة وقال لاتتعجل ستعرف ذلك ولابد، خذ وقتك.

وهكذا قررت منذ ذلك اليوم أن أتوقف عن كل شيء له علاقة بالملف والعمل في الاعلام واخترت أن أرمي بنفسي في المجهول متوقفا عن الذهاب آخر الشهر لقبض الراتب، وبدورهم لم يسعوا إلى البحث عني مكتفين بما تحقق.

1

حالة من الحبور تسيطر اليوم على المركز، استيقظت في الضحى على صوت مهدي وهو فتى في حوالي العاشرة من عربستان، أطللت من النافذة فرأيته يقود دراجته وهو يلوي برأسه في الهواء مرددا: يااالله شو حلوة هالمطر.

التقيت بمهدي ووالدته واخته الصغيرة في المطعم قبل أيام، ساعدتهم في حمل الصحون وتعديل مكان الطاولة حيث كانوا يرغبون في صفها بجانب معارف لهم من إيران، نشأت بيننا مودة، نبتادل التحية كلما جمعنا المكان، الأم خمسينية على شيء من النباهة متعودة على غياب الرجل في حياتها، أعجبتني طريقة تعاملها مع مهدي وأخته، واضح أن العلاقة بينهم لايربطها الخوف ولكن المصير المشترك..

يسير القاطنون بخطوات مرحة تحت رذاذ المطر، إنه يوم الاثنين، يوم صرف المعونة الأسبوعية، أربعون (خلدن) يجهز البعض دراجاتهم بانتظار توقف المطر بعد قبض المعونة ليذهبوا للتبضع في مركز المدينة.

.. كل ماجلبته من ليبيا كان خمسمائة دولار، صرفت منها مائتين في تونس خلال انتظار موعد الطائرة ثلاثة أيام، حيث تمتعت بإجازة مكثفة ابتعدت فيها على مقهى باريس وباقي الأوكار التي يتردد عليها المثقفون والشعراء، متجولا في باب سويقة والاحياء الخلفية..

في مطار أمستردام لم يصدق الشرطي أن هذا كل ما أملكه ظل يقلب جواز سفري وينظر إلي ثم يفرك الورقات الثلاث ذات فئة المئة، ثم قرر منع دخولي بحجة عدم توفر مايكفي من النقود فاضطررت لطلب اللجوء في المطار عكس مارغبت فيه، كنت أنوي دخول امستردام بحثا على شيء من الألفة واعتياد المدينة قبل تسليم نفسي لسلطات الهجرة. كنت مرعوبا من تمسكي بقراري، ساعيا في لا وعيي الى تأجيله مااستطعت بعد أن صرت على المسرح...

لقد كان يوما طويلا، استيقظت صباحا لأجد بوهدى واقفا بجانب السرير، أخبرني بوجود اسمي على لوحة الإعلانات للمتوجب عليهم مراجعة مكتب الشرطة، غيرت ملابسي على عجل وقطعت فاصل الاسفلت متوجها للمكتب، استلمت إشعارا رسميا يحدد موعد جلسة وزارة العدل لشرح سبب طلبي للجوء، ذلك أنه يجب أن يكون في اليوم قبل الأخير من هذا الشهر، (اكتوبر)، أخبرت بوهدى الذي كان ينتظر عند الباب، ثم ذهبنا إلى مركز المدينة في جولة استكشافية، هذه مرة أولى أخرج فيها من المركز بقصد التجول في مدينة لايدن دون هدف محدد، بدت صغيرة ونظيفة، توجد بها ميادين محفوفة بالخضرة، وحديقة كبيرة تمر بها مياه النهر من تحت الجسور،

أمضينا الوقت في الحديث عن معارفنا المشتركة والمجر التي يكاد بوهدى لايغفل عن ذكرها صارخا بين الحين والآخر:

يخرب عرضك يابودابست. طوال الوقت كنت افكر في الانترفيو – كما يسمى هنا –

لاحظ بوهدى ذلك في نقاط مختلفة من يومنا، كان أيضا مع فكرة أنه كان علي تقديم نفسي كعراقي، فأنا افهم اللهجة جيدا، وسمعت حكايات عراقية كثيرة بحيث أستطيع انتحال واحدة منها أو تركيب مجموعة منها في واحدة:

– **انت تفكر انه أول ماتقوللهم انك صحفي من ليبيا راح يقولون الك: اهلا وسهلا. ياعمي الناس تعرف العراق، افغانستان، السودان،... ليبيا.. وشنو ليبيا هذه؟**

صدق بوهدى، طوال العشرة أيام الماضية، استغرب كل من قلت له أني ليبي، يعقب الإستغراب عادة حالة من عدم الفهم يتحول أحيانا لاحتقار خفي كوني لا أريد أن أعيش في بلد يحكمه زعيم فذ مثل العقيد معمر القذافي الذي يحظى بشعبية كبيرة في المركز!

ولكن عدم وجود ليبيين غيري في المركز، أحاطني بهالة أثارت فضول البعض حولي وجعلت من حضوري أكثر قبولا عندهم وتغاضوا عن كفريي بالنعمة التيي كنت فيها كما يظنون. لم يخل تصرفي من الانتهازية منذ أن اكتشفت قانون الندرة هذا، انتهازية راقية كما بررت لنفسي:

القضية الليبية غير معروفة هنا كما في لندن وأمريكا، حظوظ العراقي مضمونة تقريبا ثم الأفغاني والسوداني خاصة الجنوبي، باقي الأربعين جنسية المتواجدة في المركز يملكون فرصا أقل لنيل صك الدخول إلى جنة اللجوء.

دخلنا مقهى صغيرا يشغله نفر من الزبائن كبار السن، طلبنا قهوة وجلسنا في انتظار توقف المطر، أيقظ البلل الإحساس بالغثيان المترسب من ليلة البارحة حيث تدبر لنا بوآثار ماء مثلجا وكيسا من الفول السوداني لنتمكن اخيرا من مزج الريكارد وشربه كما يجب أن يشرب، ونحن نلعب الكونكان.. بوهدى أيضا ثائب من حين لآخر، وهو يراقب المطر وراء الواجهة الزجاجية باستسلام ونظرة مطولة متداعية مع أماكن أخرى، الناس في الخارج تتحرك بخطوات سريعة محاولة اتقاء المطر، الشارع منظم ونظيف، الدراجات تمر مسرعة متباعدة، زبائن المقهى يرددون همهمات متقطعة في أحاديثهم الهامسة رافعين رؤوسهم من وقت لآخر باتجاه المطر، لابد أنهم يتبادلون الأحاديث حول بدء موسم الشتاء الطويل، لايبدون على القدر نفسه من الاحتفاء بالمطر الذي يبديه المارة، توقفنا بدورنا عن الحديث واكتفينا بتعليق مقتضب من حين لآخر، واسغرقتنا إلهاكاتنا الصغيرة وما أثاره سقوط المطر في هذا المكان وهذا التوقيت في نفس كل منا.

بعد عبورنا لبوابة مركز طالبي اللجوء خطر لي أن أتوقف عند مدخل غرفة الهواتف، الواقعة بين الاستعلامات ومكتب الشرطة، غرفة صغيرة مستطيلة بها رف طويل تعلوه ثلاثة أجهزة معلقة على الجدار، لم أكن أنتظر أن يكلمني أحد، ومامن أحد يعرف لي رقما بالأساس، ولكن أفعل ذلك متظاهرا بأني انتظر مكالمتي دون أن ينتبه المتكلمون لحيلتي الجديدة لأنهم يتغيرون، فما أن ينهي أحدهم مكالمته حتى يمضي في حال سبيله ويأتي غيره ولايلاحظ وجودي المقصود. دفعني إلى هذه الحيلة الحاجة للبقاء في جو التخابر مع المعارف، وماتبثه حالة الاتصال بخارج مكانك من أحاسيس ومشاعر حميمية دافئة.

أحاول ألا أسترق السمع للأحاديث التي تدور بلغات متنوعة، مكتفيا بتصوراتي الخاصة ومراقبة وجوه الموجودين وهم ينتظرون المناداة على أسمائهم للشروع في الحديث، لمحت آدم السوداني بجانب الباب بلحيته الخفيفة، وقامته الربعة، وفمه المبتسم على الدوام، كان يضحك تقريبا لكل مايسمعه، صاف ونقي ومفتوح رغم تدينه الواضح. نموذج نادر لصورة المتدين المنسجم مع نفسه، لمحت من بجانبه أولا، بنت خلاسية بلون البن، ترتدي سروال جينز باهتا مشقوقا مباشرة فوق الركبة وجاكيتا مفتوحا على بلوزة رصاصية اللون، يعلو رأسها الصغير الجميل تاج من الضفائر الاصطناعية الطويلة وترتسم على وجهها نظرة مستطلعة تحاول الإلمام بكل شي، نظرة حذر مكتسبة من تجربة طويلة في حماية هذا الجمال المتوحش، اتجهت مباشرة اليه وانا متأكد بأنه سيضحك على أي شئ سأقوله، وبكامل حماقة الطفل الذي استيقظ فجأة داخلي مصرا على تحقيق رغبته ونيل مايريد، وجدت نفسي منهمكا في المنولوج الذي خطر لي في اللحظة والتو:

- **يا أخي مش حرام عليك المكر وانت رجل مجبول على الخير.**

وسرعان مابدأ آدم في الضحك ما شجعني على الاستمرار في حماقتي: طيب يا أخي أنت عرفتني على كل الذكور في رعيتك السودانية بالمركز، كل المقاسات والاتجاهات، حاجة متعبة، بس ماقلتلي انو عندكم بنات بهذا الجمال، لم يتوقف وازدادت ضحكته بياضا حتى استند على الحائط، فواصلت بدوري إلى الأمام: يا أخي كيف؟ هذا مو عدل، أنت رجل تخاف الله، كيف تحرم إخوانك اللاجئين من هذه النعمة، نعمة التمتع بجمال السودان العظيم، أنا أحب السودان، بالمناسبة أنا قدمت كسوداني هنا، قولت ليهم أنا حلبي مضطهد بسبب لوني الأبيض، أحتاج لمن يعلمني اللهجة، مش حرام

عليك... بالكاد قطع آدم ضحكه ليعرفني على جارته: الأنسة (عالية) من أثيوبيا بس مولودة في اليمن، ثم جاراني في العبث، حنا بالسودان ماعندنا جمال كدا، على رأيك.

في تلك اللحظة التي انتابني فيها إحساس الخزي، تعطفت فتاة البن وحركت يديها الأبنوسيتين إشارة الى أنها لاحظت أخيرا وجودي في المكان وأبدت رغبتها في التعليق، التفتت الي وقالت:

- **انت مش عراقي، انت من وين؟**

2

مضت الأشهر بطيئة والأيام متكررة، عاد الكساد والهدوء غير المنتج يعم طرابلس والبلاد كلها بعد أن توقفت الأحلام وعادت الأشياء إلى طبيعتها الأولى، أصبحت شبيها بعمال التراحيل أكسب الرزق القليل من العمل المؤقت في بعض الصحف والمجلات الطارئة التي يوفرها لي أصدقاء ومعارف، أعمل كسمكري يقوم بأعمال التصليح والتصحيح وشد المواد وكتابة العناوين، عملت في الأشهر الخمسة الماضية كمتعاون في مجلة صوت الوطن الكبير، كنت أحضر ثلاث مرات أسبوعيا للدور الثاني بمقر الإذاعة في شارع السيدي حيث أجد المخرج ومسؤول التحرير، أجلس خلف الطاولة منهمكا في إعادة تحرير المواد وصياغة رسائل القراء المفبركة في معظمها، أفعل هذا وأنا أتبادل القفشات والتعليقات مع المخرج العراقي، وهو فنان تشكيلي، لم يكن معروفا معروفا حتى جاء لطرابلس بإنتظار الخطوة القادمة، غريب أمر العراقيين، السفر عندهم مسألة ليست شاقة أو هكذا يبدون على الأقل، يعجبني فيهم إتقانهم للسفر وتبديل الأوطان.

تطورت بيني وبين مخرج المجلة سرمد الساعدي علاقة صداقة كانت تلبي احتياجاتنا كلينا أثناء وجودنا في مقر المجلة. كان سرمد بحاجة شديدة لإطلاق نفسه براحة أكثر ووجد في نوعا من التوافق، إذ كنت بحاجة إلى زميل منفتح، يستطيع السخرية مما يعمل حتى نتغلب على ثقل العمل. يريني بين الحين والحين إخراجه لصفحة أو تخطيط لنص، فسرمد كان يخرج المجلة ويرسمها ويصمم الغلاف، ورغم أنه كان يعرف بحكم تجربته الحزبية الطويلة كعضو في الحزب الشيوعي العراقي تفاهة وزيف المؤسسة التي يعمل بها إلا أنه كان حريصا على إتقان عمله بقدر الإمكان، فكان يجود في الإخراج، ويرسم تخطيطات للنصوص التي تعجبنا ويحاول قدر جهده أن يخفف من بشاعة الفكرة التي يطلبها رئيس المؤسسة أحيانا كثيرة للغلاف الذي كان يخصص له وقتا كافيا برغم كل الضيق الذي فيه...

عادة أمكث بضع ساعات في المجلة ثم أمضي هائما على وجهي في إنتظار الليل. المبالغ التي أتحصل عليها بالكاد تكفي للتنقل والأكل الرخيص في المطاعم التي تعرفت على أغلبها عن طريق راضي الشايش الخبير بأزقة المدينة الخلفية. كان الشايش نسيج وحده، هاجر متجولا في السبعينات للدانمارك وبريطانيا ثم استقر فترة في أسكتلندا حيث تزوج وأنجب قبل أن يعود بأسرته الصغيرة إلى طرابلس هائما بين المقاهي القليلة المتبقية بينما تنتظره زوجته في ركن من المدينة أو بالبيت وعندما ملت الانتظار أخذت ابنها وعادت لبلدها ليوغل هو في حياة الصعلكة والتجوال، كنا نلتقي أحيانا صدفة عندما يكون كلانا يتجول في المدينة فيخبرني عن آخر اكتشافاته المطعمية حيث نذهب سويا لتناول وجبة بدينارات قليلة ونعرج على حديقة الغزالة نستظل بشجرة لنتحدث عن الصادق

النيهوم وماركيز وميلان كونديرا وأحيانا كان يبدأ في منولوجه الطويل المعتاد مهددا بعد كل مقطع بأنه سيعود للهجرة ويحرم هذه المدينة الحقيرة من حضوره، كان يحوز طاقة عالية مقارنة بسنواته الخمسين، يكتب القصة القصيرة المكثفة وله مجموعة بالانجليزية أصدرها أثناء إقامته باسكتلندا وبضعة قصص أخرى بالعربية متناثرة بين المطبوعات قبل توقفه عن الكتابة وتحوله إلى اختراع جديد أسماه النص الشفوي.

عانى الشايش من تجربة أليمة خلفت في نفسه دغلا من الحذر والشك والتردد، فهو في داخله شخص موهوب ويحوز على معرفة كبيرة لكن الأمر انتهى به إلى إظهار جانب آخر من شخصيته يتميز بقدر غير قليل من الارتجال المخلوط بتشوش الفكرة، ما جعل تواصله مع جماعات كبيرة أمرا غير قابل للتحقق، إذ أن معرفته على الحقيقة كانت تأخذ مدة طويلة، وهو امتحان لم ينجح فيه إلا قلة من الأصدقاء، وحتى هؤلاء كانوا في بعض الأحيان يتحاشونه فيذهب إلى بيت أمه الخالي بقرية تبعد عن العاصمة مئة كيلو متر..

قبض على الشايش مع مجموعة الكتاب الذين حوكموا في منتصف السبعينات بتهمة محاولة قلب نظام الحكم، لم يكن المقصود سجنه أو إعدامه ولكن تدميره من الداخل وزرع الخوف في أعماقه إلى الأبد، كان عليه أن يحضر جلسات المحاكمة داخلا القفص مع الآخرين بعد جلبهم من السجن، وفي كل مرة كان الخوف يزعزع كيانه ويصرخ في وجهه بأنه لن يخرج إلى الشارع من جديد، مضت أسابيع كثيرة على هذه الحال، تم الحكم على زملائه بالإعدام الذي خفف فيما بعد للمؤبد وأطلق سراحه هو ولكن بعد أن عشش فيه الرعب وعدم التوازن وتلاشت قدرة الحكم على الأشياء داخله.

نـــزلت من سيارة الأجرة بعد محطة البنـــزين واتجهت يمينا لمقـــر الرابطة لتسليم البروفة الأخيرة من مجلة الفصول التي كلفني "ســـوف" بتصحيحها، كان هذا العدد الأخير من المجلة التي قررت الرابطة بعـــد مشاورات ماراثونية تحويلها إلى شهرية شاملة لكسب ولـــو خطـــوة وحيدة جاءت حذرة ومتأخرة بعض الشيء نحو مساحة صغيرة للكتاب عبر منبر يوفر لهم إبداء الرأي في القضايا المعيشة التي لاتستطيع الفصول معالجتها بحكم طبيعتها الأدبية وصدورها الفصلي، وجـــدت ســـوف الوداني في الانتظار حسب الموعد جالسا وسط مجموعة بســـيطة مـــن المترددين على المكان، وما إن سلمت العدد وتبادلت بعض الجمل حتى سحبني لمكتبه الصغير الذي يدير منه المجلة، اطلع بسرعة على الورق ثم سحبني من جديد للمطبخ حيث اعتدنا التحدث وهو يعـــد الشـــاي الأخضر الخاص به بعد أن منعه الدكتور من تناول القهوة وأعـــد أنـــا قهوتي العربية (في الواقع هي قهوة تركية).

لايتخلى سوف عن ربطة العنق إلا في مرات نادرة، ويحضر دائما بأناقة جيله الستيني ولونه البني ووجه المخدد بآثار الزمن، ترك كتابـــة القصة القصيرة التي يعتبر من روادها منذ عقد ونصف واعتكف بعيـــدا عن العمل العام منذ أن أفقرت الساحة وتخصص في الكتابة للاطفـــال، وعندما ظهر بعض الحراك على السطح في فترة "أصبح الصـــبح" عـــاد بهدوء يتلمس طريقا للإستئناف، هو من أكثر أبناء جيله احتراما لأنـــه ظل بعيدا و لم يضف شرعية ثقافية على مايحدث ورفـــض الاســـتفادة المادية وبقي في منـــزله الذي لم يتجدد منذ سكنه وهو ما أكسبه مودة خاصة في جيلنا وعلاقة حميمة معي ومع عمار الناهي ووهاب، أخـــذنا شاينا وقهوتنا، وفي هذه اللحظة أخبرني سوف بأنني ساكون في لجنـــة التحرير الجديدة ثم سار أمامي دون انتظار تعليقي بطريقـــة مســـرحية

مرحة، وعدنا إلى البلكونة حيث جلسنا مع الآخرين الـذين كـانوا منهمكين في الحديث عن الخطوة الجديدة لمجلة الفصول الشهرية والـتي كان من المقرر أن توضع خطة إصدارها النهائية بعد يومين عندما تصل مجموعة بنغازي لمناقشة التفاصيل الأخيرة.

بعد فترة من صمته، مال علي سوف وهمـس في أذني بصـوت متحشرج من التأثر:

- **أترى، حتى مواضيع الحـديث تغـيرت هنـا، أصـبحت أكثـر جدوى.**

كان يشير بذلك إلى اختفاء الأحاديث الخاصة بتصريف العملـة وأسعار المواد الغذائية التي كانت شائعة في المكان، وبعد يومين جاءت جماعة بنغازي كما نسميهم، كانوا خمسة كتـاب، بينـهم سـجينان سابقان، خليل الفيتور بعصاه التي يستند عليها بعد قطع قدمه عنـدما أصيب بالغرغرينا في السجن ويوسف طيب بقامته الطويلـة النحيفـة وأعصابه المتوترة على الدوام، جاء أيضا عربيـي سليم الذي يكتـب النقد ونوري دائم وسليمان جمعه، كان سوف قد أعد صالة اجتمـاع مبتكرة في الطابق الثاني بكراسي بلاستيكية، وفرش الطاولـة الكـبيرة بشرشف أحمر أخرجه من دولاب مهمل، ووضع فوقها أوراقا وابريـق شاي وكنكة قهوة، واستمر الحديث حتى العاشرة ليلا قبل أن نتحـول جميعا إلى الفندق الذي في مواجهة المقر حيث نـزل الضيوف لنستأنف النقاش حول لترات من البوخة إلى الفجر عندما توصـل الحاضـرون للنتيجة النهائية، المجلة ستطبع على نفقة وزارة الإعلام بناء على مخاطبة سابقة، وسيكون العمل بها مجانيا مع منح مجموعة التسيير في طـرابلس مائة دينار لكل فرد للمواصلات، وستكون لجنة التحرير من ستة أفراد مناصفة بين المدينتين.

2

صحوت ظهرا على صداع جراء سهر ليلة البارحة التي بالكاد تذكرت منها أطيافا مشوشة وأنا اتابع من تحت الغطاء سقف الغرفة المختلف عن البيت الجامعي، لمحت عصا خليل على مقربة مني وتتبعتها حتى رأسها لأراه نائما بجسده الضخم على السرير الوحيد، قمت بتكاسل متمايلا لمغافلة الصداع وغسلت بسرعة مقاوما رغبة في التقيؤ، كتبت ورقة سريعة لفيتور ثم خرجت نحو الطريق العام.

‘‘‘

عندما وصلت بيت يحيى عنقود في سيدي خليفة كان رأسي مازال يحاول تجميع مادار في ليلة البارحة، المائة دينار على تفاهتها كانت أول راتب ثابت لي منذ دخولي عالم البطالة والعمل في مجلة يصدرها الكتاب ليس بالأمر التافه، فمن حضر البارحة عبر بذلك عن دعمي مهنيا ومعنويا وتوفير حد أدنى مالي يؤمن لي الاستمرار، ما أشعرني بالامتنان والجدوى وأبعد عني قدرا لابأس به من شعور الغثيان الذي صاحبني في الطريق.

بعد الغداء أخذ يحيى في لف سيجارة وناولني إياها بأطراف مرتخية، كنت قد سمعت أنه دخل في مجال الهيروين ولكني لم أفاتحه في الأمر منتظرا الفرصة المناسبة، أخذت السيجارة الممدودة نحوي ومجيت منها بعمق لأدخل في مرحلة من الصفاء وأنا أراقب تلاشي الغثيان بعينين مغمضتين، أخبرته سريعا بما دار البارحة فعلق بغمغمة لم أتبين منها مايفيد، ناولته السيجارة واتكأت على الوسادة مستعرضا مايدور في رأسي من صور محاولا ترتيبها ما أمكن.

تعرفت على يحيى في الثانوية الدينية التي التحقت بها بعد أن تأخرت في اللحاق بالتعليم العادي، كان ابنا لمرب معروف في طرابلس

مات مبكرا في حادث مؤلم وخلف مكتبة دسمة تحتوي كل أمهات الكتب بالإضافة لمؤلفات متنوعة لطه حسين والعقاد وتراجم دار الآداب ومجلدات الرسالة وأعدادا كثيرة من مجلة العربي وكتبا أخرى كثيرة ومختلفة في اتجاهاتها.يرصد عدد منها بدايات الحداثة ومعارك الستينات الأدبية. بعد تعارفنا بقليل نقلنا الكثير منها إلى الملحق الصغير الذي كان دكانا لمساعدة العائلة في المصاريف قبل أن تلغى التجارة، كنا نبقى هناك أياما طوالا ونحن نقرأ في الكتب الكبيرة متبادلين مانجده وأحيانا نغرق في جلسات طويلة بصحبة البوخة والشعر، نتبادل فيها الأبيات كل حسب كتابه وعندما التحق يحيى عن طريق معارفه بالعمل في وكالة الأنباء دبر لي سريعا مكانا للعمل معه لنصبح منذئذ رفيقين دائمين إلى جانب زكريا جمجم الفريد في كل شيء. كان جمجم بلون الشوكولا ويحمل اسما جانبيا فاتنا هو طير الجنة لأنه كان يصبغ شعره في مراهقته بسائل تنظيف الجروح فيتحول إلى اللون الأحمر، كان أكثر شخص عرفته لايبالي بالتعليقات وأقوال الناس، يمضي قدما لهدفه مهما كان تافها أو كبيرا، دائم السخرية وتحتاج لقاموس من المودة حتى تفهم مايريده بالضبط. كان كلامه يبدو كأنه قص من ورقة وألقي بإهمال.

يرسم ويكتب الشعر الحديث ويربي كلبا ذئبي الشكل يتجول به مساء في طرف المدينة قبل أن يلتحق بالعمل، وعلى طاولته في وسط صالة الإخراج كان يلصق ورقات عدة خلف مكتبه يحصي بها عمليات المقاومة الفلسطينية التي تعلن في نشرة التاسعة والنصف، يقسمها بحسب نسبتها في بيانات الجبهات والأحزاب المختلفة ثم يقوم بجردة حساب لها في آخر كل عام معلنا بلغة تهكم زائفة البشرى وباعثة للقشعريرة: إن الصهاينة اليهود على وشك الانقراض جراء تلك العمليات المتواصلة التي يقوم بها الفدائيون، ثم يضيف الرقم الجديد

لقائمة خاصة يحتفظ بها في الدرج إلى جانب أرقام الأعـوام السـابقة مواصلا دون أن يتوقف عن الكلام.

هو أول شخص أراه يرتدي عدسات لاصقة بدل النظارة وهو ما لم تكن شرطة المرور ودوريات الأمن تتفهمه عندما يطالبونه بتفسـير عدم وضعه لنظارة طبية كما تنص رخصة قيادته، عندئذ يقلع جمجـم عدستيه في عملية غريبة تماما بالنسبة للتوقيت والمكان، وفي كل مـرة يزود السائل بشروح وافية كيف أن العلم تقدم وأنـه ركـب هـذه العدسات في رحلة علاج قام بها على نفقته الخاصة لإسبانيا منذ سنوات بعد أن يئس من العلاج على حساب العمل أو الدولة.

في ليال عديدة خلال الأسبوع كنا نخرج في سيارته الداتسـون الصغيرة هائمين في الشوارع الخالية حيث يسمعنا أشعاره، نتوقف بين الحين والآخر عند دكاكين السنفازة والمقاهي النادرة الـتي تفـتح في الفجر.

كانت له طرقه الخاصة للاحتجاج على مايحدث، مرة ذهبنـا في السيارة بحثا عن زيت فرامل من طرابلس حتى رأس جدير التي وصلناها صباحا قمنا بشراء حاجتنا من مهرب كان على وشك الانطلاق عابرا نحو الحدود التونسية.. لم تتفهم دوريات الأمن الرابضـة في البوابـات الفاصلة بين المدن والمتجولة في طرابلس مرات عديدة هذا السلوك، كنا نحل أحيانا ضيوفا مشبوهين حتى الصباح متعرضين لمختلـف الشـتائم والإهانات قبل أن يألفوا هذه الطلة المتكررة ونصبح معارف لهم، كان جمجم هو قائدنا في تلك الجولات في عالم طرابلس الليلي، مقاومته لمـا يحدث كانت على شكل اقتحام ليلي للمدينة وماجاورها اختراقا لكل شبكات الأمن والعودة سالما للسرير، كان يقاوم خوف كل ليبـي بطريقة غريبة ولاتعرف إن كانت شجاعة أم حماقة خالصة، بالنسـبة

له -كما أخبرنا مرات - أن التحدي الحقيقي ليس مايواجهه الذين تاهوا في الصحراء وضعف أملهم في العثور على طريق للنجاة بل في من يخرج ليلا مخترقا الشوارع وحتى المدن ثم يعود لبيته في طرابلس حيا وغير مطلوب، وقد كان ذلك هو منبع الخوف بالنسبة لكل الناس، الخوف من الأمن، لقد كان جمجم يدرك أن هناك تلاعبا ما بالألفاظ في هذه الصياغة، الواقع يقول أن الناس تشكو من قلة الأمن وليس الأمن ذاته كما يبدو لهم في الشارع، وللمساهمة في تحقيق الأمن كان جمجم يرى بضرورة الثبات في الشارع وعدم الخوف، من حسن حظنا أننا كنا الوحيدين في تلك المجموعة بصالة الإخراج اللذين فككنا شيفرة جمجم ورافقناه في تلك الليالي التي اكتشفنا فيها الكثير واكتسبنا بعض الخبرات المستمدة مباشرة من الشارع، وبالنسبة لي وليحيى كانت رفقته خلطة مثيرة تواجه فيها مواقف لحياة مختلفة كثيرا عن النهار، لم يكن في ليل طرابلس مقاهي ولا حانات ولاحتى سيارات في الطريق. ليل طرابلس مختلف. فارغ ويثير الخوف. هناك ليل ولكنه لايشبه ليل كل المدن. ليل موجود وتكاد تلمسه باليد للزوجته، ليل من نوع آخر لا تتوفر فيه السلامة...

.. كثيرا ماندخل أنا ويحيى الملحق محاطين بتلك الكتب المهيبة متخطين الأشعار المعلقة في الغرفة من كثرة الترداد...

في المعهد الديني كنا نقرأ: ألفية ابن مالك، وتاريخ الحديث، وعلم الفرائض، وقواعد البلاغة، والتفسير سابحين في العصور القديمة دون مبالاة بما يحدث حولنا، وفي يوم "العسكرية" حيث تأخذنا حافلة إلى معسكر للقوات البرية، كنا غالبا نختفي داخل دبابة روسية نوع تي 52، ندخن في قمرها الصغيرة المصنوعة ونستذكر ماقرأناه في تلك الكتب المجلدة حتى يحين موعد الانصراف، كان يحيى على العكس مني، محبا

للحياة والمغامرة ومحتفلا دائما بالتجربة مهما كانت النتيجة، قامة نحيفة وطويلة ورثها عن عائلة طرابلسية عريقة امتازت بالتنور والبساطة في فهم الدين والانفتاح على الناس. تعلمنا التدخين والشرب ومن ثم الحشيش وخضنا تجاربنا العاطفية الأولى سوية في مغامرات استكشاف لذيذة لأننا دمجنا كل ذلك مع القراءة والسفر في المجلدات، كان أيضا مدمنا على سماع الغناء والموسيقى كما يقول، يحفظ الكثير من المالوف الطرابلسي وأغاني أم كلثوم التي كانت لاتتوقف في الملحق الصغير، وكذلك الموسيقى الغربية حيث برع في حفظ أسماء مطربيها ومطرباتها وأنواعها وآلاتها، وعندما رسب في نهاية العام الدراسي بسبب مادة العسكرية قرر التوقف وبالكاد أقنعته بالمواصلة التي لم تطل إلا أسابيع قليلة في العام التالي ليتوقف من جديد بينما بقيت محاولا الاستمرار حتى ذلك اليوم الذي أخرجني فيه العريف بلعيد من الصف، وبعد مجموعة من الإهانات العسكرية أمرني بتكرار حركة استرح استعد مائة مرة وذهب بسريته لإكمال الدرس، بقيت وحدي في الساحة أستريح وأستعد بقوة آملا أن تنفتح الأرض لأغوص فيها من الغيظ والمهانة وعندما لم يحدث ذلك انتهزت أول فرصة وقفزت من السور واتجهت لبيت يحيى لألتحق به مثنيا على قراره بالتوقف.

واصلنا فيما بعد الدراسة عبر المنازل ونجحنا ودخلنا الجامعة حيث اختار اللغة العربية وتحصلت على واسطة بالصدفة زكتني، ودخلت قسم العلوم السياسية الذي كان شبه محتكر لأعضاء اللجان الثورية وضباط الأمن وأولاد المسؤولين.

طبيعة يحيى القلقة وفراغ الحياة وجفاف المناهج وعقد المدرسين تحالفت ضده من جديد ليترك في السنة الثالثة، بعد أن ترك العمل في الوكالة ليتخذ أكثر قراراته شجاعة وتهورا عندما قرر أن يبيع الحشيش،

كان يبدأ دوامه في المساء حيث يقف في الركن عند الزاوية المفتوحة على شارعين واضعا القطع الصغيرة ذات العشرة والعشرين دينارا في جيب، ويمارس مهنته الجديدة بسهولة وهدوء مستفز بالنسبة لي، لم أدنه ولم ألح في النصيحة عليه لأنه لم تكن لي الأسباب الكافية وحافظت على هذا السر بإخلاص، ليس عندي موقف أخلاقي من التعاطي ولكن أحزنني تحوله إلى تاجر مبتديء؛ لأن ذلك لايليق به وبتاريخ عائلته العريق، كنت أمر عليه في أوقات متقاربة، ندخل الملحق حيث يحضر غاز البريموس الصغير وسكينا حادة يضعها على البريموس حتى تحمر ثم يغرسها في قالب الحشيش فتغوص فيه نحو الطرف الآخر، ويستمر في التقطيع إلى أجزاء صغيرة مناسبة بمهارة وشغف، أحيانا يحضر أصدقاء وزملاء من الشارع يمتهنون نفس الحرفة، وفي نهاية جلسة التقطيع نتناول الفتافيت المتناثرة ونجمعها في قالب واحد صغير ونعيد تفتيتها بالولاعة وتدخينها قبل أن يخرج إلى ركنه المعتاد. أحيانا كنت أقف معه بدافع الفضول والتشجيع ورغبة في إيصال شعور من التضامن والتفهم له، وأحيانا أخرى يسيطر علي الخوف والارتباك فاتذرع بموعد طاريء أو أبقى في الملحق بداعي التعب، أو الرغبة في القراءة حيث أسرح في ملكوت الكيف متابعا سيل الصور التي تجري أمامي لاقطا بعضها لأنجر خلفها في عوالم خاصة وعميقة وبعيدة التصور خارج عالم السيجارة الغريب.

في الأشهر الأخيرة بدأت أشعر بتغيرات من نوع آخر تجري داخل يحيى، كان لي أيضا تغيراتي وانهياراتي الخاصة، وبشكل ما وتحت ظروف سريعة التغير وبطيئة الملاحظة بدأت لقاءاتنا تقل، ولكن مع كل مرة كنت ألاحظ أن هناك شيئا ما يجري في داخله ويحرص على إخفائه عني، حتى جاءني كريم الذي كثيرا ماكان يحضر جلسات تقطيع

الحشيش ويسكن على بعد من منـــزل يحيى بشارعين وحكـــى لي أن يحيى قد بدأ في تعاطي الهيروين، وسمى لي أسماء من الشلة الجديدة الـــتي تلتقي من أجل ذلك، وتعرفت على بعض الأسماء التي كنت أتبادل معها تحايا وأحاديث متقطعة أثناء وجودي في شارع سيدي خليفة.

‘‘‘

بعد حوالى عقد من السنوات كنت في مدينـــة ســـرت أتـــابع جلسات مؤتمر الشعب العام لصالح مجلة لبنانية أعمـــل مراســـلا لهـــا بالقطعة، كنت أقضي النهار في قاعة المؤتمر وجزءا مـــن الليـــل مـــع أصدقاء ومعارف قبل أن أسير على قدمي نحو فندقي الذي عند طرف المدينة الصغيرة شبه العشوائية. أمر من المنطقة الفخمة حيث الإنشاءات الحكومية إلى مساحات خالية تجول فيها الكلاب نحو الفندق للنـــوم، استمر المؤتمر زهاء أسبوعين وسط لغط كثير، كانـــت الأزمـــة مـــع الولايات المتحدة في عزها. سرى في المؤتمر أن وزير الخارجية ســـافر على عجل إلى واشنطن في زيارة غير معلنة ما اقتضى تمديد الجلسات في انتظار نتيجة الزيارة قبل اتخاذ أي قرارات. كنت أجلس في القاعة أراقب وجوه المسؤولين الذين لم يكونوا قادرين على فتح فمهم بكلمة واحدة أمام الصحافيين، وأتملى الخليط المتـــداخل مـــن الحاضـــرين المنهمكين في اللعبة الكبيرة التي تقتضي تمرير الوقت متظاهرين بـــأنهم يمارسون مسؤولياتهم بجد وضمير، خليط من اللكنات يقوم بارتجـــال جماعي للجلسات.

وفي أحد صباحات ذلك المؤتمر الطويلة اتجهت كعـــادتي لمطعـــم الفندق لتناول الإفطار وقراءة جريدة الوكالة التي كنت يومـــا أحـــد محرريها، وفي ركن الصفحة الخامسة الأسفل كان يوجد نعي مكتوب ببنط كبير: تتقدم وكالة الجماهيرية للانباء وجريدة الفجر الجديد بأحر

تعازيها لاسرة الزميل الفقيد زكريا جمجم الذي وافته المنية مساء أمس إثر حادث سير أليم.

رميت الجريدة على الكرسي المحاذي واستأذنت راجعا للغرفة بينما كان شريط متسارع من الصور يمر أمامي بطلها جمجم الذي قرأت نعيه للتو، حاولت دون توفيق الاتصال بيحيى ومعرفة مالذي حدث بالضبط، لم يكن موجودا وتلقيت إجابات مبهمة من عائلته فهمت منها أنه غير موجود وأن أناسا مروا عليه وخرج معهم و لم يعد.

في ذلك المساء المشؤوم كان جمجم الذي قرر أن يقضي عطلته الأسبوعية في البيت مع كلبه قد مر في الطريق على صديق أعطاه ثلاث حبات زرقاء، حاول أن لايأخذها في البداية ولكن الصديق المدمر أصر مؤكدا أنها قادرة على تغيير مسائه ونقله إلى برزخ من الهدوء والصفاء بعيدا عن الواقع المترب الذي نعيش فيه، كانت سيارته معطلة منذ أسابيع وتأخر إصلاحها لعدم وجود قطع غيار، تناول الحبات وأخذ سيارة أجرة نحو بيته على طريق المطار، نزل بجانب الجسر الذي سيأخذه للطرف المقابل، وفي لحظة حاسمة سها، تجاهل الجسر وعبر الطريق ولكنه توقف في منتصفه متأكدا أنه قد وصل للناحية الأخرى، كان يسير في الهواء بسبب مفعول تلك الحبوب الملعونة، لابد أن أشياء لافتة تستحق الوقوف قد ظهرت له في تلك اللحظة فوقف ليتأملها ظانا أنه في أمان. أشياء لن يكون في مقدورنا أن نعرفها لأنه لم يتسن له أن يقولها لأحد. في منتصف الطريق الثاني سمع دوي منبه لشاحنة مسرعة، نظر إلى مصدر الصوت ولكنه لم يستطع تجميع الواقعة في خياله المنفلت في تلك اللحظات على إيقاع الإلهام الأخير، ابتسم بهدوء وهو يلتفت نحو الشاحنة قبل أن يطير في الهواء ملاحقا روحه الساخرة وهي تصعد

للسماء طيرا من طيور الجنة. مات وهو يبتسم غير مصدق لما يحدث كما كان دوما.

،،،

لم يعد لي في هذه المدينة شيئ ثابت أعرف أنني سأقوم به بعد ساعة أو يوم أو شهر، وسط هذا الهلام الذي أتحرك فيه عدا شيئ واحد هو موعدي الوحيد الثابت يوم الأربعاء الساعة الواحدة ظهرا مع رحاب، إنها الكائن الوحيد الذي يخصني وأخصه بالكامل، أستعد لهذا اليوم منذ اللحظات التي تعقب انقضاؤه، أسير من أي مكان أكون فيه مبكرا نحو هيئة التوثيق بشارع النصر حيث تكون رحاب قد أنهت عملها، واستعدت مثلي لساعة نقضيها معا في كوننا الخاص حيث حولنا مكتبها الصغير المحلى بالصور والملصقات الصغيرة، والبطاقات الملونة إلى عش ننهل فيه من بعضنا كما نريد ونرغب في واحة ظليلة لها واقعها الخاص المنفصل عن مايحيط به.

الدخول لهيئة التوثيق أمر صعب تدبرته رحاب بمواهبها الخاصة، حيث أجد كل أربعاء تصريحا خاصا باسمي يمكنني من الصعود إلى هذه الجنة الصغيرة، ثم تعود مكتب الإستعلامات على وجودي فصرت أصعد مباشرة بعد أن القي التحية على الشخص الموجود، الذي لابد أنه صار يعتقد أنني أتعاون مع الهيئة مادام موعد حضوري مضبوطا باليوم والساعة والدقيقة، صعوبة تخيل تواجد مثل هذه الواحة هو ما أبعد عنا الكثير من العيون الفضولية، التي ماكانت تتصور أنه يمكن أن تقام صلة بيننا بهذا الشكل وفي هذا المكان.

تعرفت على رحاب صدفة في عرض مسرحي رفقة أصدقاء، لم أتوقع بداية أن تتطور الأمور بيننا إلى هذا الحد، نشأت علاقتنا من انجذاب كيمياء جسدين لبعض وتطورت دون الوقوع في مخاطر

أوهام الحب، ومتطلباته العملية المؤدية لهاوية الاستقرار الشكلي، عبرنا تلك الهوة إلى نوع من الصداقة الممزوجة بالرغبة والتفهم والسخرية من الأوضاع السائدة في العلاقات. كانت بقامتها المكتنزة وخصرها الضامر وشعرها المسترسل على شكل دوائر صغيرة مجعدة وبشرة سمراء على عينين سوداوين لاتظهر فقط جمالها البري، لكنها تظهر أيضا جاذبية صريحة وحضورا حميما. قضينا أيام علاقتنا الأولى على الهاتف ثم اقترحت هذا المكان الذي طالما كان منغلقا على فهمي كي نلتقي فيه كل أربعاء. كانت تتحرك بهدوء وعلى مهل في كل شيء، وتبدو غير مبالية ولا تنتظر شيئا، ولاترغب في مزيد، وعندما ذهبنا معا للأمام اكتشفت كم كان ذلك الهدوء مخادعا الذي يمكنها دائما من نيل ماتريد وترغب بالطريقة التي تختار.

في تلك الساعة قبل أن تنهي دوامها وتذهب للبيت كنا نفعل تقريبا كل شيء، الحب والحديث والصمت والوقوف خلف الشباك لمراقبة الكائنات وهي تسعى غالبا لغير هدفٍ محدد.

مرة سألتها وهي خلف جهازها تراقب شيئا ما عن طبيعة عملها بالضبط.

- **وماذا ستفيدك معرفة ذلك؟**
- **لا اعرف،.. فضول على الاغلب.**
- **طيب، نحن نستقبل كل ماله علاقة بعدد السكان.**
- **حسنا، وكم عددهم.**
- **لا احد منا يعرف، فنحن نقسم ذلك في جداول واجزاء وتسميات مختلفة.**
- **يعني.**

- **كل مكتب مختص بجزء من مجموع العمل، بحيث لايعرف احد الرقم النهائي.**
- **اقسام مثل ماذا؟.**
- **شرائح، مهن، اعمار، قبائل، مناطق، انواع... وهكذا.**
- **ثم.**
- **لاشيء، لاتشغل بالك فلا احد يعرف بالضبط النتيجة النهائية لكل هذا، نحن نجهز الاجزاء ونحيلها ولايدري احد إلى اين تذهب.**

لا أحد يدري، هذه هي المشكلة. إجابة رحاب بدت لي منسجمة مع الوضع العام واحترمت حرصها، وكففت منذئذ عن الفضول والأسئلة مفضلا عدم التشويش على وقت الهناء الذي نقضيه معا.

خرجت للشارع عند انتهاء دوام رحاب، وسرت نحو وسط المدينة متجها إلى مطعم صغير في شارع جمال عبد الناصر محاذرا أن يراني أحد من مرتادي مطعم الشجرة القريب، مخافة أن اضطر للمجاملات في وقت أنزع فيه للوحدة. كنت قد تعرفت على المكان في إحدى جولاتي مع الشايش. زبائن المكان اكثرهم من العمال المصريين وبعض الطارئين مثلي. طلبت صحن الفول والمخلل وسلطة ودفعت الدينار والربع وبدأت الأكل دون أن أتوقف عن التفكير في يحي، الذي بدا لي تغيره الآن في هذه اللحظة التي أمضغ فيها الخبز والفول واضحا. حدث الأمر بتدرج خلال انشغالي في المدة الأخيرة فلم ألاحظه و لم أتبينه كما أفعل الآن. توهجه بدأ يخف مؤخرا وكثر سرحانه وقلت نكته التي يجمعها من مرافقته لأصناف مختلفة من البشر ويعيدها لي في الليالي الطويلة التي نتفرج فيها على الأفلام المصرية المليئة بالصراخ والتي كان يعلق عليها ساخرا: من سيصدق من المارة قرب النافذة أننا لانتفرج على شريط جنس. كان خبر تعاطي يحيى للهيروين

بالنسبة لي إعلان منه بأنه قد تخلى عن الاستمرار في الحياة كما عرفناها، وفضل التعامل معها بطريقة أخرى لها منطق خاص. ليس للأمر علاقة بقوة المخدر أو نشوته بالنسبة له، وإنما قفزة في العدم بعد أن مل الحياة المكررة والمقفولة بحرص.

قبل شهرين أو ثلاثة وبينما كنا نجلس على ركابة الشارع حضر محمد طشان وهو من جيران يحيى ندخن معه في مرات متباعدة، طلب منا طشان الذهاب للبيت فورا، وهناك أخرج من تحت ثيابه كيسين بلون أبيض على شيء من الصفرة الخفيفة قائلا إن أحد أصدقائه أعطاهما له، وحيث أنه لايتناول هذه الأشياء فقد فكر في أننا يمكن أن نتصرف بها، قضينا وقتا ونحن نقلب الكيسين محاولين معرفة كنههما، كانا يبدوان مثل الملح المجروش أو البودرة المبللة، ثم قررنا فتح أحدهما وعمل سيجارتين منه، وبعد تردد دخناهما ثم خبأنا الكيسين. بعد ذلك مر وهاب لأخذي لأداء واجب عزاء في أم أحد الأصدقاء.

بقيت ليلة كاملة ساهما و لم أستطع أن أحط على الأرض منذ أن بدأ مفعول اللفافة وحتى غادرنا العزاء، كنت مليئا بالنشوة والثقة والهدوء وسيطرت علي موهبة مفاجئة بحيث كنت أعرف ما سيقال قبل أن يتفوه به قائله حتى كدت أجن، وفي مساء اليوم التالي مررت على يحيى الذي كان قد قضى ليلة مشابهة لاستئناف الحديث في أمر الكيسين فوجدته قد عرف أنها كوكايين، وعندما سألته عنهما أجاب ساخرا بأنه أعطاهما لشخص يتاجر بهذه الأشياء مضيفا بحركة مسرحية أنه حشاش فقط ولن يتجاوز ذلك الحد.

ماذا حدث له الآن؟ هل قرر أن يتجاوز ذلك الحد، ولماذا؟ بدا لي التساؤل ساذجا، فكل مايحدث يدفع نحو التجريب والهروب والبحث عن مخرج مهما كان خادعا، اللحظة الواقعية أكبر وأقسى من أن

تعاش، لا أمل ولا أفق ولا جديد، نعيش كلنا في يوم مكرر وكئيب بحيث تشعر أن جسمك ماعاد يطيق روحك وروحك ماعادت تطيق سجنها الضيق.

خرجت بعد وجبتي محتميا بالظل الذي توفره أقواس الشارع، من حسنات الإيطاليين القليلة أنهم حافظوا على المعمار الإسلامي في طرابلس بالشوارع التي بنوها، بحيث بدت رحبة بيضاء وذات أقواس جميلة متصلة مثل عقد على جيد، كانت الرجل قد خفت بفعل القيلولة وبدت المتاجر القليلة المفتوحة على وشك النعاس. رغم انفتاح(اصبح الصبح) والسماح بعودة التجارة الصغيرة، ظلت الدولة مسيطرة على التوريد وتحويل العملة فبدت المتاجر تدور في حلقة مخادعة، أغلب رفوفها خالية رغم الحيل العديدة التي يستنبطها أصحابها لإعطاء إحساس أن الأمور في طريق التحسن، ولمحاولة المجاراة انتشرت حمى متداعية بين السكان لممارسة التجارة واللحاق بركب الغنى. فتح الكثيرون دكاكين مرتجلة في خلفيات البيوت، وتحولت الغرف المطلة على الشوارع الجانبية في المدينة إلى متاجر مبتكرة تبيع سلعا متنوعة من السكاكر إلى الملابس الصينية المهربة، ورغم عدم وجود مردود فعلي لأغلب هذه المشاريع المسخوطة ظل السكان مصرين عليها في انتظار لحظة قدرية تحولهم لأغنياء، دون الالتفات لمنظر المدينة الذي كان يزحف حثيثا نحو العشوائية والفوضى واختلاط الأماكن ببعضها.

كثيرا ماسألت نفسي - ولمتها احيانا- عماذا كان سيحدث لو أننا تريثنا قليلا، وبعنا الكيسين ونقلنا حالنا أنا ويحيى إلى وضع جديد. يحيى أيضا يردد بين الحين والآخر نفس الحال متحسرا وتائها بين دواخله. كنا ننازع مقاتلين رغباتنا وواقعنا وإن سقط يحيى قبلي فلا يعني ذلك أنني أفضل منه باية حال.

أجلس في البيت الجامعي أتابع التلفزيون. وهاب لم يعد بعد. أشاهد المتنبي وهو يدور حول سميرة توفيق راقصا مثل زوربا بدوي مرددا: غني ياسميرة على الفاتح غني. وتغني سميرة على الثورة وقائدها وجماهيرها الهادرة وهي تغمز باستمرار، ولكن لماذا تغمز؟ فرحا بالمردود الذي ستناله أم انها منتشية بهذا الشاعر الفحل الذي يدور حولها كمن يطوف بجسد شهي لم تنل منه السنوات إلا قليلا؟ وهو يعوم في بياض ملابسه متناولا بذيل عمامته مرجعا إياه إلى مكانه في الخلف. أدخل المطبخ الذي بالكاد يتسع - في أيام الصحو- لشخص واحد، أفتح الثلاجة باحثا عمايصلح ليكون مزة عند قدوم وهاب بكيس البوخة التي صارت تعبأ في أكياس نايلون، بعد أن فقدت الزجاجات البلاستيكية من السوق. كيس صغير بربع لتر وآخر أكبر بنصف، وإذ أردت لترا فما فوق فيمكنك الحصول على مشروبك عندها معبأ في زجاجة مياه تسع لترا ونصف. أخرجت حبة طماطم وإصبعي خيار ووجدت أيضا بعض الهريسة العربية والجبن. صففت الأشياء فوق الطاولة في الصالة حيث أنام وجلست أنتظر وهاب الذي أخرج الكيس من كيس تسوق أكبر وجلب كأس شاي صغيرة بينما أفرغت المحتوى في زجاجة نحتفظ بها لهذا الغرض وبدأنا في الشرب على حسب العادة الليبية العريقة، كأس صغيرة واحدة تدور بيننا.

لايمكن فهم الليبيين إلا عن طريق شيئين، المكرونة المبكبكة وطريقة شربهم للكحول. المبكبكة هي اكثر من أكلة، وتكاد أن تكون النشيد الوطني غير الرسمي في ليبيا، وهي أيضا دلالة بينة على أن هذا الشعب الغريب قد استطاع أن يأخذ من الاستعمار الطلياني بعض عاداته ويطورها في إشارة على قبوله بالآخر واندماجه معه مهما كان الثمن الذي دفعه في ذلك، ومن بين كل أنواع المكرونة الإيطالية فإن

خلطة المبكبكة فريدة من نوعها وتعتبر إضافة جديدة للمطبخ الإيطالي نفسه، وتم إدراجها في كثير من مطابخ الدول التي درس وعمل فيها الليبيون، ونالت استحسانا وثبتت على القائمة كأكلة أحبها الزبائن رغم اسمها الصعب، ورغم صعوبة هذا الإسم فإن تحضيرها بسيط وسريع، وككل الوجبات الفريدة فقد تميز الرجال وخاصة العزاب والسكيرون وسائقو الشاحنات والحواتة منهم بطبخها وإجادتها أكثر من النساء.

مهما كان عدد المنتظمين في الجلسة فإن الشرب يتم بكأس واحدة، يجلس الندماء في دائرة ويداوم الساقي الذي يكون أكثرهم مهارة في تحديد الكمية، وأقلهم قابلية للثمالة على مناولة الجالسين بالدور، وتعقب كل دورة استراحة قصيرة حسب المزاج والكمية وحالة السكرة. لايعرف بالضبط السبب وراء الشرب بكأس واحدة، لكن ربما يرجع ذلك لندرة المشروب والحرص على تقاسمه بعدالة في التوزيع، ومهما كان الأمر فقد كان للكأس الصغيرة الوحيدة دور في إثبات وضع جديد لجلسة الشرب، تلك الكأس عادة تستخدم في شرب الشاي على الطريقة الليبية، هي التي تربط الحاضرين بخيط واحد خفي في حالة متوحدة من المشاركة والاندماج في جو واحد، ومهما ارتبكت الجلسة وحاق بها الشغب فإن هذا النظام كفيل بإعادة الأمور إلى نصابها والجلسة إلى مزاجها الأول، فالمشروب أثمن من تضييعه سدى.

أمرر عيني باتجاه الصورة الوحيدة المعلقة على الجدار، صورة إبراهيم شقيق وهاب وساكن الشقة السابق، أستاذ فن العمارة الذي عاد من أميركا محملا بالمثالية والرغبة في المساهمة بتطوير التعليم والرقي بالذوق العام. يبدو في الصورة بنهاية الثلاثينات بشارب خفيف وشعر غزير مفروق من المنتصف وعينين ثاقبتين دقيقتين في القبض على

التفاصيل وسط وجه ساكن. في هذه الغرفة كان إبراهيم يغالب قلقه المزمن من الحالة المتردية التي وجد نفسه فيها. كانت الفوضى الثورية سائدة في كل المناحي، والطلبة يمرون من مسيرة إلى أخرى ومن مهرجان إلى آخر، وما إن يحضروا للفصل حتى يحدث حادث في نيكاراغوا أو زيمبابوي أو لبنان فيخرجوا مجددا للتنديد والتضامن، وكان إبراهيم ينتظر عودتهم إلى مدرج المحاضرات ماضغا طوال الوقت ببطء ندمه على العودة، مغالبا شعورا كاسحا بأن عليه اتخاذ قرار جديد بالمغادرة. عند عودته كان اسم وهاب قد بدأ يلمع كشاعر وكاتب مقالة بنفس مختلف، وبالكاد استطاع تدبير هذه الشقة لأخيه العائد بعد وساطات عديدة في الجامعة. لم تتوسع الجامعة في مرافقها بشكل يتناسب مع عدد طلابها وكادرها وصار الأمر يحتاج للوساطة حتى تنجز الأشياء. كل شيء بدا لإبراهيم غير ملائم ومتداخل ويستحيل التعامل معه مادامت الفوضى هي المنهج السائد. كان قد سافر بعد الثانوية للدراسة ثم استمر في تدبير أموره حتى حصوله على الدكتوراه، وعندما عاد اكتشف أن ليبيا تغيرت في كل شيء.

في حالات اليأس الكبرى كان إبراهيم يخوض مع وهاب في نقاشات حول مايحدث:

- **ألا ترى ياوهاب، ليس هناك طلاب تقريبا، وعندما يحضرون في نهاية الأمر يبدون شاردين في انتظار أمر يدفع بهم لمسيرة جديدة.**
- **أرى ذلك، لكنهم سيعودون صدقني.**
- **متى.**
- **عندما يتعبون من هذا كله.**
- **ومتى يتعبون؟.**
- **لا أحد يعرف، لكنهم سيتعبون بالتأكيد.**

- **أنظر إلى هذا الخواء، ألاتفهم؟**
- **أفهم ياعزيزي، أعرف أن كل شيء يصدم هنا، لكنه قدرنا، أصمد أرجوك.**
- **أنا مدرس ولست جنديا في خندق، هذه ليست جامعة إنها بازار مفتوح.**
- **إنها مرحلة خراء وعلينا الصبر.**
- **إنهم ينظرون لي بعين اهتمام عندما أطالبهم بالبقاء في المدرج وتحصيل العلم.**
- **لاتفعل، أرجوك لاتفعل، فقط انتظرهم حتى يتعبوا، ماتفعله قد يكون خطرا.**
- **أعرف، أرى ذلك في عيون الطلبة الثوريين الذين يمسكون بكل شيء، إنهم يسموني الأميركي.**
- **انتبه، إن ذلك ليس جيدا بالتأكيد.**

وهكذا كانت حوارات الأخوين تمضي دون نتيجة مؤكدة، لأنه ما من أحد منهما يملك شيئا في اليد، وفي النهاية استسلم ابراهيم وبالكاد تدبر تأشيرة خروج لمالطا حيث جاءته صديقته الأميركية وتزوجا ومضى في طريقة إلى جامعة بنسلفانيا لتدريس عمارته. تسلم وهاب الشقة والسيارة ليواصل بدوره انتظار الطلبة الذين عادوا أخيرا متعبين وساهمين طوال وقت المحاضرة، وكأن أمانيهم وروحهم الفتية قد شاخت تحت قوة العبث الجبارة التي لاترحم ولاتستكين..

حضرت مبكرا إلى مقر الرابطة اليوم، صنعت قهوتي بالطريقة التي كان يحبها سوف الوداني قبل أن يمنعه الطبيب من شربها، ملعقتان من السكر تحركان جيدا في الماء لتمتزج به نهائيا ثم ملعقة من البن، وصعدت إلى الطابق الثاني حيث المكتب الذي خصص للمجلة، غرفة

كبيرة محاطة بحاجز زجاجي يفصلها عن الصالة التي كانت يوما تحتضن مناشط الكتاب. البحر متمسك بهدوئه رغم محاولات شهر يناير لإثارته. أتابع المنظر من حين لآخر وأنا أحتسي قهوتي وأتصفح مواضيع العدد الذي تم انجازها حتى الآن. إنه العدد الأول بالشكل والمضمون الجديدين حيث من المقرر أن تصدر المجلة مع نهاية الشهر كما تم الإتفاق بيننا بعد تحضيرات عديدة. على جانبي قرب النافذة جهاز الراديو المفتوح على برنامج صباح الخير ياوطني. المذيع الذي يفعل كل مابوسعه من أجل إعطاء انطباع أن كل شيء على مايرام يطرح سؤالا بصوت مفتعل عن اسم المركز الذي أنشأته الثورة، من أجل توثيق فترة الجهاد ضد الطليان، ويعطي أرقام هواتف البرنامج بنفس الحماس محرضا المستمعين على الاتصال. أتصفح المواد بهدوء. أغلبها نصوص شعرية وقصصية وبعض المقالات. مشكلة الصحافة في ليبيا أنها تقوم منذ فترة على أكتاف الكتاب بعد انحسار الصناعة الصحفية عقب المداهمات الثورية العديدة، وإلغاء الصحافة الخاصة وتخوين أصحابها ومحاكمتهم علنا في التلفزيون. لذا فإن اغلب المواد تأتي على شكل نصوص وهو ماناقشناه كثيرا وقررنا بذل الجهد في محاولة تغييره ما أمكن. قرأت سريعا بعض المقالات التي بدت في حالة جيدة وتحمل آراءا خجولة ولكنها تفصح عما تريد وإن مداورة فالحذر واجب. بعض الكتاب الذين اتصلنا بهم رفض فكرة الكتابة بالأساس معتبرا أن هذه المجلة ستكون فخا آخر لتجميع المارقين ومحاكمتهم من جديد. ركنت بعض النصوص الأدبية جانبا بهدف اقتراح تأجيل نشرها لأعداد قادمة للمحافظة على الطابع الصحفي للمجلة. المذيع يرد على المكالمات التي تحاول الإجابة على السؤال. يحيرني دائما كم التجاوب من المستمعين في مثل هذه البرامج. الناس تتصل وتكلف نفسها الوقت

والجهد. ربما في محاولة للتواصل أو لإثبات شيئ لا أعرفه. الإجابات كلها خطأ حتى الآن. أمسك بموضوع الغلاف الرئيسي الذي اتفقنا عليه، واقترحه مدير التحرير صلاح الكاشف الذي كان ضابطا واستقال في بداية السبعينات. عاش صلاح حياته مستقيما وراكم خبرة في الإدارة مع الكثير من القدرة على الحسم، وهو ماجاء به للمجلة التي تحتاج شخصا ملتزما بالمواعيد، ولحوحا ونظيف السمعة حتى وإن لم يتمتع بقدرات تحريرية كبيرة.

موضوع الغلاف يدور حول مشروع عمارات مسكونة منذ سنوات في منطقة طريق المطار. العدد المتفق عليه في العقد كان خمسا وعشرين عمارة وماتم تنفيذه كان أربعة وعشرين. هناك عمارة كاملة بإثني عشر طابقا اختفت و لم ينتبه أحد. قدم الموضوع لنا زميل صحفي اشترط علينا أن ننشره باسم مستعار. قام بزيارة المكان وقضى نصف يوم يتجول في السيارة بحذر كي يتأكد من العدد ثم التقط الصور، وتسلل خارجا من بين السكان الذين تجمعوا حوله وبدأو يشونه شكواهم من كل شيء. الموضوع عبارة عن تحقيق يؤكد الواقعة وخلا من توجيه اتهام لأحد. كان خفيفا ولكن توفر على بعض الخدمات المفقودة التي تضاف إلى اختفاء العمارة، مثل أن بقية العمارات كانت بدون مصاعد بحيث يقضي السكان وقتا صعبا في النزول والصعود لبيوتهم، بدا الأمر طريفا ومأساويا في آن، أجرينا في الأيام التالية لقاءات سريعة معهم بعد أن كلفنا محررا آخر لنشرها بجانب الموضوع الأول مقابل مكافأة مقطوعة، وذهبنا إلى وزارة الاسكان التي نفت أمر العمارة المختفية بشدة ثم عثرنا بصعوبة على محام زودنا بالرأي القانوني شرط عدم ذكر اسمه، وأصبح لدينا تحقيقا جيدا له الصبغة المحلية حتى أننا ا قررنا عدم نشر عقد إنشاء الوحدات السكنية، الذي يبين العدد

الكامل لها والذي تحصل عليه صلاح بعلاقاته القديمة حرصا على عدم الاستفزاز، حيث توجد به أسماء لن تسكت ولها القدرة على إحداث أضرار جسيمة. فضلنا أن نقول لهم أننا نعرف ومن حق الناس معرفة ذلك دون الذهاب أبعد من ذلك. المذيع لازال يرد على الهواتف التي لم يوفق أصحابها في العثور على الاسم الحقيقي للمركز وإن اقترب بعضها منه كثيرا، مما دفعه أخيرا إلى حل اللغز تحت ضغط الوقت، كان الاسم هو مركز الجهاد الليبي ضد الغزو الايطالي، الجميع نسي اسم الليبي وهو ما بدا لي محملا بالكثير من الدلالات.

في العاشرة تقريبا سمعت خطوات صلاح الكاشف ثابتة الإيقاع متجهة للدور الثاني وعندما دخل كان بصحبة المخرج وهو زميل قديم من دفعتي في الدورة الوحيدة التي قامت بها مؤسسة الصحافة في الثمانينات. شاب طموح ومحبط في آن مثل الكثيرين، ما إن تلوح فرصة لمطبوعة يستطيع منحها بعض الأفكار التي تعج في رأسه حتى يسارع للانضمام إليها وعندما تتعثر التجربة يعود لإحباطه مجددا، كانا في المطبعة للتمهيد لطبع المجلة. رمى الكاشف سترته وجلس بعد التحية الخاطفة على كرسيه في الزاوية. أعطيته ماتوفر من العدد حيث انشغل مباشرة في تصفحه وجلست مع المخرج لمتابعة العمل حتى الظهر عندما مر وهاب وذهبنا إلى مطعم الشجرة حيث أكلنا وتحدثنا مع بعض الموجودين واتفقنا على اللقاء ثانية في المساء، والذهاب للفندق الكبير حيث سيأتي الوفد المصري للمشاركة في أسبوع ثقافي مرتجل تنظمه مؤسسة الشعب الواحد، وذهبت بدوري لشقة عمار الناهي قرب سوق الرشيد، وجدته مسترخيا على متراس يتصفح كتابا.

الناهي جندي حقيقي قضى عقدا ونصف في العسكرية، وخاض حرب تشاد كاملة وشاهد بعينه الفرقة الأجنبية الفرنسية التي جاءت من

ثكنة ابونيابيه بفرنسا، وشارك في القتال في فترة متقدمة وكاد يقع في أسرها. كان الناهي في مقدمة فصيل استطلاع وراقب بالمنظار العرض الاحتفالي الذي قام به جنود الفرقة، تتقدمهم يد قائدهم الخالد الكابتن دانجوغ الخشبية، والذي قتل أثناء حمايته لقافلة في المكسيك العام 1863. كانت اليد مرفوعة على سارية تتبعها لافتة كبيرة مكتوب عليها شعار الفرقة الرهيب (تقدم او مت).

تعرفت على عمار الناهي في إحدى الليالي بفندق باب البحر، عندما رأيته يرقص في البهو على أنغام فرقة كوبية كانت تشارك في احتفالات عيد الثورة، لم يكن من ضمن الفرقة وجمهورها في البهو الكبير، ولكنه اختار زاوية صغيرة في الركن وبدأ الرقص غير عابئ بشيء، واستمر في ذلك حتى منتصف الليل عندما انفض عرضه بعد أن جذب جمهورا لابأس به للفرجة، خرجنا مع بعض، كانت رائحة البوخة تفوح قوية منه، وأمام الفندق خطرت له فكرة مفاجئة عندما تذكر عرسا لأحد معارفه في منطقة بوسليم مصرا على المضي لتكملة الليلة هناك، وهكذا وجدت نفسي بصحبة شاعر معروف جيدا في الوسط الأدبي يرغب في قضاء الليل في تلك المنطقة التي ما إن وصلناها حتى هب العريس لاستقبالنا، وجلسنا مع مجموعة كبيرة متحلقة حول فرقة شعبية يعزف مطربها على الأكورديون ويغني المرسكاوي. كنا نقوم بين وقت وآخر لبيت قريب نتناول فيه بعض الكؤوس صحبة أناس طارئين، ونعود للجلسة نستمع للمرسكاوي، استمر الحال هكذا حتى قرابة الفجر. قرر الناهي العودة إلى شقته مطلقا شتائم متتالية ضد الدنيا، ومعبرا عن حب شغوف لابنته، وكانت تلك أول مرة أعرف فيها أن هذا الرجل الصايع متزوج ومحب لعائلته.

في المساء مر وهاب مجددا وذهبنا ثلاثتنا إلى الفندق حيث، وجدنا الوفد المصري وقد فرغ لتوه من ترتيب أموره ونـــزل مجموعة منه إلى هو صالة غدامس، وتحلقت حول عازف عود وشرعت في الغنـــاء في حب مصر ووصف عذاب البعد عنها، وكأنهم لم يصلوا منذ ســـاعتين فقط! كان الفرح المفتعل يعم المكان صحبة الضحكات العصبية والقيام والقعود مجددا كلما انضم عنصر جديد للجلسة. أشار وهاب لما يحدث هازئا على هذا الحنين الكاذب، ودرنا في المكان وخطر له أن يسأل عن ضيف ضمن الوفد وقيل لنا أنه خرج حالما وصلنا، وهو أمر بعـــث في وهاب بعض العزاء إذ أنه لم يجده وسط هذه المجموعة النائحة. جلســـنا بعيدا في الصالة الجانبية المطلة على طريق الكورنيش وطلبنا مشـــاريب وبقينا حتى المساء ناسين الهدف الذي جئنا من أجله، بعد أن انهمكنا في أحاديثنا الخاصة قبل أن نخرج متجهين نحو ورشة ناصر ديهوم.

الورشة

في طرابلس حيث تنعدم تقريبا وسائل الترفيه وأمـــاكن الإلتقـــاء بالأصدقاء ليلا تعتبر ورشة ناصر ديهوم رحمة من السماء. تقع الورشة في أول سوق الثلاثاء حيث المنطقة الصناعية وتجار الجملة مـــن ناحيـــة قاعة الشعب على حافة الطريق، وهي ورشة صغيرة نســـبيا مخصصـــة لتصليح كهرباء السيارات ورثها ناصر عن أبيه الذي توفي فجأة، بينما كان يكافح من أجل إثبات ملكيته لها أوان الزحف الكبير على المتاجر. بقيت الورشة مقفلة سنوات طويلة قبل أن يتمكن ناصر ديهـــوم مـــن فتحها مجددا بعد اصبح الصبح، حيث جلب فنيا مصريا لطيف المعشـــر للعمل ومشاركتنا جلساتنا في بعض الأحيان. توجد فسحة في الوســـط

تجلب لها كراسي بلاستيكية تبقى مخفية في النهار، ويحيط بالمكان الصغير أدوات العمل المختلفة من أجهزة صغيرة وروافع ومصابيح وماشابه، بينما علق على الجدران مفاتيح عديدة مرتبة حسب التدرج في الحجم. الأرضية من الاسفلت القاسي وتتوسط الكراسي طاولة منهكة تحمل نهارا جزءا من العدة، وتسحب ليلا ليوضع فوقها ما يحضره القادمون للسهرة من أكل وشرب وكتب ومطوعات. كنا قد مررنا في طريقنا على شارع مهجور في قرجي الخلفية حيث اشترينا كيسين من البوخة، وجلبنا بعض السندويشات ومضينا إلى الورشة تحت مطر كثيف، إلتقينا ناصر ديهوم وسوف الوداني وصلاح الكاشف في المساحة الصغيرة وسط الورشة وأمامهم قنينة مياه ممتلئة إلى المنتصف بماء البوخة الشفاف الشبيه بالماء العادي والفودكا، وكأس الشاي الصغيرة مملوءة حتى الثلث بالإضافة إلى فول سوداني ورقائق بطاطا.

منذ أن فقدت عملي نشأ بيني وبين وهاب والناهي إتفاق ضمني بعدم دفعي لأي نصيب في الجلسة ماداما حاضرين، وبعد عدة كؤوس بدأت وتيرة الحديث في الاستمرار وكان الحدث الرئيسي هو أسبوع المصريين الثقافي السياسي وأسماء المشاركين فيه. روى وهاب بطريقته الساخرة مشهد الغناء والحنين الذي كان ينثال من الجلسة حول قسوة الغربة عن أم الدنيا بعد ساعتين من مغادرتها، ثم انتقل الحديث عن العدد الأول من المجلة وموضوعاته وإلى أين وصلت الأمور في الطباعة، قبل أن يلتحق بنا خليفة ذهب المحرر الثالث في فريق طرابلس التابع للمجلة ونسميه أيضا الممول لأنه عادة يجلب معه قطعة حشيش لزوم السهرة، ولقب ذهب أيضا من اختراعنا ومقصور استخدامه على الورشة فقط فهو سليل عائلة طرابلسية شهيرة احترفت تجارة الذهب منذ زمن بعيد، وعندما بدأ الزحف الثوري على التجارة منتصف

السبعينات فرغ والده محتويات المتجر الذي يقع في سوق الترك، وخبأها في أماكن أمينة متفرقة واستمر في سحب قطعة من هنا أو هناك وصرفها على أمور عائلته، قبل أن يقسم ثروته العينية بين ولديه وأختهما ليستمرا في نفس الطريق، ولذا لم يحتج خليفة للعمل في الدولة بعد تخرجه من كلية الآداب ببنغازي، وعاد إلى طرابلس متفرغا للقيام بأعمال تجارية، وكتابة القصة القصيرة التي برع فيها رغم قلة ماينشره حيث تتناول قصصه مواضيع تشتمل على مفارقات الحضر والمضر في ليبيا، وتغير القيم وتحتوي على قدر وافر من السخرية المبطنة وروح التمرد. اكتسب الحذر مما حدث للعائلة وتصنيفه ككاتب برجوازي تتابعه العين الثورية، وفي نفس الوقت كان به ميل شديد للحياة والانطلاق والصحبة والسهر وكثرة الأسفار، ولهذا قد يبدو غير متوازن تماما لمن لايعرفه وعلى قدر كبير من الغموض ودائما على وشك اتخاذ قرار مفاجئ، كما حدث عندما طلب بنفسه أن يكون ضمن فريق المجلة التي اعتبرها الكثيرون فخا مؤقتا لتجميع العصاة.

في عشية اليوم التالي عدت ووهاب للفندق الكبير وهناك قمنا بجولة سريعة مسلمين على البعض، كما حضرنا جزءا من الندوة، ثم خرجنا نرتاح في بهو القاعة ندخن ونراقب الحضور الذي كان كوكتيلا متنوعا من الفن والسياسة والصحافة، عندما مر من جانبنا صف مكون من سامي شرف ومحمد فوزي واحمد حمروش، وأحد الفنانين الذي أصبح عضوا في مجلس الشعب كأنهم في عرض عسكري مال وهاب علي وقال:

هؤلاء ليسوا قادرين على تدمير بلد واحد فقط، إن في استطاعتهم تدمير أمة بحالها في زمن قياسي.

1

أمضي في المركز بروح تتقدم للامام، مصرة على عدم العودة، أتعرف كل يوم على أشياء صغيرة، محاولا التمهل حتى لا أكتشف كل شيء وأعود للدوران في الفراغ داخل هذا المكان الصغير، توطدت علاقتي بعالية وصرنا نخرج مع بعض نتجول في الغابة الصغيرة القريبة، ونصعد البرج الخشبي حيث تخرج هي كراستها وتبدأ في وضع تخطيطات للمنظر. ترسم بطريقة مدرسية تقليدية مع مسحة عفوية تعطي لخطوطها حميمية دافئة يزيدها عدم وجود الألوان قربا من النفس. ليست رسامة بالتأكيد لكنها تتصرف كأنها كذلك مما يدفعني لتصديقها مرات كثيرة. نتمشى تحت المطر الخفيف وعندما يشتد نعود مسرعين للمركز حيث يتابع كلا منا يومه منفردا، قبل أن نلتقي أحيانا في غرفة الحبر وجو اللذين عرفتني عليهما. الحبر يعزف على الجيتار وهو من عائلة سودانية شمالية معروفة، ومنها مطرب شهير قالت إنه يلقب بأبوقلم، وعندما سألتها عن معنى ذلك أجابت بأن حضور حفلاته عندما يشتد بهم الطرب يقذفون تجاهه بالأقلام، وجون سوداني جنوبي يكاد لايتوقف عن الرقص. يتحرك بخفة وهدوء في المسافة الصغيرة بين الأسرة الأربعة الموجودة في الغرفة. يقطن معهما أفغانيان مرحان. مصطفى المدرس الذي سبقته زوجته التي تحصلت على لجوء وبيت وينتظر لم شمله بها، وآخر لم أعرف اسمه بعد لايتقن اية لغة ولكنه يتواصل معنا عندما يكون حاضرا بكلمة واحدة: خراب..خراب. يرددها وهو يضحك حتى تهتز قصته المصفوفة يمينا والمسفرة عن جبهة قوية فوق حاجبين كثين. الأفغانيان عادة يكونان خارج الغرفة ليلا عندما آتي للعب كونكان أو سهرة مع بوهدى وأبوآثار ولا أجدهما، وفي القاطع الثالث ذاته تعرفت على مجموعة شباب من زنجبار. هادئون

ويتصرفون بفطرة وصدق. يوسف ومالك وزكريا الذي يبدو شيخا صغيرا ورعا يحظى باحترام رفاقه بشكل ظاهر.

التحقت أيضا بدرس أسبوعي لتعلم اللغة الهولندية بناء على اقتراح بوهدى. استيقظت أمس في التاسعة وجهزت نفسي وذهبنا إلى المبنى الإداري المقابل حيث مكان الدرس. الأستاذ متطوع يأتي من مدينة اوترخيت. ضخم الجسد ومتمهل الخطوات ومتوطن على الصبر. لم ينس بوهدى أن يميل علي بعد دقائق من الدرس ليخبرني أنه اكتشف بأن اللغة الهولندية متشابهة جدا مع اللغة المجرية. طبعا لم أعره انتباها جادا لأني أعرف بأن العالم بالنسبة له بلاد واحدة اسمها المجر، وعندما خرجنا في منتصف النهار وجدنا بوآثار وهو يقود فريقه لتثبيت سياج بجانب الممر الرئيسي. كان منهمكا في إعطاء الأوامر وكأنه يقود كتيبة حربية. حييناه سريعا واتفقنا على لقاء ليلي ومضينا نحو غرفة بوهدى التي كانت خالية، حيث تصفحنا بضعة أعداد من جريدة نضال الشعب التي يصدرها الحزب الشيوعي، ويتكفل الرفيق بوعدنان بإيصالها له مرتين في الأسبوع. كان بوهدى يتصفح جريدته بشيء من العرفان والقدسية وبشعور الارتباط بجسم يعنيه في هذا العالم. جسد يرتبط معه بخيط دقيق مهما حصل وأينما كان، وهي تعزية لايستهان بها في عالم تسكنه الوحدة ويتطلب تضحيات عديدة. أولها فقدان الاستقرار والاستعداد للتفرق حالما يتم التجمع. يأتي بوعدنان كل ثلاثة أيام بدراجته الصينية إلى المركز، حيث يكون بوهدى في انتظاره كل مرة، حاملا حقيبته الصغيرة حيث يدس فيها الجريدة أو ما توفر من بيانات وأخبار، ويبقى لمدة ساعة أو أكثر يتبادل مع بوهدى أخبار الرفاق والحزب والعراق واللجوء ومايستجد من احداث. أحيانا أظل معهما وأحيانا أخرى أمضي في حالي مستكشفا بقية يومي على مهل.

لمحت جون النيجيري وهو يعبر باتجاه الشارع، قاطعته وحييته وسألته عن الساعة. إنها الرابعة والنصف. أجاب وسار في طريقه يدفع جسده الضخم بتأن. يسكن جون الضخم في القاطع السادس بجانب المطعم مباشرة حيث يوجد أيضا ثلاثة أو أربعة نيجيريين أحدهم يقطن مع زوجته التي تعمل على تصفيف شعر النساء داخل الغرفة. جون يداوم على التواجد في المقهى للعب التنس أغلب وقته، فهو لاعب ماهر يبقى على الطاولة كفائز بينما يتغير اللاعبون. رفيق جون في الغرفة يرابط دائما بجانب كشك الهاتف في مدخل المركز. يبيع بطاقات اتصال الهاتف لمن يرغب في إجراء مكالمة طويلة مع عائلته في الوطن. اكتشف مبكرا بطاقة هاتفية يمكن معاودة الاتصال بها من خلال الكشك الواقع على حافة بوابة المركز. يقف هناك مساء متدثرا بمعطفه المطري منتظرا زبائنه. يطلب منك الانتظار خارجا بعد أن يأخذ منك الرقم ويدخل للكشك وبعد لحظات يخرج ويترك لك الهاتف العمومي، ويتفرغ للنظر في ساعته لحساب الدقائق قبل أن يطرق عليك الباب منبها إلى أن وقتك قد انتهى. أبوآثار هو من كشف لي وجود مثل هذه البطاقة الهاتفية وأخبرني بأنه بالإمكان شراؤها من محلات المدينة دون الاضطرار لطلب الخدمة من الآخرين. يربح النيجيري بضعة خلدات إضافية تختلف باختلاف زمن المكالمة ومكانها، والمعلومة مهما بدت صغيرة فإنها مهمة حتى على هذا المستوى، فأغلب قاطني المركز جاءوا من بلدان لا تتوفر فيها مثل هذه الخدمات، وزميل جون يعرف ذلك. بدا لي الجهد المبذول تحت المطر والانتظار ومداومة الاتصال بالرقم الآلي الخاص بهذه الخدمة أمر متعب وأن النيجيري يتكسب من عرقه بالفعل.

انها الرابعة والنصف وموعدي مع مصطفى في الخامسة. الجو مغيم وظلمة الليل تزحف ببطء وثقة على المكان. أمس ظهرا وبينما كنت

أدخن خارج القاطع وقف شاب بشعر مجعد يرتدي ملابس الجينـــز وحذاء رياضيا ماركة اديداس يكاد يبلى من كثرة الاستخدام. ســألني بالإنجليزية إذا كنت أعرف شبابا مغاربة هنا، ومع الحديث عرفــت أن اسمه مصطفى وأنه من بدون الكويت ومن أصل عراقي بعيد، وكنــت قد عرفت أن هناك شبابا في مثل وضعه يقطنون بــين القــاطع الأول والثاني. انقطعت بهم السبل بعد غزو عراق صدام حســين للكويــت وانعكس ذلك سلبيا عليهم خاصة أنهم لايحوزون على الجنسية، ومــع بدء موجات الهجرة للغرب بدأوا في هجرة جماعية حطت ببعضــهم في هذا المركز. سألني مصطفى مباشرة إذا ما كنت أعرف مكانــا يبيــع الحشيش أو المارغوانا، وعندما أجبته بالنفي وأنا على شيء من الحــذر رد بأنه يعرف وسوف نلتقي غدا بعد أن يتدبر الأمر. بدا لي منطقه غير متماسك ولكن قدرت أنه يبحث فقط عن سلوى ورفقة فالكوايته كما يسمون هنا أغلبهم محافظ فيما يخص الحشيش، ويقتصر بعضهم علــى شرب الكحول. كنت قد تحدثت مع الحبر أثناء سهراتنا في غرفته حول موضوع الحشيش مستغربا عدم ملاحظتي له رغم أن هولندا بلد يسمح ببيعه، وتناوله في أماكن مخصصة لذلك ولكنه أبدى أيضا عدم معرفتــه بهذه الأماكن، وإن أكد لي أنه يشم بين الوقت والآخر روائح يشك أنها للحشيش عندما يخرج ليلا من الغرفة لسبب ما.

كنت في داخلي متطلعا لموعد مصطفى فقد مر علي أسابيع هنــا و لم أحظ بنفس واحد من الحشيش. كنت قد دربــت نفســي علــى التوقف قبل أن أغادر طرابلس بستة أشهر تخفيفا لأية ضغوط مستقبلية، كما فعلت أيضا مع السجائر التي خففت منها لأقصى حد اســتعدادا لمرحلة جديدة، فبعد سنتين من شرائي لتذكرة سفر إلى هولندا سنحت الفرصة لي فجأة للحصول على تأشيرة دخول إليها بعــد أن كانــت

متوقفة، وخلال هذه المدة التي كنت قد قررت فيها المغادرة بـدأت في تنظيم حياتي قدر المستطاع. لم يكن عندي أمل أكيد بأن التأشـيرات ستفتح من جديد ولكن احتفظت بالتذكرة كتميمة أعالج بها عطـب روحي، التي كنت أراقبها وهي تذبل أمامي بينما الحياة تسير في مكان آخر.

جاءت الساعة الخامسة و لم يأت مصطفى. الجو بدأ يبرد ومطـر خفيف مستمر في النـزول، والممر خال إلا من الذاهبين إلى والراجعين من المطعم. يمرون سريعا وهو يتبادلون التحيـات الخاطفـة. قـررت بدوري تناول العشاء فذهبت للغرفة التي صرت أخفف مـن تـرددي عليها، حيث تناولت صحني وملعقتي وكوبـي وانضـممت لطـابور الأكل، وبعد دقائق ثقيلة اكتشفت أنني نسيت تذكرة الأكل فعـدت ثانية للغرفة وما كدت أدخل حتى طرق مصطفى الباب. خرجنا لمقدمة القاطع وأخبرني بأنه يحمل لفافتين من المارغوانا. انتابتني رعدة خفيفـة اختلطت فيها الإثارة بالرغبة بالخوف، وسرعان ماخيبت أمل مصطفى:

- **اوه عظيم، كم ثمن الواحدة.**
- **يامعود شنو هالكلام اللي مايسوى.**

أصررت على سؤالي وأصر على جوابه. كانت خطته أن ندخن معا ولكني تعذرت بأسباب اخترعتها للتو حتى أتحصل علـى لفافـة تخصني كي أدخنها بنفسي، لأنني توقفت مدة طويلة عن التدخين و لم يسبق لي أن دخنت مارغوانا. لأعرف نوع مزاجها وأصـابني هـذا بالحذر، وبشيء من التأفف ناولني مصطفى لفافتي وذهب يدمدم دون أن يأخذ الخلدات الخمسة التي مددتها باتجاهه. شعرت بنذالة مـوقفي وتذكرت كلام يحيى من أن الحشيش يعلم الإنسان الخنس والحسابات المركبة.

ولتغيير الجو قررت المرور على غرفة بوجواد بعد أن دسست اللفافة في جيبي الداخلي بحرص. لم يكن في الغرفة ولكني وجدت شيركوه وحسين وكاظم منهمكين في فتح علبة صويا بسكين قصاصة أظافر. كان حسين يقوم بالفتح وشيركوه يمسك بصحن منحنيا باتجاه الأرضية وكاظم يوزع مايشبه الملاحظات، وبعد أن تمكن حسين من فتح العلبة دار حديث قصير حول ما يتوجب عمله بماء الصويا الذي في العلبة وقبل أن يتفقوا أمسك شيركوه العلبة، وذهب يرافقه كاظم إلى الحمام المقابل ثم عاد وكاظم لازال وراءه متلهفا وسكب المحتوى في الصحن. كنت أتابع هذه العملية بمزيج من الفضول وعدم القدرة على اتخاذ القرار بالخروج من الغرفة، أخذ كل منهم صحنه ووزعوا الصويا بينهم بالتساوي، بعد أن اعتذرت عن الأكل، وأخذوا في أكلها وكأنها تحلية مابعد العشاء. عصرني قلبي على هذا المشهد الذي يبدو فيه الشعب الذي كان يفطر على اللحم وهو يلتهم فول الصويا النيء وكأنه مكسرات.

خرجت من عندهم وأنا حائر أين يمكنني تدخين لفافتي التي ابتليت بها. كنت أفكر بسرعة أنستني أن التدخين مسموح به في هذا البلد. انتابتني مجموعة تصورات مرعبة تنتهي جميعها بترحيلي مجددا إلى ليبيا، لأني أخللت بالقانون وأوهمت السلطات بأني صاحب قضية وطريد رأي، بينما قبض علي وأنا أدخن المارغوانا. تذكرت أيضا أني جائع و لم أتعش بعد ولكن لم أذهب للمطعم الذي كان على وشك الإقفال. قصدت القاطع الثاني حيث قال مصطفى إنه يقيم وتجولت في الممر لعلي أجده وأطلب منه مشاركتي ولكن لم أجده فعدت ثانية أتمشى على غير هدى حتى خطر على بالي أن ادخنها في الحمام، فتحركت فورا إلى قاطعي ودخلت الحمام وبعد تردد قصير أخرجت

السيجارة المحشوة التي أصبحت متعرقة منثنية تكاد تنكسر، وأشعلتها ليخرج مايشبه البخور القوي وسحبت منها بحذر، ثم بتمهل ثم بعمق، وبدأت أحاسيس قديمة تعود إلى دماغي ولكن بشكل قوي وكاسح وسريع.

كانت طويلة وسمينة وغير ما تعودنا تدخينه في ليبيا شكلا ومضمونا، فهناك كنا نستمتع في ورشة ناصر بجلسات التدخين حيث يقوم أحدنا بتفتيت قطعة الحشيش، وآخر يفرغ السجائر من التبغ ثم يخلط هذا وذاك بمقادير صار متعارف عليها، وتمرر السيجارة على الجميع بأنفاس تكاد تكون متساوية. لكن هذه اللفافة اللعينة تشبه مانراه في الأفلام المصرية وتلك التي دخناها أنا ووهاب وخليفة صحبة أصدقاء مصريين في بيت آيل للسقوط ببولاق. بل حتى تلك اللفافات تشبه هذه في الشكل فقط، أما الحشوة فتلك كانت من البانغو، استمررت في سحب الأنفاس تحت هذه الهواجس والتذكرات المصاحبة وأنا مرعوب من دخول أحدهم المكان، والقيام بالإبلاغ عني، ومن هذا التداعي أذهب بعيدا في التصورات مجددا دون النجاح في كبح جماح خيالي الذي تمكنت منه المارغوانا حتى وأنا لم أكمل لفافتي بعد، وعندما سيطر الدخان والرائحة على المكان قررت القذف بالثلث الأخير منها إلى المرحاض وأشد دافع الماء عليها. ظللت أراقبها حتى اختفت لأشعر ببعض الراحة لموت هذا العدو الذي ورطت نفسي في الاشتباك معه. بعد ذلك وقفت ساهما للحظات أأذكر أين أنا وما الذي كنت أفعله وتداعى خيالي إلى تلك الليلة التي دخلت فيها بقالة بجانب الفندق في الدار البيضاء، عندما أعطاني البائع الشاب قطعة حشيش صغيرة خضراء زيتية اللون كهدية على البيعة، لأبقى بعد تدخينها طوال الليل هائما بجانب مكتب الاستقبال مفكرا هل علي الصعود للغرفة حيث دخنت،

أم أخرج للتجوال والاختلاط بالناس لتبديد شمل هذه القوة التي احتلت رأسي.

تمالكت مابقي مني وخرجت أمشي على الإسفنج مفكرا بصعوبة وسط التداعيات بالخطوة القادمة. تمشيت في الممر الرئيسي متجنبا الدخول في أي حديث مع القلة التي كانت تخرج وتدخل للقواطع، محاولا التماسك وساردا في سري كل المعلومات الشخصية التي تؤكد من أنا وماذا أفعل هنا، وعندما تأكدت من هويتي والمكان الذي أنا فيه ثبت ذلك في رأسي. بدا لي الذهاب للغرفة الآن حلا مثاليا لولا السيدة بوتو وزوجها وأخوها القتيل ونواز شريف، وعلى حين غفلة تذكرت بوهدى لتنفتح أمامي بوابة للنجاة من هذه البارانويا المتداخلة، وانتعشت نفسي جراء المطر الخفيف وأخذت في السير نحو القاطع الثالث دون أن أتوقف عن خوض معركة خاصة وسرية تجري في داخلي، لتذكير نفسي بهدفي الذي بدا لي بعيد المنال وسط التشوشات المتلاحقة، وما إن وصلت وتمكنت من طرق الباب حتى أطل بوهدى الذي رأيته كائنا مربعا بعينين جاحظتين تنظران لي بشماتة وخبث مما أشعرني بالغثيان. قاومت المصير البائس التي تقود إليه المارغوانا في رأسي، وحييت بوهدى بصعوبة فانفلت بالضحك:

- **ولك يخرب عرضك، وجهك مثل الليمونة شو عامل..**

أخذت نفسا عميقا محاولا طرد شعور كثيف بالكراهية تجاهه. حاصرني في تلك اللحظة قبل أن أخبره بكلمات متقطعة عن ماحدث.

سحبني إلى داخل الغرفة الخالية لحسن الحظ وهو يهتز من الضحك، وألقى بي على سريره وخفض من صوت التلفزيون.

- **حيا الله خونا الليبي فتى الصحاري.**

ناولني سريعا كوب شاي جرعت منه بصعوبة فأحسست بطعم الدنيا من جديد، وراقبته للحظة وهو يضحك فانتقلت لي العدوى وبدا ينكشف لي تحت قوة الضحك بناء العملية كلها، وتذكرت أن مادخنته مجرد لفافة مارغوانا وان علي الصمود حتى أجتاز هذه المحنة بسلام، وهو ماحدث بعد ساعة أو يزيد فاعتذرت منه بلطف، وعدت لغرفتي منتشيا وعلى بعض الخجل وجائعا جدا. الواقع اشعر بالجوع ليلا منذ أتيت إلى هنا، فعادة أفطر في الغداء وأتغدى في المغرب ثم أجوع ليلا في الغرفة، ولكسلي وقلة المال لم أستطع معالجة هذا الوضع إلا ببعض حبات بسكويت أو كسرة خبز موجودة بالصدفة. كانت الغرفة ساكنة ورفاقي نائمون، فتحت التلفزيون، وخفضت الصوت ثم بعد دقائق أقفلته من جديد مكتفيا بإطلاق خيالي على حصان الكيف في غارات مفاجئة داخل الذاكرة هنا وهناك. أتداعى كل مرة بعيدا قبل كبح الجماح عائدا لنقطة البداية لأسلك طريقا جديدا، ثم هويت في نوم عميق وساكن لم أذق مثله منذ زمن...

استيقظت في التاسعة نشيطا وهادئا وبقيت تحت الغطاء أتفكر في ليلة البارحة. كانت الغرفة خالية فأخذت راحتي في التمطط والاستمتاع باللحظة في انتظار أن تخف الرجل على الحمامات. أخذت أفكر في سبب اختياري للحمام لأشعل لفافتي تلك. كان داخلي يضحك علي وأنا أمرر التفاصيل مرة أخرى أمام ذاكرتي، وبدا لي أن الموضوع جدير بالتأمل، فالحمام هو المكان الذى نكون فيه منفردين مع أنفسنا بشكل حقيقي، نمارس طقوسا ونقضي حاجات لايراها أحد، وفي كل مراحل عمرنا تكون لنا علاقة مميزة بهذا المكان، وليس مصادفة أن تمتليء مراحيض المدارس والأماكن العامة بتلك الكتابات والرسومات الخليعة، التي تعبر عن مكنونات جامحة لايمكن التصريح بها

أمام الآخرين. استعرضت على السرير بعض ماحضرني مما شـــاهدته في حمامات ومراحيض مختلفة، وفي أماكن متفرقة والكتب التي قرأتها وأنـــا أتغوط داخلها، وبدت لي الآن أنها جديرة بالدراسة المعمقة وبكتـــاب مثل كتاب عبدالكبير الخطيبـــي الاسم الجريح، الذي استعرته من عمار الناهي، ويتحدث عن الوشم ودلالاته في البيئة العربية والأمازيغية على ما أذكر.

بعد أن سمعت صوت عامل النظافة يخرج نهضت متناولا منشفتي وصابونتي ومعجوني، وانسللت سريعا حتى أخذت دوشا علـــى مهـــل مستمتعا بالماء الساخن والمكان النظيف نسبيا، فرشيت أسناني وحلقت ذقني فانتابني شعور عام بالنظافة والتجدد، وعندما عدت للغرفة وجدت ثلاثة من الباكستانيين يتابعون السي ان ان ويتحدثون حول مايجري في بلادهم، حييتهم ببرود وخرجت عازما على أن اضع حـــدا بأســـرع مايمكن لهذه الفوضى، كان موعد مقابلتي مع موظف وزارة العدل بعد أيام وأحتاج لبعض الخلوة لإعداد قصتي، خاصة وأني اعتذرت عن قبول مساعدة ابوآثار الذي عرض تأليف قصة مناسبة لي، وتحت ضـــغوطي الخاصة تعكر مزاجي فجأة وعدت للغرفة لأجـــد أن المجموعـــة زادت واللغط في ذروته، فلم أتمكن من كتم غضبـــــي واتجهـــت مباشـــرة للتلفزيون وأغلقته فبهت الحاضرون من هذا التصرف غير أني قـــررت المواصلة وبدأت خطبة مرتجلة بخليط من اللغات:

من بناظير هذه التي تتحدثون عنها يوميا وفي كل وقت في هـــذه الغرفة الحقيرة؟، ماذا فعلت لكم؟، أليست هي من تســـبب في مقتـــل أخيها مرتضى؟، أليست هي من زادت معدلات الفساد بوتيرة ســـريعة في عهدها الميمون؟، وهل ماعندكم تسمونه اقتصادا؟!، ماذا فعلت من أجلكم ايها المغفلون؟، لقد فاض بـــي الكيل ولا أريد أن أسمع اســـم

هذه المرأة مرة أخرى هنا، ثم أشرت لمن هم من خارج الغرفة وسألتهم: أليس عندكم غرف خاصة بكم؟ لماذا لاتحترمون خصوصية الآخرين وتتركونهم يدبرون أمورهم في هذا الوقت العصيب.

وواصلت على هذا المنوال خالطا الإنجليزي بالعربي مضمنا حديثي نتفا من الأوردو تعلمتها منهم وهم فاتحين أعينهم وفاقدين المبادرة، ثم قذفت بأدواتي على الطاولة، واتجهت صوب الباب فاعترضني المهندس شاكير محاولا تهدئتي، ولكني رفضت ذلك وأجبته بأني لا أريد الحديث معه ولا مع غيره واستمررت في طريقي نحو الخارج غير عابيء بشيء.

جلست أمام القاطع على كرسي الحديقة الأخضر متنفسا بعمق، وشاعرا ببعض الراحة بعد أن فرغت شحنة غيظي. كانت الشمس تطل خجولة من خلف الغيوم ولفحة برد تلسع وجهي وتتجه نحو أسناني، وبعد وقت قصير لحق بي شاكير ثانية وأصر على الحديث معي، وما إن بدأت أتكلم معه حتى خالطني شعور عميق بالذنب. صحيح أن الإقامة في غرفة بهذا الشكل يتحول إلى عذاب يومي وسط جو يحيط به الضيق والمجهول من كل جهة، لكن ذلك لايبرر التصرف الذي قمت به. كنت أفقد حماسي وفضولي اللذين صاحباني الأيام الأولى هنا، وحل محلهما نوع من التوتر الخفي الكامن والمستعد للانقضاض عندما تتوفر الفرصة. اعتذرت عن حماقتي فطيب شاكير خاطري واقترح علي أن يتدبر أمر نقلي للغرفة المجاورة، فهناك بها صديق له يرغب في الانتقال لغرفتي، شاب اسمه طارق تعرفت عليه عن طريق الشيخ زكريا الذي قال لي أنه عمه. بدا لي العرض معقولا ووافقت دون تفكير واعتذرت ثانية عن شططي فتقبل الأمر بلياقة وهكذا حلت المشكلة على غير توقع وتخطيط.

قبل الغداء كنت قد نقلت متاعي البسيط لسريري الجديد الـــذي يقع مباشرة خلف الباب من جهة اليمين. تعرفت على رفاقي الجـــدد: زاد من كردستان وسعيد من أفغانستان، ورغم أنها كانت غرفة تشكو علنا من قلة النظافة لكنها بدت لي أكثر اتساعا لأنها مخصصـــة لثلاثـــة أشخاص فقط، وهكذا ذهبت للغداء بعد أن أقدمت على أول تغيير في حياتي الجديدة...

التقيت بوهدى في المكتبة وأخبرته بالتغيير الذي حصـــل وقرأنـــا جريدة الحياة بعد أن انتظرنا دورنا كالعادة، ثم أخبرني بأني مدعو الليلة إلى حفلة في القاطع الرابع عند حيدر العراقي، الذي حصل على اللجوء السياسي أمس. لم أصدق بداية ولكنه أكد لي الخبر وهو يشير بما معناه أن لاتستغرب وعليك بالصبر،

حيدر شاب من جنوب العراق لم يبلغ العشرين بعد. ظل يلـــح على ابوآثار أن يؤلف له قصة سياسية، لكن ابو آثار كان مترددا، فعمر حيدر لم يكن يسمح بهكذا نوع من القصص، إذ ماذا يمكن لشـــخص دون العشرين لا يقرأ ولا يكتب أن يفعل في عالم السياســـة. الحـــاح حيدر دفع ابوآثار لأن يؤلف له ماخطر بباله في التو عندما كان يلعب الكونكان. كانت القصة تقوم على أن حيدر عاش في قبو البيت لمـــدة خمس سنوات، متخفيا تحت صندوق من الكرتون به فتحتان تساعدان على التنفس والرؤية.

يابا قلهم أنا "مشفت" شي، أنا مثل المعري، هو أعمى وأنا حبيس الصندوق ولهذا السبب فحياته لاتسمح له بالتحدث طـــويلا حـــول أحداث شهدها العراق في ذلك الوقت.

لاشك أن ابوآثار كان حانقا وعلى غير عادته في السبك، وراغبا فقط في التخلص من هذا الإلحاح ولكن لم تشاركه وزارة العـــدل في

هذا المزاج الساخر من العملية برمتها، ومنحت حيدر حق اللجوء السياسي والدليل أننا من المدعوين هذه الليلة في الحفلة التي يقيمها بهذا الخصوص.

هبط الليل ومررت على غرفة بوهدى والتحق بنا ابوآثار وذهبنا معا إلى القاطع الرابع نحو غرفة حيدر الذي يقيم مع أخوين أكبر منه سنا. وجدنا الغرفة تعج بالحضور الجالسين على الكراسي المصفوفة على الجوانب. بعضهم كان على الأسرة التي استخدمت أيضا أماكن للجلوس. لمحت بعض المعارف ووجوها أخرى أراها لأول مرة، وبدا لي ذلك غريبا فرغم تجاوزي الشهر هنا لازالت هناك وجوه جديدة علي، وبما أننا من جماعة ابوآثار وسع لنا فورا في المجلس وتقدمنا مزهوا إلى صدر المكان، وجلس وهو يرد التحيات المنهمرة عليه بوضع يده على صدره وخفضها في كل مرة، وجلست وأبوهدى بجواره مثل وزيرين يحيطان بالملك، وأدركت فورا أن النظرات ترمقني وتعيد النظر في مكانتي قبل أن أدخل مع ابوآثار، وأحسست أني ارتقيت درجة في الأهمية لمجرد أنني بصحبة رجلين لهما سمعتهما في هذا المكان. ابوهدى بتاريخه العسكرى ومقاومته للسلطات وابوآثار بشخصيته العابرة للحواجز وأفضاله في تأليف القصص التي لاتخيب.

عندما دخلنا كان صوت كاظم الساهر يلعلع في المكان بلحنه الحزين التكلف وما إن أشار ابوآثار حتى تم تخفيض الصوت فورا، ونظر لي نظرة فهمت منها أن ذلك خدمة خاصة يؤديها لي لمعرفته بأني لا أحب هذا المطرب، فشكرته بوضع يدي على صدري سريعا كي لايلاحظ الآخرون، متجنبا الطعن في ذوقي الفني في مقبل الأيام. قام شقيقا غسان بواجب الضيافة ووزعا الشاي والمكسرات وبعض السندويشات الخفيفة. الأخوان تحصلا على لجوء انساني وهو أقل درجة

من لجوء غسان في مفارقة من مفارقات اللجوء، وبدا عليهما نوع من الخجل بسبب ذلك. غادرنا الغرفة ونحن نعلق على الحادثة وقصة حيدر التي ألفت على عجل، وكيف كان بريئا حتى أننا شككنا أنه يدرك ماحدث له وذهبنا لغرفة ابوآثار للعب الكونكان.

في طريق عودتي وجدت عالية عند باب قاطعها ترتدي معطفا ثقيلا على بيجامة النوم تراقب، وما إن لمحتني حتى قالت بشبه الهمس:

- **وينك ياليبي، طليت ادور عليك من بدري.**

وقبل أن أجيب أشارت لي بانها ستبقي الباب مفتوحا وعلي الدخول بعدها بقليل. انتابني بعض الارتباك بعد انسحابها ثم لممت نفسي ودخلت بحذر. كانت وحدها وأخبرتني أن شريكتها في الغرفة ستقضي الليلة خارج المركز. قدمت لي كرسيا وجلست مقابلها. كانت الغرفة معطرة بالبخور ويسري فيها صوت غناء قدرت أنه أثيوبي منخفض الصوت، وبدت عالية ببشرتها البنية وقميص بيجامتها المفتوح من فوق ومفترق لهديها الصغيرين اللذان يطلان باستفزاز. كانت قد نزعت ضفائرها الصناعية وبدت خلابة بشعرها القصير الغلماني، ووجهها المدور وغمازة ذقنها المحفورة مثل طاقة صغيرة تشير إلى منبع اللذة، وساد الصمت للحظات خمن فيها كلا ما يدور في خاطر الثاني. كنت قد حاولت في الأيام السابقة أن ألاطفها ببعض اللمسات والتحرشات الخفيفة، ولكن لم أر تجاوبا صريحا فككفت مستمتعا بالرفقة والأحاديث، مدت يدها إلى الطاولة ساحبة حافظة الشاي وسكبت قدحين، ثم أخرجت من تحت مخدتها لفافة بيضاء طويلة ومدتها نحوي، ترددت للحظات وكأنها عرفت مايدور بخاطري. أخبرتني بأنه حشيش. قالت ذلك مبتسمة وكأنها تعرف بمغامرة البارحة. سحبت نفسا ببطء وأنا أزرع في داخلي استعدادا

راسخا للذهاب في هذه الرحلة إلى محطتها النهائية، التي تريد أخـــذي إليها عالية فهي المضيف والربان، وصاحبة الخطة وما أنـــا إلا المنقـــاد. أعدت السيجارة إليها فسحبت منها بعمق وتلذذ مغمضة عينيها وكأنها تشرع في رحلة. شربنا رشفات من الشاي وأعدنا الكرة مع السيجارة المحشوة عدة مرات حتى استوينا. امتلأنا بالموسيقى والغناء مغمـــورين برائحة البخور، بعد برهة فتحت عينيها الصغيرتين وسهمت للحظات ثم ضحكت بصوت خافت ودققت النظر في وكأنها ستثب قائلة:

- **شنو يابطل**
- **شنو شنو؟**
- **كيف المزاج معك؟**
- **أهة.**

وبعد هذه الكلمات المشحونة التي خرجت منا بصعوبة تحت تأثير الهبة الأولى من انتشار الحشيش في الرأس، وقفت نـــاظرة إلى النافـــذة للتأكد من أنها مغلقة وغمرني إحساس بأنها مقدمة على لحظة هجـــوم، وهو ماحدث عندما فتحت بقية أزرار قميص بيجامتها الأزرق بتمهل وبرز نهداها مباشرة ودون مقدمات ليتصدرا المشهد الذي بـــدأ يجـــن. لاغالب عبرة حاصرتني بغتة أخذت في تتبع جسدها ولمحت بين ســـاتر الدخان الذي يجلل الغرفة الصغيرة سرتها بوشمها البري الدقيق. استمرت هي في النظر نحوي راسمة ابتسامة إغواء مخلوطة بانتصار عـــبر الخطـــوة الأولى. عرفت أنه علي التقدم وخوض هذا الامتحان اللذيذ والشـــاق، انغرست فيها متجها مباشرة للحلمة التي أخـــذت في مصـــها بـــبطء ومداعبتها بلساني في رفق مكررا المرور على النهدين اللذين ماعـــدت أراهما الآن بيدي. كانت عالية تصدر تأوهات خفيضة طالبة المزيـــد، بينما تقودني يداها إلى مكامن اللذة المفضلة لديها برفـــق وسلاســـة.

ساعدني ذلك التخلص من توترات اللحظة والذاكرة المخزونة بالأسئلة والانعطافات المفاجئة، أدخلت يدي في الوقت الذى قدرته مناسبا تحت الحزام فعرفت أنها قد استعدت منذ أيام لهذه الليلة عندما اكتشفت من خلف خيالي المجهد بالتدافعات أنها لم تكن ترتدي الكيلوت، ومررت أصابعي بتأن على الجزيرة الملساء في الأسفل فأطلقت آهة زادت من إحساسي بنفسي، فشرعت في الإطاحة بهذا العائق الذى يقف في طريق اللذة وخلعت ملابسي بدوري، فبدونا مثل ما كانت عليه الخليقة الأولى. جسدين عاريين متداخلين في بعضهما يصعب تفريقهما ولو بخيط. صعدت مجددا وتناولت شفتيها برفق ثم أخذنا نقترب من السرير متلاصقين حذرين من انتهاء الموسيقى فجأة حتى وصلنا. وواصلنا الإبحار وعندما حانت لحظة الوصول للقمة تحولت إلى لبؤة شرسة تطلق زمجرة سريعة مثل طلقات رصاص، وتهرش بأظافرها حقلا في ظهري. منتفضة كذئبة تحرك نصفها الذي إنغرست فيه سعيا للمشاركة في هذا الشيء الحلو بأقصى قدر ممكن، نفعل ذلك وكأننا سنتلاشى بعد الإنتهاء منه وسنتبعثر للأبد مثل تفاصيل هذا الدخان الذي يحوم في الغرفة منتظرا ثغرة للاندثار.

* * *

الانترفيو

أشعرني انتقال علاقتي بعالية إلى المستوى الجديد بنوع من الاستقرار النفسي. ساعدنى على تجاوز يوم التحقيق بأقل التوترات الممكنة. الجميع يعتبره يوما فاصلا وتبدأ الاستعدادات له مبكرا وكأنها امتحانات التخرج، حيث ترى المقصودين وهم يحضرون قصصهم

ويستشيرون ذوي الخبرة، ويكثرون من الاتصالات والتردد على الغرف التي اجتاز أصحابها هذه المحنة. إنه يوم عصيب ولاشك، حتى ابوآثار كان يصاب ببعض التوتر عندما تكون إحدى قصصه داخل غرفة التحقيق. ليس كل قصة ولكن هناك أيام يبدو فيها متطلعا لمعرفة سير التحقيق في إحدى قصصه، حينها نعرف أنا وبوهدى بأن هذه القصة اشتغل عليها بجد، وبذل فيها الكثير من الخيال والمعلومات. في تلك المرات يظل يسأل بشكل مستمر إذا ماخرج فلان من الغرفة باعثا الرسل ومتقصيا الأخبار. كان يتصرف على اعتبار أن سمعته في الميزان. حدث مثل محمد عبد الوهاب عندما قدم أول لحن لأم كلثوم، وعندما يخرج أخيرا حامل قصته ينتحي به جانبا، ويطرح عليه بضعة أسئلة ليستنتج من إجاباتها سير التحقيق ونتائجه، ولاينسحب إلا بعد أن ينثر تطميناته بصوت مسموع على المحقق معه، مؤكدا أن النتيجة خير إن شاء الله. في أيام أقل يكون عنده أكثر من حامل قصة في يوم الإنترفيو. في مثل هذه الأيام يقضي أبو آثار يومه كله في التردد على القسم الإداري، ولقاء من ألف لهم القصص. كانت هذه الأيام شاقة بحق، ولكنه كان يقضيها بالكثير من التسامح والمتعة.

كان الإنترفيو الأمر الجدي الوحيد الذي يؤخذ بعين الاعتبار في المركز. الأغلبية هنا تسميه: التحقيق. إنه امتحان في زاوية ضيقة نتيجته تغير كل مافي حياتك من مكان وزمان. فهو الحد الفاصل بين حياة المركز التي نعرف أنها مؤقتة مهما طالت، أو العبور إلى الحياة في الضفة الأخرى بقدر جديد من الصعوبة حتى أن الدخول لا ينبغي أن يكون مشروطا باجتياز امتحان.

هناك ثلاثة أنواع من اللجوء هنا، السياسي الذي يفترض أن يعطى لمن لهم قضايا سياسية، والإنساني الذي يعطى لأصحاب الظروف

الإنسانية الصعبة من ضحايا الحروب والدكتاتورية، ولجوء مؤقت يبدأ بسنة قابلة للتجديد لمن هم على الحافة، الفروق ليس فقط في القيمة المعنوية لنوع اللجوء، حيث اللجوء السياسي يتمتع صاحبه باعتراف بأنه مهم ومميز، لكن هناك أيضا فروقا في الحقوق المترتبة على نوع اللجوء. السياسي يحق له أن يجلب عائلته إذا كان متزوجا، أما الإنساني ولجوء الحافة فلايحق لهما ذلك، أأضا يتمع السياسي والإنساني بحق بيت مستقل بينما يجب على صاحب اللجوء الثالث (يسمى اختصارا بلجوء F) أن يقيم في سكن مشترك يسمى راوا هاوس، كما أنه لايحصل على جواز سفر بعد انقضاء مدة ثلاثة سنوات كما يحدث مع السياسي والإنساني.

ليس بالضرورة أن يتحصل السياسي على لجوء سياسي والإنساني على الإنساني كما يفترض، فكثيرا ما تكون النتائج نتيجة الحظ فقط، فهذا مايمكن به تفسير حصول شخص مثل حيدر على اللجوء السياسي، أما بالنسبة لي، فلم أكن أبالي بمميزات أنواع اللجوء، فليس لي زوجة ولايهمني أن أسكن في بيت مستقل إذا ماكانت لي غرفة خاصة بي كما يحدث في الراوا هاوس، ولايهمنى كثيرا إذا لم تعترف بي وزارة العدل كمستحق للجوء السياسي، يهمني أن لا أرجع لليبيا الآن، وكل أنواع اللجوء خير وبركة...

في يوم موعدي استيقظت في التاسعة صباحا وأخذت دوشا سريعا على غير عادتى فى انتظار تنظيف الحمام، وتناولت شطيرة خبز كنت قد جلبتها من المطعم في العشاء، ثم تصفحت أوراقي وذهبت إلى الجهة المقابلة حيث وجدت موظف وزارة العدل الذى بدا لي من أصل اندونيسي، ومساعد الشئون القانونية المتطوع بإبداء النصح للاجيء أثناء التحقيق ومترجم عراقي كردي. كنت خلال

جلسة التحقيق مع المساعد القانوني قد اتفقنا على تقديم قصتي كما هي قدر الإمكان معتمدا على قرار رئيس الوزراء ووزير الإعـــلام بالإحالة إلى هيئة الأمن الداخلي، بالإضافة إلى ملف يحتوي علـــى مقالاتي وكتاباتي المختلفة، وبطاقاتي الصحفية وماتبقى أثناء تنقلاتي من صور لنشاطاتي.

كانت الخطة التي نصحني بها المساعد تقوم على ثلاث خطوات. اثبات أني صحفي وصاحب رأي وأني غير قادر علـــى الاســـتمرار في الحياة ببلدي نتيجة ذلك القرار، وصارحني بأن علي أن أتبع تكتيكـــا هادئا الهدف الأولي منه إقناع المحقق بقضيتي ليكتب ذلك في تقريـــره، ومن ثم الاستئناف لأنه لايعتقد بحصولي على اللجوء من المـــرة الأولى لعدم فهم القضية الليبية في أوساط لجوء هولندا لقلة الليبيين هنا. معك ورق كثير يبدو أنه جيد ولنركهم يترجمون على راحتهم حتى يتعبـــوا، لننتظر ونر، كما قال.

دخلت الغرفة متسلحا بملفي الكبير وجلست مع المحقق لـــثلاث ساعات على جزئين. الأول للبيانات الشخصية وسيرة حياتي العمليـــة والثاني لشرح التفاصيل التي اضطرتني لطلب اللجوء. كانـــت جلســـة مارثونية مجهدة وأنا أتذكر تفاصيل عديدة حضرت أثناء الكلام وأخرى محزنة حتى أن نفسي صعبت علي مرات انهرت في إحداها، وانهمـــرت بالبكاء وسط حيرة المتواجدين. الموقف أشعرني بأني كمـــن يتســـول، ولكن الأمر مر بسلام في النهاية وخرجت لأجد بوهـــدى ينتظـــر في الخارج متسائلا بلهفة عن سير التحقيق، فاجبته بأني لا أعرف. قلـــت ماعندى وعلينا الانتظار، ثم جاء ابوآثار بينما كنـــا نتمشـــى وأعـــاد السؤال، وردفه بمجموعة من الاستفسارات التي بدت لي أكثر دقة من بعض أسئلة المحقق ثم علق رافعا معنوياتي:

- **خير خير، آه لو كانت قصتك هذه عند عراقي، كان أخذ اللجوء في اسبوع.**

بالطبع لم يعد هناك لجوء يعطى في أسبوع ولكن لو كنت عراقيا، او أفغانيا لتغير الأمر لصالحي بسرعة بالتأكيد. استأذنت منهما وذهبت للغرفة حيث خلعت ملابسي بسرعة ودخلت تحت الغطاء وغبت في نوم طويل صحوت منه عند العشاء، وأنا اشعر بانزياح ثقل كبير من على صدري، ورغبة في مواصلة حياتي في المركز بطريقة جديدة لايجثم فوقها كابوس الانترفيو.

تناولت عشائي كاملا للمرة الأولى. الحساء وطبق الأرز وسلطة ذابلة، ومع ذلك أكلتها ثم شربت كوب شاي. كنت جائعا ومحتفلا وبمعنويات عالية عندي شعور مريح لمعرفتي أن مامن أحد سيزعجني بأية واجبات قانونية قبل أسابيع على الأقل. أخذ المطر ينهمر بغزارة ولكني لم أحفل بذلك كثيرا. تفقدت جيبي وعددت ماعندي من نقود فوجدت ثلاثين خلدن فقررت الاحتفال، توجهت باتجاه غرفة بوهدى الذي اخترته لمشاركتي هذا الاقتراح، ولكني في الطريق تصادفت مع مصطفى الذى لم أره منذ تلك الليلة. رحب بي وبدا أنه قد نسي موقفي الغريب معه، وشرع فورا في الحديث عن المارغوانا واتفقنا سريعا على الذهاب للكوفي شوب، وعندما أخبرته باني لا أملك دراجة غاب لدقائق تاركا وعاد بدراجتين. وقفنا ننتظر توقف المطر أو خفوته وما إن حدث ذلك حتى ركبنا قاصدين وسط البلد.

لم أر في حياتي حتى هذه اللحظة مقهى يبيع الحشيش، ويسمح لك بتناوله وانت معزز مكرم. هذا أمر يشكل حلم أغلب الشباب العربي، وعدد لابأس به من كهوله ولذا فقد كنت مستثارا وأشعر بفرح طفولي. ليس لفكرة الحصول على الحشيش وإن كان ذلك أمر

لايستهان به، ولكن ماحفزني هو فكرة الحرية فى أن تجد مكانا يسعك تمارس فيه عاداتك دون أن يراقبك أو يعاقبك احد.

على مشارف المدينة وبعد أن اجتزنا المدخل بقليل انعطف مصطفى بدراجته نحو اليمين، وتبعته حتى دخلنا شارعا ضيقا، ثم انعطف يسارا ووجدت صعوبة في ملاحقته فأنا لم أقد دراجة منذ زمن الطفولة بينما كان هو يقود وكأنه ولد على دراجة. توقف أمام مقهى تعلوه لافته مضيئة خضراء، دخلنا المكان ذي الإضاءة الخفيفة المتوزعة على الأركان والموسيقى الهادئة. كان هناك زبونان على البنك يتناقشان مع البائعة بينما توزع بقية الزبائن على المكان في أحاديث هادئة تقطعها تعليقات وضحكات مرحة. اخترنا ركنا وجلسنا ندفىء أطرافنا قبل أن أتجه إلى البائعة طالبا قطعة حشيش بعشرة خلدات، فردت أي نوع من الحشيش أريد فسألتها ثانية عن الأنواع المتوفرة وأنا أدعي خبرتي بهذه الأماكن، فأخرجت لي قائمة مغلفة بالبلاستيك وقرأت سريعا مابها وعندما لمحت اسم نوع أفغاني طلبته على الفور فهو المفضل في ليبيا، مدت لي كيس نايلون صغير به القطعة فشكرتها وعدت لمكاني بصعوبة، لأني كنت مسطولا أصلا من الطقوس التي مارستها لأول مرة في حياتي. حديث قانوني وعلني حول شراء قطعة حشيش ثم اتفاق وتحيات احترام. ماذا لو قلت لموظف وزارة العدل أن مافعلته الآن يتيح لي حق اللجوء؟ أريد أن أشتري قطعة حشيش وأدخنها وأستمتع بها في مكان قانوني. عدا عن كوني صحفيا وأكتب مقالات. أليس من حقي أن اعيش في مكان أشتري فيه الحشيش دون أن أتعرض للعقوبة والتشهير؟.

نهض مصطفى لجلب الشاي من البنك وشرعت في تفتيت جزء قدرت أنه يكفي للفافة معقولة القوة، وعندما رجع ناولتها له للفها. أنا

متعود على حشو السيجارة العادية وليس اللف. قام مصطفى بذلك بمتعة وكأنه يداعب فهدا، وأرجعها إلي جاهزة فسحبت منها نفسين خفيفين ومددتها له، وبقينا نتبادلها حتى انتهت فرشفت من الشاي شاعرا ببدء الرحلة وأعدت تمركزي على الكرسي المريح دافعا برأسي للخلف، بينما كان هو يراقب الحضور ويطلق بعض التحايا.

بقينا في الكوفي شوب حتى التاسعة ثم خرجنا بعد أن اشتريت قطعة ثانية من نفس النوع، وركبنا دراجتينا وقدت خلف مصطفى بحذر وبكل ما أملك من انتباه رغم أن الطريق المخصصة للدراجات كانت شبه خالية، واتجهنا نحو المركز وكلانا يغني على ليلاه بالطريقة التي ساقه إليها المزاج.

مررت على قاطع عالية ولكن لم أتشجع لطرق الباب وعدت لسريري، حيث كان سعيد يغط في النوم وزاد خارج الغرفة عند أصدقاء له يناقشون سير الأزمة التي بدأت بين أنصار طالباني، وأنصار البارزاني في كردستان العراق. شغلت التلفزيون وحاولت التركيز. كانت شاشة السي ان ان التي تعرض مسيرات صربيا ضد الرئيس مولسفيتش. كان المنظر مذهلا حيث يرفع عشرات الآلاف من المتظاهرين المظلات اتقاء المطر، فبدت الساحة الرئيسية كغابة من الفطر الأسود، لكني سرعان ماسرحت بعيدا في خيالات متداعية وسريعة وغير مكتملة، حاملة سيلا من المشاعر المتنوعة قبل أن أعود من جديد وأراقب حرب الأكراد الأهلية. كانت ميليشيات طالباني قد دخلت أربيل فطلب البارزاني عون صدام حسين، الذي أرسل له جيشا استعاد المدينة قبل حوالي شهرين، والآن يسعى طالباني للرد، في التلفزيون بدت سيارات الدفع الرباعي حاملة المدافع الرشاشة تنهب الطريق مثيرة لكثير من الغبار، وفي لقطات أخرى بدا أشخاص من الميليشيات يرتدون

الملابس الكردية الواسعة وهم يتربصون خلف زوايا الشوارع أويطلون بحذر من الدشمات المسورة بأكياس الرمل. بقيت أغيب فى خيالاتي وأعود للتلفزيون حتى هويت فى النوم.

صحوت حوالي الواحدة ظهرا. أفطرت في المطعم وعدت إلى الغرفة ثم مضيت إلى المبنى المقابل حيث يتم اليوم تسليم المنحة الأسبوعية. حالة من الحبور تسود المكان. التعليقات تنطلق من هنا وهناك وكأننا قضينا الأسبوع فى عمل شاق وحان موعد قبض الأجر. وقفت في الطابور وانتبهت بأني خلف لاجيء بلحية طويلة غير مشذبة سبق وأخبرني بوهدى عنه باعتباره من مجموعة الجزية، ولذا شحذت انتباهي قدر الإمكان حتى أسمع تلك الجملة التى سيطلقها عند الوصول إلى الشباك، عندما حان دوره أخذت خطوة للأمام حتى كدت التصق به وسمعته يبادر الموظف الذى يجلس خلف الشباك يناول النقود:

- **الإسلام ام الجزية؟**

فرد الموظف متأففا بجملة هولندية وناوله النقود التي أخذها بدوره مرتاح الضمير، بعد أن عرض عليه مايقتضيه الشرع كما يعتقد. عاد مطمئنا راجعا عكس الطابور، إنه من المجموعة التي تعتقد أنهم الطرف الأقوى مهما بدا من ضعفهم، وعليه فيجب أن يعرضوا الإسلام على النصارى أو أخذ الجزية منهم وهم صاغرون. حسدت أبولحية على هذا الفهم القاطع والبسيط والحاسم وتناولت بدوري منحتي شاكرا للشرطي صنيعه ومنهيا تمامي في نفس الوقت وعدت شاعرا ببعض الغثيان والاستغراب.

وقفت عند باب القاطع متقيا المطر أراقب المرور السريع للناس حتى لمحت عالية، فاتجهت نحوها وسلمت عليها بسرعة وأخبرتها برغبتي في الخروج للغابة عشية إذا كف المطر فوافقت سريعا ومضت فى حالها.

منذ تلك الليلة أصبحنا نحرص في اتفاق ضمني على عدم الظهور معا أمام الآخرين قدر الإمكان. أصبحنا نشترك فى سر خاص قابل للإعلان مع أبسط حركة منا، فالمركز يقع فى هولندا ولكنه في الواقع لازال ينتمي لثقافة العالم الثالث بتعقيداتها وعقدها الخاصة، التي تتميز بالفضول والغيرة والثرثرة فى كل مايخطر على البال. شعرت بالمفارقة فبقدر ماتوطدت علاقتنا بعد أن عبرنا الحاجز الأخير فإنها صارت تطلب عدم التلاقي والبعاد وممارسة التجاهل وإدعاء عدم المعرفة الوطيدة.

سرت نحو غرفة بوهدى فى القاطع الثالث وعندما دخلت بادرني:

- **تعال شوف شلون كظه ولزمه تحت الماء وماقدر يسوى شيء.**

وعندما تتبعت يده التى تشير نحو التلفزيون فهمت المعنى فورا، فهو يقصد أن التمساح قبض على الوعل الذي كان يريد الماء وسحبه بقوة إلى الأسفل حتى قضى على أنفاسه. كان يراقب المشهد الذي كان فيه التمساح الآن يطفو فوق الماء ضاربا الوعل على سطحه بقوة جبارة، ثم بدأ في تمزيقه بفمه الرهيب قبل أن تظهر تماسيح أخرى على الشاشة وتبدأ معركة دموية انتهت بتقاسم الوعل، وسط دوائر مائية حمراء مهولة ارتسمت جراء العراك، بعد هذا المشهد - الذي أحدث نشوة خاصة عند بوهدى -لابد أنها أرجعته لأيام الجبال - قررنا اللحاق بسرعة بالمكتبة قبل الإقفال، هناك أعطاني بوهدى الجريدة التي وجدناها تنتظر على غير العادة وانسحب نحو رف الكتب الصغير قبل أن يعود بكتاب عرفته ما إن لمحته في يده. كانت رواية (متاهة الجنرال) لغابرييل غارسيا ماركيز. عرفتها من غلافها ذي الأرجوحة الملونة وترجمة صالح علماني. دفعت نحوه الجريدة وأنا أستأذنه وتناولت الكتاب قبل أن يسترد المبادرة وشرعت في تصفحه وعندما لاحظ بوهدى شغفي سألني:

- **مش قتلي انك قريت كل كتب ماركيز بالعربـــي..**
- **صحيح، ومنها هذا الكتاب.**
- **لعاد ليش ماتخليني اقراه أول وبعدين اجيبه الك.**
- **زين، بس هذا الكتاب بالذات عندي معاه قصة.**
- **ما آبـــي اسمعها، خوذه وبعدين آخذه آني..**

تذكرت ذلك اليوم الذي ربما يكون بداية قصة يحيى والتي توجت بتلك النهاية المروعة. أنا وهو أمام بيتهم في سيدي خليفة بقرب جامع الشيخة راضية. يحيى منتش وواضح أنه تناول كم حبة وسيجارة علـــى الأقل حشيش. كان قد خرج لتوه للحياة بعد أول انتكاســـة كـــبيرة يواجهها بعد تركه للجامعة وبقائه في البيت وبيعه للحشيش بالقطعـــة. دخل في عزلة حديدية لم يستطع أحد إخراجه منها.

جربت معه كل ماعرفت أنه يؤثر فيه ولكن بلافائدة، كأنه قـــرر مقاطعة الحياة بشكل نهائي وهذا القرار الذي بدا لنا نحـــن أصـــحابه القريبون مجرد غضب طارىء، ومحاولة للفت النظر صار مسألة جديـــة مع الوقت عندما مضى شهر ونصف و لم يغادر البيت. يتناول مايصـــله من الأصدقاء من حبوب وحشيش ويظل مرابطا أعلى البيـــت طـــوال النهار على فراش يبسطه على الأرض قبل أن يهبط ليلا لينـــام، وبعـــد اجتماعات عائلية عديدة تمكن أحد أبناء عمومته من تدبير تأشيرة لـــه لدخول بريطانيا. كان من المقرر أن يستقبله ابن عم آخر يدير عمـــلا خاصا في لندن وهو من سيتدبر له عملا معه. كان عليه إجراء مقابلـــة للحصول على التأشيرة فى تونس لعدم وجـــود ســـفارة بريطانيـــة فى طرابلس، وكان عليه أن ينتظر الموافقة قرابة ثلاثة أشهر، كان خلالها قد واصل عزلته وإن خفف من إجراءها داخل البيت وأصبح يتكلم بشكل متقطع مع والدته وأخواته.

أرى نفسي الآن مع خليط من الأصدقاء وأبناء الشارع ونحن نحيط بيحيى لنودعه بتعليقات مختلفة، أراقبه. يبدو واثقا بأنه تناول ما يكفي لتغييبه عن الوعي حتى الوصول إلى العاصمة تونس، وربما حتى موعد تسلم الموافقة. كان الوقت عصرا وشمس سبتمبر الحارة لازالت تقاوم الخريف ويحيى يعانق مودعيه ويضرب الأرض بحذائه ويزمجر مرتخي الفم:

- **اخيرا خلاص ساغادر هذه الغبرة، ملينا ياأخي وتعبنا من هالحبس.**

لم يكن يوجه كلامه لأحد معين. لمح فى الكيس الذي أحمله "الجنرال فى متاهته" فأصر على أخذها مني كزاد للطريق. استغليت الظرف وانتحيت به جانبا ودققت النظر فى عينيه وأنا أعطيه الرواية محلفا إياه برأس أمه أن يعطيني ماعنده من ممنوعات، لأني كنت شبه متأكد أنه يحمل معه زادا للطريق قد يعرض خطة هجرته بكاملها للخطر، لكنه أقسم لي وهو يمسك بالكتاب بأنه لايحمل معه أي شيء وكل مامعه فى رأسه وأنه يدرك اللحظة التي هو مقدم عليها، ولكنه لم يكن صادقا للأسف، فقد أمسكوا به في البوابة التونسية بعد أن وجدوا معه قرشين حشيش. حاول أن يبلعهما ولكنه فشل وحكم بعد مداخلات قانونية كثيرة بعام ونصف لتتحطم سفينة أحلامه على مرسى تلك الغلطة الصبيانية، التي دفعته لعدم الاكتفاء بالكتاب كمؤنس طريق والوقوع في التقدير السيء تحت تأثير طول المسافة حبوب الهلوسة المدعومة بكمية وافرة من الحشيش.

بقيت مع "متاهة الجنرال" أياما وأنا اقرأ وأستعيد عشرات التأملات والأفكار حول يحيى وعلاقتي به شاعرا بالذنب لإحساسي بأني لم أبذل الجهد المناسب لانتشاله من مهاويه، وعدم قدرة خيالي على رسم صورة النهاية البشعة التي وصلت إليها سفينته فى ذلك اليوم الرهيب عندما أحاط به القدر و لم يعد الفكاك ممكنا.

وعندما أعدت الكتاب لبوهدى أحسست بمشاعر مختلطة وكأني قد ودعت يحيى للأبد فى اللحظة التي مددت فيها الكتاب، وانتابتني رعدة حتى أنني انسحبت للغابة القريبة وبكيت كثيرا تحت المطر.

'''

أصحو قبل الظهر بقليل، أتحسس أطرافي المرهقة جراء عدوان الانفلونزا، لازلت لا أشعر ببعض الأجزاء من جسدي بعد أربعة ايام في الفراش، ما إن عدت من الغابة القريبة حتى بدأت الحمى تدب في جسدي مثل أسراب من النمل. العرق ينز والأنف مقفل والحلق جاف والريق مر وإحساس بالوحدة يضاعف من كل هذا. بالكاد زحفت متكئا على بوهدى إلى الجهة المقابلة حيث أعطاني الطبيب حبات إسبرين وبعض المضادات بعد الحاح كبير. قال بأنهم لايعطون الدواء هنا إلا في الحالات الضرورية حتى يتركوا للجسم فرصة الدفاع الذاتي، وبناء حمايته الخاصة. كان ابوآثار وبوهدى يتبادلان الزيارة وجلب الطعام كل يوم مما خفف عني الكثير. في الليل كانت الحمى تبلغ مداها. أسبح في عرقي وتتهيأ لي خيالات متداخلة يبرز دائما من بينها يحيى وهو ينظر نحوي من بعيد دون تعليق. نظرته كانت متأملة وصامتة وعيناه لاترمشان. أتجه نحوه وأنا ممتلىء بشعور من الذنب فيبتعد بخطوات بطيئة. أجري لاهثا ولكني لا ألحق بتلك الخطوات.

أغالب نفسي منتهزا صحو الطقس، فأخطو للخارج. أغسل وجهي. الماء ينسكب باردا ثم ساخنا يدعوني للاستحمام ولكني أخشى أن أنتكس من جديد. أدخل الغرفة ثانية أفتح التلفزيون باحثا بين القنوات وأختار برنامجا يتحدث عن سلفادور دالي، وهوسه بقدرة العلم على تجاوز الزمن وتثبيته. لم أعرف ذلك سابقا، أعني أنه يظهر في البرنامج وهو يعقد جلسات مطولة مع علماء الفيزياء، ويحضر مؤتمرا

عبر الأقمار الصناعية يبحث في قدرة العلم على تجاوز الـزمن. يطـل رأسه وشاربه المدبب من ملابسه البيضاء وقورا وهو يشكر العلماء على تلبية رغبته والتجمع في هذا المؤتمر. لقد كان دالي في الحقيقة يسعى نحو الأبدية والخلود، وكانت تلك الطريقة الوحيدة الذي ربما عن طريقهـا يتحصل على إجابة للغز الموت، أو يعثر بحيلة لتجاوز الأمر كله، بعـد نهاية البرنامج المؤثر والنادر. أمسكت الريموت من جديد. توقفت عند قناة موسيقى تبث برنامجا وثائقيا عن حياة البوب مارلي. تظهر بعـض اللقطات التي سبق وشاهدتها في ليبيا عند يحيى، البوب وهو يلعب الكرة مرتديا زيا رياضيا احمر، ثم وهو يجري بروفات وسط قاعـة خفيفـة الإضاءة. يتحدث البرنامج على علاقته بهـيلاس هيلاسـي امبراطـور اثيوبيا، وكيف أنه يعتبره مقدسا وخليفة للنبـي سليمان. أفكر وأنـا تحت تأثير الدواء والإنفلونـزا والإرهاق في هذه المفارقة. الرجل الذي غنى طوال حياته للحرية والمساواة وإفريقيا يؤمن بقدسية واحد يناقض كل ذلك، يستعرض الشريط زيارة هيلاسلاسي لجامياكا حيث يعتبره الكثير من الناس هناك كائنا مقدسا، أخت بوب مارلي تتحدث كيـف أن بوب تحسر لأنه لم يكن هناك...

... أتذكر يوم مات بوب مارليي، كيف خرجت له جنازة غائب في ليبيا، حمل مجموعة من مقلديه وعشاقه- منهم معروفون مثل عـادل الزينة وحسناوي رحيم وفتحي ريج- تابوتا خرج من شـارع هـايتي بوسط طرابلس متجها لمقبرة سيدي منيدر قبل تدخل قوة ثورية لتشتت الجمع وتلقي بالتابوت في عرض الشارع وهي تهتـف بحيـاة الثـورة وقائدها.. كانت أغاني البوب التي تم تعريب بعضها بكلمات محلية على نفس الموسيقى هي المنافس الوحيد لأغـاني المرسـكاوي والمـألوف الطرابلسي في الأعراس، ويرجع له الفضل الأول في الحفاظ على خيط

يربط الشباب باللغة الإنجليزية بعد منع تعليمها باعتبارها لغة الإمبريالية والاستعمار، كنا نردد تلك الكلمات دون أن نعرف مراميها ومقاصدها ونتبادل الأشرطة الخاصة به باعتبارها حدثا ملازما للحياة، ويوم العيد هو عندما نتحصل على شريط فيديو يحتوى على لقطات للبوب بشعره المظفور الطويل الذي كنا نعتقد أن غسله وضفره يحتاج لثلاثة أيام على يد فريق نسائي أثيوبي متخصص...

المطر بدأ ينهمر في الخارج، أراقب تدافعه على النافذة، أتمسك بغطائي جيدا وأتحسس أضلاعيي المتعبة من السعال والتقلب والبقاء على الفراش مدة طويلة، أحس بالدفء وقرب الفرج والخروج لحياة المركز التي أشعر بشوق داهم لها، لقد أصبح هذا المكان حميما بالنسبة لي أكثر مما قدرت، أتابع التلفزيون وأتوغل في الدفء والمسرة لقرب الشفاء وأغرق رويدا في النوم من جديد، متطلعا لعاداتي اليومية من جديد في الغد.

جلست مستمتعا بالصحو والصحة أراقب كالعادة من على كرسي الحديقة الرائح والغادي من سكان المركز، وجوها مختلفة يذكر بعضها بأصدقاء ومعارف قابلتهم في أماكن مختلفة، يمر اللاجئون في مجموعات صغيرة لقضاء حوائجهم المختلفة ولمجرد التمشي والتكلم، هناك أيضا نساء ورجال هولنديون يعملون في المركز، يمرون ذهابا وإيابا لاغراض مختلفة تخص اللاجئين، ألمح ميرندا وهي تسعى نحو مكتبها في الشئون الاجتماعية في الجهة المقابلة كفرس شموص تبادل رجليها القويين محيية كل من في طريقها، إنها أكثر بنات المركز شعبية ولها علاقة مع عبداللطيف الزنجباري صاحب العينين الزرقاوين والبشرة الخلاسية والشعر المجعد، أراقبها من بعيد كلما سنحت الفرصة برغبات دفينة وحب استطلاع كبير، أظنها بدأت تشعر بذلك فكل مائمر بي

تحييني بطريقة أحس من خلالها أنها تعرف. انقطعت عن درس الهولندية بسبب متطلباته في الاستيقاظ مبكرا وحاجته للتركيز، بوهدى فعل نفس الشيء مكتفيا باكتشافه للتشابه بين الهولندية والمجرية وهو اكتشاف جعله راضيا ومكتفيا بما نال من العلم، وعندما وصلت في تداعياتي إلى هنا كان بوهدى واقفا بجانبي يحمد لي السلامة وهو يضحك، مشيرا لشحوبي الذي ذكره بليلة المارغوانا، أخبرني بأنه ذاهب مساء إلى مجلس عزاء يقيمه فرع الحزب في وسط المدينة على روح قيادي شيوعي عراقي ودعاني للذهاب معه فوافقت على أن نمر أولا على الكنيسة التي في مدخل لايدن.

- **كنيسة شنو هذه؟.**
- **كنيسة، شنو ماتعرف الكنيسة؟.**
- **والله آني قلت عليك مخبل، يعني تريد تعمل مثل هذولا اللي يبدولن دينهم على خاطر يعتقدون ان معاملة لجوئهم رح تمشي.**

ورغم ان غرضي من الذهاب للكنيسة كان مختلفا إلا اني جاريته:

- **وش عليه يابوى، الإيمان في القلب وهذه مجرد اجراءات.**
- **اجراءات الخراء على خشمك، انا صحيح شيوعي بس هالخرابيط ماتدخل رأسي وماحسبت ان تدخل رأسك انت بعد.**
- **ماهو كله دين ربنا يابوهدى.**
- **بس اللي أنت قاعد تسويه اسمه بزنس ديني، مو عيب عليك وانت راجل مثقف وتكتب.**
- **للضرورة أحكام.**
- **لا احكام ولابطيخ، انت مو صاحبي اللي يسوي فيني كذي.**

وعندما شعرت أن المسألة تعتبر شخصية لبوهدى قطعت استرسالي وأخبرته بأني أود الذهاب للكنيسة لأني سمعت بأنها تبيع

ملابس مستعملة وأنا محتاج لذلك لأنه ليس عندي ملابس تصلح للشتاء، وعندها هدأ ووافق على اقتراحي على أن نخرج أبكر قليلا ثم ذهبنا سوية للغذاء و لم يمنعني الشرطي الذي يشرف على الطابور من الدخول رغم أن دور قاطعي لم يحن بعد، ربما بدا يألف وجهي ووجه بوهدى، بعد ذلك ذهبنا لغرفة بوهدى حيث وجدنا الأفغانيين والشيخلي، وعلى سريره جلسنا أراني بوهدى ورقة صغيرة سيلقيها في العزاء باعتباره قائد فصيل مسلح أيام حرب التحرير، لم تعجبني اللغة المكتوبة بها، كانت تقليدية جدا وفخمة، ولكن أعجبني أنها مختصرة ولن تأخذ أكثر من ثلاث دقائق، اعتبرت ذلك كافيا فأمنت عليها ومدحتها كاذبا له خوف أن أفسد عليه لحظة اعتزازه بأنه لازال مهما يطلب الحزب حضوره ومشاركاته كقيادي من ضمن قياداته وهذا كما قدرت يعني الشيء الكثير لشخص مثل بوهدى وخاصة في هذه الظروف.

أخذنا الحافلة التي تتوقف مرة كل ساعة أمام المركز في الثالثة، نزلنا في مدخل المدينة واتجهنا نحو الكنيسة الصغيرة قاصدين جناح الملابس المستعملة، بحثنا في الأكداس الصغيرة حتى عثرنا على سترة وبنطلون كريمي اللون بخمس عشرة خلدن، دسستهما على بعض الخجل في الحقيبة الصغيرة التي أحضرتها معي وبوهدى لايتوقف عن رفع معنوياتي بمدح البضاعة المشتراة.

جلسنا نشرب الشاي (رفض بوهدى البيرة لأنه في مهمة رسمية جادة) في مقهى قريب من مكان المجلس بانتظار حضور البقية قبل أن نلتحق بهم في قاعة تعلو ناديا اجتماعيا هو مكان العزاء، الحضور حوالي ثلاثين من مختلف الأعمار، وجوه متعبة من السهر وكثر التنقل والذكريات الطازجة التي هبت للمقدمة عندما ألتقي الرفاق

لتمرالأماكن والأحداث أمامهم في شريط مكثف، محزن وثقيل، تكـــاد ترى العبرات فى العيون والغصات فى الحلوق مما حول المشهد إلى مشهد فقدان جنائزي يليق بالمناسبة فعلا.

وقف عريف اللقاء خلف طاولة صغيرة متحـــدثا قلـــيلا حـــول المناسبة راثيا الفقيد ومشيدا بانجازاته ومقدما التعازي للحزب والرفـــاق وطالبا بلطف من شخص يدعى أبوناز التقدم وإلقاء كلمته، نهض مـــن الصف الأول شخص يرتدي بذلة سوداء مقلمة وربطة عنـــق حمـــراء وسار بخطوات بطيئة تغالب كرشه المندلق، حيا الرفاق وبدأ يلقي كلمة بالمناسبة تحدث فيها عن معنى النضال والشهادة والتضحية وموقع الفقيد من كل هذا، ثم جاء دور بوهدى الذي تقدم بخطوات تكـــاد تكـــون عسكرية وأخرج نظارته والورقة الصغيرة وقرأ دون أن يرفع رأسه عنها مجموعة من الجمل المسجوعة وختم بتحية الشهداء والحـــزب والوعـــد بالمواصلة واتجه إلى مكانه وما إن وصل حتى مال علي قائلا إن الكلمة كانت سيئة، كان يلومني على عدم إخلاص النصح له، أصابني ذلـــك بالخجل لأن كلامه صحيح، وصعد للمنبر متحدثان أو ثلاثـــة فضـــل آخرهم الحديث عن الفقيد - الذى كان اسمه ابوشاشا - من ناحيـــة إنسانية حيث ربطته به علاقة شخصية وعائلية طويلة وسرد نتفا مـــن ذلك ليرجع ابوناز مجددا للمنبر موضحا أنه لم يكن يدري أن المطلوب الحديث عن الفقيد كإنسان، وبدأ فورا في حـــديث إنســـاني راويـــا ذكريات جلسات حميمية حول قناني العرق وبعض الأغاني - الملتزمـــة طبعا - المفضلة لدى صديقه الفقيد وعن طريقة تصرفه الإنسانية طوال عملهما معا ضمن القيادة العامة للحزب، واضح أنـــه غـــار مـــن أن يتحدث آخرون على المعرفة الشخصية بالفقيد مصرا على تأكيد مكانته في ذلك، عندما أكمل ونـــزل أعلن العريف عن انتهاء الحفل ودعـــا

الحاضرين إلى تناول الشاي والقهوة التي أعدها بـالمطبخ في الأسـفل مجموعة من الرفاق الشباب.

إنضممت لنفر من الحاضرين احتفلوا بوجودي بينهم باعتبـاري ممثلا للشيوعية الليبية وهو أمر تواطأت معه بأفضل السبل حتى لا أخيب الحدس الشيوعي العراقي الذي كنت أعرف ميله إلى الأوهام وحـب التضحيات المجانية.

بعد أن انفض الإجتماع ذهبنا إلى محطة القطار لتوديـع بعـض الرفاق الذين صار بعضهم أصدقاء لي الآن ناداني بعضهم بلقب رفيق، ثم اقترحت على بوهدى القيام بجولة فى الشارع الرئيسي للتفرج علـى بدايات زينة عيد الميلاد كي أخرجه من جو خذلاني له فيمـا يخـص كلمته، بعدها أخذنا الحافلة للعودة للمركز حيث ساد الصمت بيننـا واكتفينا بمراقبة حبات المطر وهي تهاجم نافذتنا بفعل الريح وغرق كل منا فيما يخصه من تداعيات.

توجه بوهدى مباشرة إلى غرفته فيما توقفت بعد ذهابه فى غرفـة الهواتف مدعيا أنني أنتظر مكالمة، فى الواقع حاولت مـرتين في الأيـام الماضية أن أتصل بوهاب عن طريق هاتف صديق في الجامعة ولكـني لم أوفق كما فكرت سريعا فى الاتصال برحاب ولكن أبعدت هذا الخاطر سريعا وأنا أشعر ببعض الخجل لأني لم أخبرها عن خطتي للسفر ومـن هناك توجهت لغرفتي وأخذت عدة الأكل وتناولت العشـاء صـحبة بوجواد الذي لم أره منذ أيام، تحدثنا عن مجلس عزاء بوشاشا فقال إنـه يتذكره ببغداد فى الفترة التي كان فيها قريبا من الشيوعيين أيام العمـل العلني عندما ضمتهم الجبهة الوطنية مع حزب البعث قبـل أن يقـرر التفرغ الكامل للفن، وعدنا من المطعم على مهل حتى أوصلته لغرفتـه وعندما أخذ فى لف سجائره متمددا على سريره استأذنته وخرجـت

بدوري لأضع أغراضي على الطاولة البلاستيكية وأهمد قليلا مفكرا في يومي وفي المكان الذي سأقضي فيه الساعات القادمة.

فجأة تذكرت أني نسيت حقيبتي الصغيرة وبها مااشتريته من الكنيسة وأدركت الآن سبب إحساسي بالخفة وأنا خارج من قاعة العزاء، وقبل أن أستغرق في الأمر تذكرت أيضا أن لدي قطعة حشيش اشتريتها عندما كنت مع مصطفى في (الكوفي شوب) فنسيت أمر الحقيبة بل شعرت للحظة بالراحة لنسيانها لأني لم أكن متشجعا كثيرا لتلك الصفقة. نهضت مقتشا بنطلوني الثاني فوجدت كيس النايلون الصغير به القطعة ففرحت بقدر أكبر مما توقعت، بعض التجارب التي تمر بها تجعل للأشياء أهمية خاصة مهما صغرت أو قل شأنها في الأيام العادية، مررت القطعة أمام أنفي أتشممها وأنا أفكر فيها ثم قررت أن أقسمها لنصفين وخرجت بإحداهما باحثا عن أحد يشاركني ليلتي بعد حمام سريع يزيل روائح الحمى عني.

اتجهت أولا في جولة استطلاعية شملت قاطع مصطفى الذي لم يكن في الغرفة وعرجت بعد ذلك على غرفة الحبر حيث وجدته مع جو يدندن على "غيتارته" وأمامه علبة بيرة من نوع رخيص، كنت بحاجة لمن يلف لي القطعة، سألت الحبر عن عالية مصطنعا العفوية فأجاب بأنها على وصول فقلت له بأني سأعود لكني خرجت لأقف في باب القاطع منتظرا إياها حتى جاءت بعد دقائق فقررنا الخروج قليلا للتمشي أمام المركز بجانب الطريق الرئيسي وهناك لفت عالية السيجارة وهي تتمشى، دخناها بالتبادل ونحن مستمتعان بصحو الجو، استمررنا في سيرنا حتى وصلنا الغابة وعدنا أدراجنا من جديد بتمهل ونحن نتحدث في مواضيع لاتكتمل حتى وصلنا المركز حيث افترقنا على أن نلتقي في غرفة الحبر حيث كان الغناء السوداني وعزف ربابة قام به عثمان جار

الحبر وجاءت أيضا سمر الصومالية وتوسا التركية ويوسف الزنجباري، الكل يحمل معه ماتوفر من الكيف، رقصت البنات ويوسف صحبة عزف الحبر وتوليت وعثمان شئون البار المرتجل ومضينا في هذا حتى قرابة منتصف الليل عندما خرج كل واحد إلى غرفته.

شيخ زكريا شريكي في الغرفة السابقة يوقظني بصوت حذائه الهولندي المصنوع من الخشب، أخمن أنه يتجه نحو المدخل حيث تعود التدخين وهو يتأمل المارة، أخبرني مرة أن سبب فراره من باكستان أنه يعرف اسم قاتل مرتضى بوتو ومنذاك أحاول أن اسأله كل مرة التقيه عن الاسم وأنسى، لم أصدق الأمر فكل شخص هنا عنده اكاذيبه الخاصة ولكن الفضول كان يدفعني للسؤال والنسيان يمنع ذلك، أبقى خامدا في سريري لبعض الوقت أراقب التلفزيون الذي كان يبث شريطا وثائقيا حول المافيا وكيف أن جوزف كندى والد الرئيس جون كندى كان له علاقات وثيقة معها إضافة لعلاقاته الارستقراطية الراقية وكيف أنه أمن أأضل المشروبات الروحية في حفل تخرج جامعة هارفرد في زمن منع الكحول بالولايات المتحدة الأميركية عبر علاقاته تلك، كما استعرض الشريط سيرة شخص اسمه ارتوستاين ملقب بالدماغ، لأنه جعل من الجريمة المنظمة عملا إداريا مستفيدا من خبرته في العمل النقابي عندما كان من رواده، يروي صوت المعلق كيف أن حاجة القوافل التي تهرب الكحول خاصة من كندا للحماية أيام المنع كان السبب في سيطرة المافيا والقتلة المحترفين، مستعرضا أول جريمة قتل بالرشاش في فيلادلفيا آخر العشرينات، تظهر على الشاشة صورة لوتسكي الذي يصفه المعلق بأنه كان شخصا طيبا مبتسما، أشرف على تهريب الخمور من كندا وأوروبا وأدار شبكة من متاجر الكحول وحلبات المراهنة على الملاكمين.

أتابع الشريط على مهل منتظرا أن يمر الوقت ويأتي الليل حيث ستكون شريكة عالية في الغرفة في بيت صديقها الجزائري مرة أخرى، بإمكاننا أن نمضي الليل معا حتى الفجر كما تعودنا أن نفعل كل نهاية أسبوع تقريبا.

عندما دخلت بهدوء للغرفة كانت عالية ترتدي سروالا قصيرا يكشف عن ساقها الجميل اللماع، وفانلة بدون أكمام كالتي يرتديها لاعبو كرة السلة، كنا قد تخلصنا من إرباك البدايات وصرنا نعرف ماذا نريد من بعضنا. كانت قد أعدت الشاي وبعض الكيك وجلبت قطعة حشيش وورق بافرة لزوم اللف، وبعد السيجارة الأولى أخرجت رقعة الشطرنج وبدأنا في اللعب مستمتعين بمحاصرة الخيال النافر على الرقعة، نهز رؤسنا المعبأة على أنغام موسيقى التلفزيون دون أن نرفعها، أرمقها بين الحين والآخر فتبدو واثقة من نقلاتها ومنسجمة مع ماتفعل، بعينيها الصغيرتين الدقيقتين وقد دخلتا في نوع من النعاس الجميل جراء الحشيش، صدرها النافر وكتفاها اللذان يحمدا نحو الأسفل بتأثير الاسترخاء، كانت متجهة بكاملها نحو الرقعة وكأنها ستدخل فيها كقطعة من قطع اللعب.

في مثل هذه الأوقات أشعر بالراحة الكاملة حيث تكون الدنيا بكاملها داخل غرفة صغيرة في متناولي، تقوم أحيانا لجلب غرض ما فتهتز أمامي كحلوى الجيلي بمؤخرتها الرجراجة وخطوتها البطيئة الواثقة وحبها لعمل كل شيء بتمهل ولذة ومزاج عكس مايوحي به مظهرها العام، عندما رفعت رأسي نحوها بعد استغراق في اللعب وجدتها قد أخرجت نهدها الأيمن من مجاله فظهر بكامله كدعوة للتوقف عن هذا النوع من اللعب، وأكدت دعوتها تلك بتمرير يدها ذات الاظافر المقلمة فوقه بعناية شديدة حتى أنها اغمضت عينيها، سحبتها لفراش الروسية

وأدخلت أنفي في المفترق وأخذت أشم على مهل حليب أمي المفتقد محاولا أن أتذكر كل الأوضاع الجنسية التي أمضيت الأسبوع وأنا أفكر فيها في انتظار يوم الجمعة، في الواقع كنت قد قسمت الأوضاع على يومي الجمعة والسبت في خيالي ولكن اللحظة أطاحت بذلك على صدى ضحكة رنانة انطلقت فوق رأسي فانتقلت العدوى إلي وتشاركنا الضحك بهستيريا ونحن نفتش بعضنا حتى أصبحنا عاريين تماما، دخلت بين فخذيها الناعمين وبدأت ألعق جزيرتها الملساء على إيقاع تأوهاتها المنتظمة ومن بئر اللذة تلك عثرت على جهاز التحكم وزدت في صوت الموسيقى واستمررت بعد أن أعطيتها نصفي الأسفل، وعندما استدرت كانت عيناها مغمضة وجفناها ترفان وكأنها نائمة تحلم فأغمضت عيني بدوري وانهمكت في الحلم الذي تحتي مداعبا ماتصله أعضائي من جسدها.

أشعلنا لفافة من جديد واستمررنا في اللعب من النقلة التي كنا قد أنتهينا إليها قبل أن نغير نوع اللعب، صببنا مزيدا من الشاى وتوجهنا للسرير حيث دخنا ونحن نتكلم في مواضيع مرتجلة، قبل أن أستيقظ في الفجر وأتسلل إلى سريري وأواصل النوم.

صحوت على أصوات متسارعة تصاحبها ضحكات متقطعة وجري ومناداة وعندما خرجت لأستطلع الأمر وجدت زكريا الذي أخبرني وهو يكتم ضحكة بأن علي رضا الإيراني خرج من غرفته عاريا تماما وهو يشتم ونام في الممر الرئيسي محتجا على نتيجة رفض طلبه للجوء التي تسلمها من المستر نجتف المكلف بذلك، ووصف لي زكريا كيف كان رضا يضع يده على عورته وهو ملقى على الظهر بينما يشير باليد الأخرى مواصلا شتم الحكومة الهولندية ورافضا محاولات جره لغرفته طالبا حضور موظف من وزارة العدل ليتسلم شكواه، استغربت

الحدث فقد بدا لي علي رضا شابا هادئا في المرات التي رأيته فيها، قليل الكلام ووديا وغير معني بما يدور في المكان إلا في الحدود الضيقة التي تهم حياته اليومية، رجعت للغرفة وتذكرت أن اليوم هو السبت وأنني سالتقي مجددا بعالية فانتابني شعور بالطمأنينة والسلام الداخلي فغسلت وجهي سريعا ولبست وتفقدت ميزانيتي فوجدت أن لدي عشرين خلدن، ارتحت فهي مبلغ لابأس به بالنسبة لاحتياجاتي حتى يوم الاثنين إذا تصرفت بلباقة، جلست أمام التلفزيون وأنا افكر في مافعله رضا انتابني هاجس أن هناك مصاعب أخرى لم أختبرها بعد في هذا المكان وخشيت للحظات أن أرتكب يوما مثل هذا التصرف مراقبا نفسي في الصورة التي وصفها لي زكريا، وكاد هذا التخيل أن يطيح بي في بداية اليوم فقررت الخروج، لكن أدركت وقتها أن االمطر ينزل في الخارج، فعاودت تخيل رضا وهو مغسول تحت المطر يصر على حضور موظف العدل وقدرت انه سيصاب ولابد بحمى وصعد تعاطفي معه إلى قمته فزاد شجني، دفعني ذلك للتوجه إلى غرفة الهواتف التي صارت مثل الخيط السري الذى يربطني بالعالم الذي تركته وصار ينأى عني كل يوم وأنا أتوغل فى حياتي الجديدة، إنها مكان لتعزية النفس واستعادة طمأنينة تتزعزع أمام واقع جديد لم تألفه النفس بعد وأن تعاطى معه الجسد كل يوم.

هدأت نفسي بعد وقت من توقفي في غرفة الهاتف متظاهرا كالعادة بانتظار مكالمة تخصني، وقفت أراقب المطر المنهمر لبرهة قبل أن أعبر للجهة الأخرى نحو غرفة بوجواد الذي كان مع بوهدى يتحدثان حول ذكريات بغداد ومعارفهما المشتركة والأماكن التي كانت وكيف أصبحت، جلست أستمع وأنمي معرفتي بهذا البلد الذي لم أزره ولكني عاشرت الكثير من أناسه وصار لي فيه أصدقاء وأماكن حفظت بعض

مواقعها من كثر تردد ذكرها أمامي، ثم اتفقنا على اللقاء بعد العشـــاء وحضور الحفل الذى سيقيمه اللاجئون الافغان بالمركز.

وفي وقت الحفل دخلنا المقهى الذي تحول إلى مسرح حيث صفت الكراسي في مقابل منصة مرتجلة جلست فوقها مجموعة عازفين كان من بينهم الرجل الذي كان معي في المطار صحبة زوجته، كـــان يمســـك بدف صغير، تبادلنا التحية ورحب بنا قائما من مكانه فقد نشأت بيني وبينه علاقة مودة بعد أن قضينا تلك الليلة معا وجلسنا لفترة نســـتمع للغناء الافغاني الحزين قبل أن يميل علي بوهدى ليخبرني أنه لايســـتحق هذا العذاب فعرفت أنه قد شارف على إنهاء "متاهة الجنرال" حيث ترد هذه الجملة على لسان بوليفار في الثلث الأخير منـــه، فكـــرت طبعـــا للحظات في يحيى عندما سمعت جملة بوهدى نيابة عن ماركيز ثم وافقته على رغبته فخرجنا مع أول استراحة متجهين مع بوجواد لغرفة بوآثار للعب الكونكان...

... نهضت باكرا بعض الشيء وأشعر ببعض الإثارة حيث سأقوم اليوم بأول رحلة طويلة خارج المركز، سأذهب لمدينة اوترخت لمقابلـــة المحامي الذي عينته لي وزارة العدل، ذهبت للإدارة وتسلمت تـــذكرة القطار والتاكسي وراجعت خريطة المكان مـــع الموظفـــة وتوجهـــت للمحطة الرئيسية للمدينة محافظا على تركيزي في أعلى معـــدل، جـــاء القطار وصعدت بشيء من الرهبة وجلست بجانب النافذة كي أتمكـــن من قراءة أسماء المدن والمحطات التي سنمر بها.

انطلق القطار ونسيت تركيزي مطلقـــا بصـــري في المســـاحات الخضراء التي كانت تتجه بسرعة عكس السير متأملا الأبقار التي ترعى مطمئنة حاملة خرائطها المبهمة على ظهورها (كما قرأت مرة لشـــاعر اميركي)، تختفى خلفي بسرعة حتى وصلت محطة اوترخت الكـــبيرة،

بالكاد استطعت العثور على محطة التاكسي وأعطيت العنوان للسائق وبعد دقائق من الانطلاق وسط مظاهر عيد الميلاد المبكرة وصلنا إلى بناء من طابقين وجلست في الصالة لدقائق قبل أن يخرج المحامي، رجل أربعيني أنيق الملبس ودقيق الحركة يصحبه مترجم عراقي واتجهنا إلى المكتب حيث جلست على طاولة صغيرة للاجتماعات.

وتحدثنا في موضوع لجوئي لنصف ساعة تقريبا طمأنني المحامي في نهايتها على أن قصتي جيدة ووثائقي قادرة على دعمي ولكن مفتاح نيلي للجوء يكمن في الصبر. بدا واثقا من نفسه وجديرا بالصورة التي رسمها لي بعض من دافع عنهم سابقا، فهو متخصص في قضايا الكتاب والصحفيين وعلى معرفة جيدة بأحداث المنطقة العربية - تبين لي ذلك من حديثه - وإن كان أقل فيما يخص ليبيا، حيث بدا لي أنه متشوق لسماع مزيد من الأخبار عن نوع الحياة واهتمامات الناس، وطريقة سير الأمور فانا أول زبون ليبي يتولى الدفاع عنه كما قال. تمنيت أن يدفعه ندرة نوعي للاهتمام أكثر بقصتي.

ودعت المحامي الذي طلب من سكرتيرته توفير تاكسي تقلني للمحطة من جديد، وهو ما حدث وركبت القطار عائدا إلى المركز في لايدن. في طريق العودة شعرت ببعض السعادة لأني عائد إلى مكان يخصني، فالمركز أصبح مكانا مناسبا لي تماما كلما تقدمت الأيام. هناك أصدقاء وقصص وكيف.

وجدت بوهدى وابوآثار في انتظاري حالما وصلت. طرحا علي بعض الأسئلة وبوآثار يردد:

خير خير انشاءالله،،،

وتوجهنا مباشرة تحت مطر خفيف وظلمة إلى غرفته حيث كانت زجاجة فودكا مع بعض المازات التي جلبت من المطعم بتدبير بوآثار

جاهزة على الطاولة. جبن وبطاطا مقلية وبعض الخيار المملح. أخرج ابوآثار إبرته الصغيرة وصوبها نحو ذراعه وسمعنا الطقطقة المعتادة، وهو يفرغ في وريده لتمليء الغرفة برائحة الأنسولين. نشرع في الشراب وتوزيع ورق الكونكان لندخل الليل في حال أفضل بعد يوم طويل.

رجعت ثملا للغرفة قبل منتصف الليل، وجدت زاد الكردي متسمرا أمام التلفزيون. ما إن لمحني حتى أشار علي بالسكوت والمتابعة. كانت صور مختلفة لعدي صدام حسين تتوالى على الشاشة، وصوت المذيع المتحمس للخبر العاجل يملأ الغرفة. حاولت التركيز ومغالبة تشتتي للإلمام بما يحدث. زاد بالكاد يعرف بعض جمل بالعربية. كان في حاجة لمن يفسر له ما يحدث على شاشة السي إن إن، (ليس عندنا قنوات عربية أو كردية) وفهمت بعد جهد أن عدي تعرض لمحاولة اغتيال ببغداد، بينما كان يقوم بجولة ليلية لصيد البنات، وعندما طلب زاد مزيدا من المعلومات و لم أستطع تلبية طلبه أشاح عني مشيرا بيده مستغربا، لأنه كان يعتقد أني أفهم الإنجليزية بشكل أفضل من الذي اكتشفه. الواقع كانت لغتي تتحسن كل يوم لاضطراري لاستخدامها في المركز ولكنها لم تكن بعد في مستوى مايريده زاد. تابعت الخبر والتحليلات لبعض الوقت قبل أن اخضع لسلطان النوم تاركا إياه وحده. كان يضع غالبا زجاجة نبيذ أحمر على الرف. أتحدث معه أحيانا حول أسرته والعراق واللجوء هنا. أحاديث قصيرة تساعد على نمو علاقة هادئة بيننا. كان رجلا خمسينيا عنده ثماني بنات في قرية من قرى السليمانية. تحصل على اللجوء السياسي هنا، ويبحث عن بيت للانتقال إليه.

في اليوم التالي تجمع العراقيون في حلقات صغيرة طوال الوقت. في الممر والمطعم والمكتبة والمقهى. يتحدثون عن الحدث مفسرين إياه كل

بابهم من السيد نجتف حاملا لهم الخبر السعيد المنتظر. يدخل بهدوء حيث يتحلق حوله قاطنو الغرفة، ومن صادف في الجوار بصمت وترقب بينما يكون هو منشغلا بإخراج الورقة المطلوبة التي بها القرار، بعد أن يكون قد تأكد من الاسم عدة مرات. يدرك مستر نيجيتف حساسية عمله والأثر السيء الذى تخلفه بلاغاته في كثير من المرات. يحاول جاهدا أن يخفف من ذلك بحركاته المدروسة وابتسامته المواسية وكلماته المشجعة، وهو يبلغ الخبر السيء لصاحبه وحتى في حال نقله لخبر سعيد عندما يتحصل أحدهم على الموافقة الإيجابية على طلبه. يبذل مجهودا إضافيا كي يظهر مشاركته في الفرحة بأقل قدر ممكن حفاظا على مشاعر الآخرين الذين بلغهم - أو سيفعل- بالخبر غير المرحب به. في حالة الإيجاب تكتسب عيناه لمعة إضافية وهو يخرج ورقة النتيجة مهنئا اللاجيء بكلمات مغمغمة هازا كتفيه في حركة سريعة يهتز لها معطفه الرسمي الازرق، ومعبرا بها عن حبوره لنقله هذه البشارة الطيبة.

في كل مرة ينقل فيها قرار الرفض ترتفع حوله صرخات الاستهجان والاعتراض، وفي كل مرة يستطيع تهدئة النفوس بطريقة أو بأخرى متحينا الفرصة المناسبة للخروج سريعا، قبل استفحال الوضع مخلفا وراءه قلبا أو أكثر كسيرا.

أراقبه وهو يقوم بتلك الجولة متخيلا نوع الخبر الذي سينقله لي ورد الفعل الذي سأقابله به. من النادر أن تراه يمشي وحيدا في جولته تلك، فدائما يحوطه أكثر من شخص متلهف لمعرفة الغرف التي سيقصدها هذه المرة، ورغم أنه كان شحيحا في إعطاء بيانات رحلته التي كانت تمثل سلطة لابأس بها، فقد كانت المعلومات البسيطة المتسربة كفيلة بالوصول لأصحابها، والتأكد ما إذا كانوا في غرفهم أم يلزم الإتيان بهم في لحظات معدودة لأسرهم، بينما تزيد المعلومات التي لم

حسب مايريد. بوهدى ظل محتفظا بمسافته عن الجميع مفضلا الحديث مع بوجواد وابوآثار، ومنتظرا رأي الحزب في الموضوع. أخبرني أنه يكاد لايصدق. وصف لي حركة عدي وحي المنصور حيث تمت محاولة الاغتيال، شارحا لي كيف يتم عادة ترتيب الحراسات الخاصة بالشخصيات النافذة ليخلص لاتهام صدام حسين نفسه بالواقعة، مبررا ذلك بأن سلوك عدي لم يعد يطاق حتى بالنسبة لوالده، وروى لي كيف أن عدي ذات ليلة توجه للتلفزيون وهو ثمل ليعلن إنقلابه على والده، الذي أمر بغلق كل المرسلات وتركه يكمل مابدأه قبل أن يرجع به الحرس إلى سريره، وهو مستمر في ظنونه التي خيلت له أنه قد أصبح الرئيس الجديد للبلاد.

MR. Negative

لا أحد يعرف اسمه الحقيقي رغم أنه يقوم - أو ربما بسبب ذلك - بواحد من أكثر الأعمال حساسية في المركز. عمله هو إبلاغ ردود وزارة العدل على طلبات اللجوء. يقوم بجولته المعتادة في المساء متنقلا بين القواطع والغرف في هدوء وأدب جم وصبر جمل، متأبطا ملفا أوراقه تقرر المصير، ولأن كثيرا من هذه النتائج تكون سلبية لرفض الوزارة لطلب اللجوء لسبب أو لآخر، أطلق عليه أصحاب الحظ السيء من لاجئيء شرق آسيا وإفريقيا لقب المستر سالب (نيجتف) وانتشر هذا اللقب وصار اسمه الذي يعرف به.

بقامته المتوسطة ووجهه المسالم ونظارته الطبية الصغيرة التي تحدد باقي قسمات وجهه الصغير، وشاربه الدقيق يبدأ المستر نيجتف جولته المسائية التي يترقبها كل سكان المركز. في اليوم المقرر فيه إعلان الردود (تسمى هنا النتائج). يلزم الأغلبية غرفهم في وقت مبكر انتظارا لطرق

يكشفها المستر نيجيتف بعد من الإثارة، ويبقى الكثيرون في غرفهم مترقبين وهم يتطلعون من الأبواب والنوافذ ليرصدوا مسار تلك الجولة، وأيديهم على قلوبهم فربما يكون دورهم قد حان اليوم.

2

- **بي شرت حلو.**
- **اوه..شكرا، صاحباتي يرين العكس.**
- **كيف؟.**
- **يقولون أن صدري صار اكبر الآن.**

أحب هذه الوداعة والتورية القادرة على إغواء الشيطان ذاته، فعلا كبر صدر رحاب، تربى على يدي وصار يعلن عن نفسه خلف التي شرت الأصفر. تظهر حلمتاه كحبتي حمص بهما قدرة كافية لتحدي العض.

وقفت بجانب النافذة تعيد ترتيب فازة ورد. حركاتها المحترفة تصف أولا الورد الصغير ثم تضع الوردات الكبيرة جانب الفوهة. بدت لي منشغلة بأمر ما. الفنيلا الصفراء تنسكب في تنورة طويلة تمنحها مسحة عازفة بيانو من العصور الوسطى. أتجه نحوها بهدوء حذر بقصد أن أشتت الموضوع الذي يشغل ذهنها. أشم عطر الرامب الذى تحبه لأنه يكمل شخصيتها الهادئة، ويضيف عليها مسحة خفية من الحضور القوي. أضع يدي على الكتفين وأتأمل الصدر الذي شب عن الطوق وأعلن تمرده بارزا للامام. تدور بحركة ناعمة وتنفلت مني باتجاه مكتبها وتنقر جهازها نقرات سريعة. لا أعرف هل كتبت شيئا أم أنها أقفلته. مددت يدي نحو الحمامتين الرابضتين في الصدر وضغطت برقة وثبات. رف جفنها وأطلقت تأوها مكبوتا ذكَرها ولابد بأنها هي من فتحت

حديث الصدر. تبدو منقسمة بين أمرين. تريد الحديث في موضوع يشغلها ولكنها تريد أيضا تريد اغتنام الوقت القصير للمشاركة في المتعة التي حرضت عليها، أدور وراءها وأحايلها كما أحايل هذه البلاد الغامضة. أقبل رأسها المنشغل وأحس ببعض الأرتخاء يسري داخلها. بعد أن ضممتها لصدري وأحسست باستقرار حمامتيها الدافئتين في العش بدت وكأنها انتبهت من رحلة قصيرة ورفعت رأسها نحوي وتنفست بعمق. قبلت خاتم فمها بتأن ولين ثم بحرارة وعضضت بقضمات كذوبة شفتها السفلى. رفعت يديها وجذبتني وغمستني في مبتدأ العنق وبعين نصف مفتوحة أطبقت على الحمامتين وهما في وضع من يريد الفرار والخروج للهواء. أضغط برفق. بحنو وبتوسل فتطلق مونولوجا صغيرا مشتتا تحت سلطة اللذة: أنت حبيبي أنت كذاب..أنت مكار.. فاشل.. عابر دخل مكتبي بالصدفة...

ينهض الجسد الجسد الباهر مواصلا همسه المخبول. المرتب. المشبوك، الذي يخطر في التو. الجسد الذي أتخيله في عدة أوضاع وأنا قادم في كل مرة، برأسه الصغير وصدره العامر، أصعد قمتي بهدوء ومتعة، إنها لي الآن، التي كانت تصفف الورد بتي شيرتها الأصفر العاجز عن كبح تفجر صدرها الذي تربى على يدي.

نجلس على الكرسي. تبتسم بمكر واستسلام ورغبة في الاحتلال، أعيد رأسي لشق الصدر حيث يلتقي نهراها، أشم عبير عمري آتيا من العمق، من الداخل، أحب هذا الوضع وتعرف رحاب دائما كيف تتوأطا معي للوصول إليه. أدفن رأسي في الفردوس وأبقى صامتا أشم مابين النهرين رائحة تشبه الحليب الطازج في الصباح، وتشبه رائحة العمر المكثف. تمرر يدها خلفي حتى تصطدم بحافة الكرسي. تغمض عينيها علامة على بدء سفر. أرسل يدي نحو مكانهما الأليف لتنزعا

حمالة الصدر بوتيرة مرتعشة وساخنة. تبرز الحمامتان مباشرة في وجهي. يداي تعرفان الطريق جيدا. أجوس برفق باحثا عن الحلمة التي تتخلى عن قسوتها كلما داعبتها أصابعي. تمرق يداها خلف المسند وتهصرني. بدت قوية ومحتفلة بعودتها سالمة من مكان بعيد. نقف متواجهين تغمرني بشعرها وتنورتها الهفهافة وتأخذ الزمام. تمسحني برفق. تشمني مرسلة حمما صغيرة متتالية من أنفاسها. تمر علي ذهابا وإيابا مرات، منتعضا وعلى شيء من القسوة غير الخطرة، أهم بالتنورة التي ترتفع مثل ستار ينفرج عن جزيرة للمتعة، تأخذني إليها، فيها: أنت كلب، أنت حلو، صغير مثل ولد، قلبك ميت...

تجذبني مبتسمة واثقة ومليئة بالمتعة نصفها عار ونهداها حران لنرتمي سويا على الأرض.

تتكون ليبيا من عرقين هما العرب والأمازيغ ولكن اجتماعيا يمكن تقسيم سكانها إلى ثلاث فئات. البدو والريفيون ثم المدينيون وبعد ذلك العائدون، ويطلق لفظ "العائدون" على أولئك الليبيين الذين هاجروا سنوات الاحتلال الإيطالي إلى خارج ليبيا، وخاصة نحو تونس ومصر وتشاد، حيث استقروا ومارس أغلبهم هناك أعمالا هامشية ثم بدأوا رحلة العودة بعد إعلان استقلال ليبيا، وخاصة في الستينات وأول السبعينات، وخضع هؤلاء العائدون لتصنيف سلبي من بقية المجتمع الذي كان يراقب العادات التي جلبوها من بلدان المهجر بكثير من الاستياء، رغم أنها لم تكن مختلفة بشكل كبير عن عادات الذين بقوا في ليبيا، ولكنها اتخذت كمبرر للتمييز الخفي والعلني أحيانا، وكرد فعل انتقامي بسبب مغادرتهم أثناء الحرب وتركهم للبلاد وهي في حاجة إليهم، كما يزعم الذين بقوا. طبعا هذا مجرد وهم فهؤلاء هاجروا بعد أن ضاقت بهم سبل المعيشة، وبعد أن قاموا بأدوار كبيرة في حركة

مقاومة الاحتلال الطلياني، لكن بعد أن ضاقت الحياة إثر حركة التأميمات ومصادرة الأملاك الخاصة والزحف الثوري الذي طاول كل المناحي ازداد الشعور بالتمييز ضد العائدين، الذين بدورهم كانوا يشعرون بذلك ويتحركون في الأحياء الهامشية التي جمعتهم مع البدو وسكان الأرياف النازحين نحو المدن الكبرى، وظلت آثار هذه النظرة محفورة في دواخلهم حتى بعد تخطي الجيلين الثاني والثالث للحواجز العملية، ووصلوا إلى مناصب مختلفة في الدولة التي لم تكن تعير هذه المسألة اهتماما كبيرا لأنها كانت تشترط الولاء للثورة، وقيادتها كطريق وحيد للنفاذ بين الطبقات، وتحسين ظروف الحياة والانتقال بها إلى مستويات أفضل.

بالطبع كان البدو أيضا يتعرضون لحملات من السخرية محملة بنكات وقصص مهينة، ولكنهم في نهاية الأمر كانوا يعتبرون طبقة عازلة بين الطبقتين، وفي ورشة ناصر ديهوم بسوق الثلاثاء كنا نشهد بين الحين والآخر صورا من هذا الصراع الخفي الذي يتمثل في أشكال عدة.

كان خليفة الممول ينتمي لعائلة طرابلسية عريقة احتل أفرادها مناصب مهمة في العصر الإيطالي والملكي، بفضل تعليمها الجيد ومعرفتها بأحوال العصر، ومرونتها في التعامل مع الظروف المختلفة التي كان الكثير منها حادا وصعب التقدير، ولكن فيما بعد بدأت هذه العوائل تفقد مكانتها إثر التغيير الثوري الذى حصل أواخر الستينات على يد مجموعة من الضباط البدو والقرويين. كان أغلب ضباط الانقلاب من أصول بدوية وقروية ومنهم أيضا بعض العائدين من المهجر.

أما منجي المبروك فهو من الجيل الثاني لعائلة عادت من تونس في أواخر الستينات. واصل تعليمه بتفوق حتى تخرج من قسم الاقتصاد

والعلوم السياسية بطرابلس، وبدأ في تسلق السلم الوظيفي حتى وصل لمنصب أستاذ جامعي بجامعة الفاتح، وإمتلك مزرعة صغيرة على طريق المطار بثمن زهيد، ضمن مشروع أقامته الثورة في منتصف الثمانينات ووزعت خلاله قطع أراض شبه مستصلحة لفئة من موظفين كبار، وبعض المحظوظين وثلة من البيروقراطيين الذين يعملون على مساعدة آلة الثورة التي كانت منشغلة بتصفية أعدائها، وتوفير الحد الأدنى من الخدمات للمجتمع كي يستطيع الناس المضي إلى اليوم التالي، وتواصل حياتها فى انتظار استقرار الثورة وتعميم الخير الذي وعدت به على الجميع، ورغم أن حصوله على تلك المزرعة أتى في الغالب عبر علاقاته الجامعية التي مكنته من الترشح باسم الجامعة التي خصص لها عدة مزارع بحكم وجود قوة ثورية تستحق التكريم، وإذا نظرنا إلى كيف تسير الأمور هنا فلابد أن المنجي غض النظر عن بعض الأشياء كما يفعل الكثيرون حتى وصل لمرتبة الترشيح، لكن لم يعرف عنه قط أنه تسبب في أذى مباشر لأحد، رغم أن هذاالسيناريو هو الأقرب إلا أن الممول لم يغفر أبدا للمنجي هذا الأمر.

يتمتع منجي المبروك بخفة دم نادرة وكأنه مصنع للضحك ينتج كل أنواع السخرية، وحتى شكله الخارجي كان منسجما مع روحه المرحة الساخرة بقامته النحيفة الطويلة ووجهه الوسيم الذي يتوسط رأسا صغيرة لاتتوقف عن الحركة. جمع جسده الجمال والقبح في نفس الوقت وحملت روحه تصميما متواصلا على تخطي كل الحواجز بالضحك، والحيل الصغيرة والانحناء وقت الحاجة على طيبة حقيقية لهب للمساعدة في كل وقت، ولكن هذه الصفات لم تكن تقنع الممول الذي استمر فى تصنيفه كمواطن تونسي يتدخل في الشئون المحلية للبلد، ويبدي آراء تخل بوضعه كضيف على الدولة، ويجب التفكير في حالة

تغير النظام جديا في محاكمته كمحتل يمتلك مزرعة لايجب أن تمنح إلا للمواطنين، وزاد من حنق الممول - إضافة لمنافسة المنجي له في التنكيت وخفة دم التعليقات - أن المنجي عبر بهذه المواهب إلى قلب فتاة من عائلة عريقة أقنعت بدورها أهلها فتزوجته، وانتقلت معه إلى المزرعة الصغيرة. هذا أمر اعتبره الممول عملية تنويم مغناطيسية نتيجتها عودة فتاة من المدن إلى الفلاحة، ورغم ان هذه النظرة لم تكن من ثقافة الممول إلا أنه كان يصر عليها فيما يخص المنجي المبروك، الذي كان مجرد وجوده يدفعه إلى التخلي عن الكثير من روح التسامح، والمعارف التي تحصل عليها من أسفاره وتجاربه، فهو فى هذا الموقف كان ينسى كل شيء وتتلبسه روح دون كيخوتيه يعتقد خلالها أن الدفاع عن البلاد أولى من كل شيء آخر. في الواقع الحقيقة التي تكمن وراء هذا الموقف من المنجي مردها للمرارة التي يشعر بها الممول جراء المظالم التي تعرض لها، واعتبر أن سببها كل هؤلاء الذين زحفوا على مدينته واستباحوا كل منجزاتها عبر التاريخ، معتبرا أن المنجي من أهم ممثليهم وبالأحرى ممثلهم في الورشة، وبعض الجلسات ذات الطابع الثقافي التي تعقد بين حين وآخر.

مر علي بالمحلة في الخامسة مساء حكيم بركة، اتصل ظهرا ليخبرني بمروره علي. حكيم في الأساس مخرج مسرحي خريج دورة في الهجر ترك المهنة وفضل العمل في شركة الغزال العربي الحكومية لنقل الركاب بين المدن. وظيفته في المكتب الإعلامي للشركة. يقدم أعمالا فنية في فترات متباعدة. يسكن فى تاجوراء على ضواحي طرابلس ويأتي للورشة بانتظام تقريبا كل خميس، حيث يقضي السهرة مع الموجودين. قال إنه يريدني في موضوع عمل، وعندما التقينا تبين لي أنه مكلف من الشركة بانجاز شريط تسجيلي يحوي مجموعة أغان وفقرات نثرية بقصد تسلية

الركاب في الرحلات الطويلة، وعمل دعاية إضاقية للشركة. عـــرض علي كتابة كلام الشريط مقابل مبلغ معقول. سألته لماذا لايفتح السائق المسجل أو الراديو للمسافرين، فقال إن المدير يقول بأن زمن الرحلة في المتوسط عشر ساعات والكاسيت المنتظر يغطي ساعة ونصف ليغطـــي بداية الرحلة. شكرته على عرضه الذي سيوفر لي مبلغا ماليا ســـيأتي في وقته مهما تأخر، وسألته عمن سيكون قارىء التعليـــق في الشـــريط فأجاب:

– ساسية حديد.

كانت ساسية حديد الوجه الرئيسي لنشرة التاســـعة والنصـــف بالتلفزيون لسنوات قبل أن تنسحب للراديو. تملك صوتا رخيما هادئا. في الواقع هي لم تنسحب بل سحبت للخلف بعد قصة شهيرة، كانت على علاقة مع ضابط كبير من ضباط الثورة، وكانت العشيقة الرسميـــة له فترة من الزمن تلتقيه في بيت مخصص لهما يقع علـــى حافـــة حـــي السراج، قبل أن يصبح حيا مكتظا بالأغنياء الجدد من ضباط الجـــيش والأمن وكبار قادة اللجان الثورية. كانـــت ساســـية تتميـــز بجمـــال كلاسيكي خارق. العينان الواسعتان والشعر الطويل، والمؤخرة البارزة والبشرة الخمرية، ويتوج كل ذلك بعنق مرمـــري يشـــبه عنـــق وردة الجزائرية.

في ذلك البيت تشهد أوقاتهما أنواعا من الحب والتسالي. كانـــت المذيعة تمسك فيها بذكر الضابط الكبير كأنه مايك وتبدأ في قراءة نشرة أخبار داعرة، بينما تلامس شفتاها الحشفة بين الجملة والأخرى، قبل أن تطبق عليه في نوبة من العشق المحموم، وعندما تسربت أخبـــار تلـــك النشرة التي كانت تسخر فيها من كـــل الأخبـــار الـــتي تقـــدمها في التلفزيون، عاكسة إياها لقالب من أخبار فضائح الكبـــار وأســـرارهم

الخاصة التي كان عشيقها يخبرها بها. اختفى الضابط فجأة من الصورة ولم يظهر بعد ذلك، وتم سحبها من التلفزيون لتعيش على الهامش فترة قبل أن يتوسط لها وتعود للراديو مع تعليمات مشددة أن لاتقرب نشرة الأخبار.

ناقشت حكيم فيما خطر لي حول طلبه واتفقنا على الخطوات والمدة التي يجب أن يسلم فيها العمل مكتوبا، وخرجنا سويا في السادسة نحو مصدر لبيع البوخة نتعامل معه عادة اسمه زوبيل في حي فشلوم العريق جنوب وسط المدينة من ناحية الشرق. وصلنا هناك مع المغرب وهو الوقت الذي تنشط فيه حركة البيع. أوقفنا سيارتنا في ركن يرانا فيه زوبيل وجلسنا ننتظر في صمت. كانت بعض السيارات تمر في الزقاق الضيق حيث يقف زوبيل يناول الطلب لليد الممدودة من النافذة، قبل أن تمضي السيارة من جديد بينما يوقف البعض سيارته بعيدا ويأتي على رجليه ويتبادل بعض الجمل معه قبل أن يأخذ غرضه. هؤلاء هم عادة الزبائن المميزون إذ تعتبر العلاقة مع بائع البوخة من العلاقات ذات الشأن. توجه نحونا زوبيل أول ما سنحت الفرصة، وتحدث معنا قليلا قبل أن يعود ليجلب لنا طلبنا. علاقتي بالزوبيل جيدة منذ سنتين تقريبا. عندما مررت عليه مع الناهي ووهاب واشترينا منه خمس لترات بوخة. عاد بالحقيبة الصغيرة التي أعطيتها إياه وبها البضاعة، وعندما وصلنا مكاننا اكتشفنا أنه نسي النقود داخلها. ربما بسبب كثرة الزبائن في ذلك اليوم. أثناء السكرة توزعت الآراء حول النقود وطالب بعض الحاضرين التصرف فيها على اعتبار أن زوبيل لايعرف بالموضوع، ولكن أنا ووهاب والناهي أصررنا على إرجاعها له، وهكذا كسبنا صداقة الرجل وصار يخصنا بالبضاعة الجيدة وينصحنا أين نجدها مع توصية خاصة عندما لا تكون عنده.

أخذنا شربنا وتوجهنا نحو الورشة في الطرف المقابل من المدينة، وهناك وجدنا وهاب الذي استلم البضاعة وأجرى اللازم لإعدادها للتناول، بينما كان ناصر مشغولا بإعداد المزة وجلسنا بجانب سوف والمنجي وصديق لناصر يملك المحل المجاور، والتحق بنا بعد قليل الممول وصلاح الكاشف وخليل فيتور الذي جاء من بنغازي لمتابعة بعض أمور المجلة. بدأ وهاب فى تدوير الكأس الصغيرة دورات سريعة حتى نصل لحالة معقولة ننفصل فيها عن أحداث النهار. كانت هذه طريقته قبل أن يبطيء في التوزيع بعد ذلك للراحة، وإعطاء فرصة لمن يريد أن يدخن من سيجارة الحشيش، وهو مافعلناه أنا وهو والممول والكاشف وشاركنا المنجي بعد ان أخرج بدروه قطعة حشيش، ورمى بها على الطاولة اتقاء لمناكفة الممول أما سوف وخليل فبقيا في انتظار تجدد الدور يراقبان بهدوء.

سأل ناصر عن أحوال المجلة.

- **ماشي حالها..مارأيك انت؟ رد عليه الكاشف متسائلا بدوره.**
- **بالنظر إلى عمرها حققت أكثر من المتوقع.**
- **الأعداد الأربعة التي صدرت حتى الآن متميزة وسمعت بأنه ليس لها مرتجعات. عقب سوف الذى كان مطلعا على ما يجري ولكنه اراد استمرار الحديث فقدم هذه المساهمة التحريضية.**
- **نعم، لامرتجعات تذكر. قال خليل وهو يحرك عكازه، لكن المشاكل تكبر مع كل اصدار.**
- **كيف؟ قال ناصر.**
- **كما تعرف، ملف العمارة الناقصة فتح العين علينا ثم جاء عدد التعليم الذي أثار حنق العديد من المسؤولين ورغم اني نصحت بالتعقل إلا ان اصدار عدد حوادث السيارات فاقم المسألة إضافة للمقالات التي تخضع في كل مرة لتأويلات مزعجة.**

- لا أريد ان اكون متشائما لكن أرى ان عمرها صار قصيرا، تدخل المول ضاغطا بحذر على الكلمات.
- للأسف مهما نكن حذرين فلا مفر من أن ينهز عش دبابير هنا أوهناك. قال وهاب الذي كان يداعب فوهة القنينة بأصابعه.
- نعم، عقب سوف، البلد صارت مجاميع تربطها مصالح مستعدة للدفاع عنها، وهذا جيد لولا ان هذه المجاميع طفيلية في أغلبها وغير مؤهلة للحكم على الأمور. لها القدرة على التدخل حيال ما ترى أنه يمس سيادتها ومصدر نفوذها وهذا يسير بالمجلة نحو منطقة معزولة بلا أنصار قادرين على المساعدة.
- نعيش في مجتمع لازال يحكم بالغريزة، قال المنجي واستطرد. لازلنا نقضي يومنا في التفكير في المحسوس. الجنس يشكل اغلب منطلقاتنا. نحن شعب يعيش على العادة السرية، ليس فقط بالمعنى الجنسي ولكن هذه العادة صارت تصاحبنا في مختلف انماط سلوكنا. نحن نفكر ونتعامل ونذهب ونعود بشكل سري. إننا بشكل ما مجتمع سري مكبوت ودعك من هذه الاجساد التي تتحرك بشكل ظاهر، نحن مجتمع لامرئي في الواقع.
- صحيح لحد كبير، قال المول وهو يداعب علبة سجائره فوق الطاولة كأنها حجر دومينو كبير. نحن ايضا مجتمع منافق من طراز رفيع نتحدث بشكل علمي في الاماكن الضيقة ونمارس في العلن ادوارا مرسومة لنا بدقة.
- بل اننا نجتهد في إضافة خطوط اخرى لهذه الادوار كي نقفل الدائرة على انفسنا، قال خليل وهو يواصل تحريك عصاه ببطء.

ولأنه ظن أن تلميحه لم يصل في المرة الأولى نظر المول مباشرة للمنجي وقال:

- **تقول نحن، من نحن، هل سألت نفسك عن التقاريرالتي تكتبها بخصوص احوال الجامعة؟ هل اوردت فيها ما تقوله هنا بصوت عال؟ على حد علمي توصيف نحن لاينطبق على كثيرين ممن يقولونه.**

تكهربت الجلسة بعض الشيء فسارع وهاب لسكب الدور من جديد، لكن المنجي استلم الكلام مجددا:

- **انا لا اكتب تقارير بل آراء اسلمها للمسئولين عن الجامعة تتحدث عن الحالة التعليمية ومستوى الطلبة واقتراحات خاصة بهذا الشأن.**
- **لو كان عندك رأي لما كنت الآن تدرس في الجامعة. عقب الممول بعصبية، لكن على من اقرأ مزاميري هذه دولة الأغراب والبدونة والفوضى الشاملة.**

تدخل سوف لوقف المعركة التى كانت على وشك الوقوع:

- **اعتقد ان علينا تخفيف الحدة، فيما نقول ونكتب ونناقش، الأجواء ملغمة بما يكفي.**

وهكذا أنقذت الجلسة لحين وأخذ حكيم بركة الحديث وحكى عن المهرجان الوطني للمسرح، الذي سيستأنف انعقاده بعد توقف طويل، وتساءل إذا ما كانت المجلة معنية بهذا الحدث فيما واصل وهاب توزيع البوخة، واستلمت أنا مهمة تفتيت الحشيش وحشوه في السجائر، حتى همد الحضور وراق المزاج وتقلصت العدوانية وانتقلت الجلسة إلى مزاج مختلف.

كانت جلسات الورشة متنفسا للحديث ومكانا لراحة النفس ولكنها أيضا لا تخلو من شحنات تريد التفريغ بعد أن تفيض على الروح، وهذا يهدد دائما بتحويلها لساحة تصفية حسابات هامشية صغيرة، ولولا وجود سوف الذى يتمتع بسلطات روحية كبيرة على

الحضور، ووهابب الذي يمتص كل الصدمات وهو يلعب دور باخوس المعطاء(إله الخمر عند الأغريق) لكانت جلسة الليلة قد انتهت وهي في بدايتها، أما أنا فبقيت صامتا أغلب الوقت مفكرا في المجلة ومستقبلها القريب وماضيها الطازج. كنا قد أنجزنا ملفا عن التعليم وآخر عن حوادث الطرق انطلقنا فيه مما انتهى اليه وفد ياباني متخصص، أجرى دراسة شبه سرية عن سبب تصاعد أرقام الحوادث وضحاياها. جاء الوفد بناء على تعاون مشترك عن طريق شركات السيارات اليابانية التي تكتسح السوق الليبي. خشيت الشركات عندما قرأت إحصائيات الحوادث على سمعتها، وعرضت على السلطات فكرة إجراء دراسة تبحث في الأمر. قام الفنيون بمسح أجزاء كبيرة من البلد والسيارات والطرق ثم قدم تقريرا بالخصوص. قال التقرير إنه لاوجود لسبب ظاهر وجلي لهذه الحوادث المميتة، فرغم تآكل البنية التحتية للطرق وانتهاء صلاحية جزء من المركبات المستعملة مما يساهم في إرتكاب عدد من هذه الحوادث إلا أنهم لاحظوا أن السائق الليبي يمتلك روحا غامضة، ويكاد يتحول لكائن مختلف عندما يكون خلف عجلة القيادة. كان تقريرا مهذبا يراعي أيضا مصالح شركات السيارات وعدم إغضاب المسئولين المحليين، ولكنه أشار بما يكفي لعامل نفسي يدفع الناس لنوع من الانتحار الغامض، وهو ما حاولت المجلة الإجابة عليه في تحقيقها الذي ركز على العامل النفسي، والضغوط التي تدفع الناس لهذا السلوك الشرس في القيادة، وربطه بالسلوك اليومي في باقي مناحي الحياة. كانت فكرة جيدة نوعا ما واستقطبت قراء كثر والكثير من الأعداء أيضا، الذين ضاقوا بما اعتبروه لمزا موجها للثورة التي تضغط على أعصاب الناس بكل اتجاه. كانوا يتحسرون على موتى الحوادث، ليس لأنهم ماتوا ولكن لأن ذلك تم في حوادث تافهة بدلا من أن يموتوا على جبهات النضال.

عندما عدت من أفكاري كان الممـــول يتحـــدث عـــن ثـــورة الاتصالات وكيف أن أفضل ماحدث هو غفلة السلطات، وهي في عز تشنجها عن منع الصحون اللاقطة للبث الفضائي، وكيف أن هذا البث سيساهم في تنمية الوعي مستطردا:

- **اؤكد لكم أن الكثير من الناس كانوا يصدقون الهراء الذي يبثه التلفزيون الرسمي، ويعتقدون أن العالم يعـــيش مثلنـــا في نعـــيم النظرية العالمية الثالثة، وسلطة الشعب معطلا أشغاله كل عـــام عدة اسابيع لعقد المؤتمرات الشعبية، وتخصيص الوقت لقـــراءة تلك التقارير التي يكتبها بيرقراطيون بلا ضمير، بحجـــة تنـــوير الجماهير وهي تعقد جلساتها لتقرير مصيرها، أما اليوم فقد بدأت العامة تدرك أن هذا الهراء لن يقنع سمكة غبية فما بالك ببشـــر يتابعون ما يجري في العالم، وهم في بيوتهم يشربون الشاى أو حتى البوخة.**
- **فكرة ممتازة ربما علينا أن نتناولها في عدد قادم، نطق الكاشف بعينين شبه مغلقتين.**
- **نعم، لحسن الحظ لم تستفد أجهزتنا من تجربة صدام حسين الـــذى منع هذه البدعة العلمية. علق سوف مؤيدا، فانتشى الممول بهـــذا الكلام وحاول الاستفاضة غير ان خليل قاطعه بلطف خشـــية ان يستمر في موضوع تقارير البيروقراطية واستلم الحديث:**
- **ان ذلك من حسن الحظ، صحيح ان الصحن اللاقط يكلف ثمنـــا باهضا ولكن مع الأيام سيكون سعره في المتناول وتتســـع رقعـــة المشاهدة وتتقلص رقعة الجهل، المعرفة بالشيء هي أولى خطـــوات تجاوزه حتى وان كانت عملية التجاوز بطيئة وساذجة في بداياتها.**

كان وهاب صامتا حتى تلك اللحظة التى رآها مناسبة للتدخل:

- لقد تحصلت على نسخة من جريدة الغارديان وقرأت فيها عن فتح علمي جديد يمكنك خلاله أن تتطلع على اخبار العالم وانت امام جهاز الكمبيوتر اسمه انترنت.
- كيف؟ ارتفعت أصواتنا الفضولية.
- ياسيدي مكتوب ان هذا النظام كان من اكتشافات الجيش الاميركي منذ عشرين سنة، استخدمه في ايصال رسائله السرية وتبادل المعلومات المختلفة ذات الحساسية الخاصة. لا أعرف بالضبط الطريقة ولكن كما فهمت يمكنك ان تقرا الجرائد والكتب وتدخل على المكتبات العالمية وأيضا تبعث ببريدك عبر برنامج خاص ليصل في ثواني للطرف الآخر مهما كان مكانه بعيدا.
- ليحفظ الله النصارى ويسخرهم لما فيه خير البشرية، قال الممول محتفلا بالخبر الذي رفع من معنويات السهرة وهو يفرك قطعة صغيرة من الحشيش قبل أن يمررها نحوي لأكمل تفتيتها.
- اي والله.
- اي والله.

ومن الإنترنيت عدنا للاختراع الجديد الذي اسمه موبايل، كانت أجهزة منه قد وصلت للدولة ومنحت للمقربين، وأخذ من رآه يروي كيفية عمله، وعند من رآه، وهل يستطيع الموبايل الاتصال بالهاتف الأرضي أم لا.

خرجنا من المكان قرابة الواحدة ليلا، كان الجو منعشا حيث داعبتنا نسمات بحريةأ ول خروجنا فأزالت بعضا من الوسن والخدر الذي أصابنا من الكمية الكبيرة التي شربنا ودخنا وتفرقنا كل في طريقه. صعدت مع وهاب وخليل في اتجاه الفندق حيث يقيم. سلكنا شوارع خلفية بحذر حتى كدنا نصل هدفنا عندما أوقف وهاب

السيارة وأطفأ الأضواء وأشار نحو نقطة تتحرك في الشارع نصف المضيء.

ركزت النظر للحظات وأنا اقاوم السرحان والتداعي فرأيت جسدا ضخما يدب بهدوء في سير غير مستقيم تحوطه كتل من السواد بعضها وكأنها تمشي بجانبه. لقد كان العقيد خميس درهوب يقوم بمهمته الليلية في جمع أكياس القمامة من الشارع وتكديسها أمام البيت الذي يقيم فيه مع أمه. كان قد مسح الطرف القصي من الشارع وجاء دور الطرف الذي يلينا فحبسنا أنفاسنا ونحن نراقب المشهد، وهو يقترب منا بقامته المهيبة التي تعتعها السكر الشديد حتى وقف أمام أول بيت في الناحية وتناول الكيس وهو يتجه للبيت المحاذي حيث تناول الكيس الثاني. واضح أنه طور تكتيكا خاصا إذ ربط الكيسين على جانبيه، وسار متناولا اثنين آخرين عائدا إلى باب بيته ليضعهم فوق الأكياس الأخرى التي بدت لنا مرتبة وفق نظام لابأس به، ثم عاد من جديد باتجاهنا، توقف، عندها كتمنا أنفاسنا خوفا من أن يكون قد أحس بوجودنا ولكنه أخرج سيجارة وأشعلها، وسحب أنفاسا متلاحقة ببطء كمن يستريح وسط مهمته قبل أن يتناول أكياسه من جديد ويتجه لنقطة التجميع ثانية.

كان يفعل ذلك كل ليلة بنظام ودقة وترتيب مستمد ولابد من خبرته الطويلة في العمل الأمني، حيث لكل خطوة ترتيب معين يسبقها ويعقبها في سلسلة متعارف عليها حتى يصل لهدفه النهائي.

العقيد خميس ضابط محترف أي أنه ليس من أولئك الضباط الثوريين الذين تخرجوا من دورات سريعة ولهم هدف عقائدي يخص الثورة وحمايتها، لكنه قدم كل خبراته وجهوده في خدمة الهدف ذاته. معروف بقسوته واسمه معروف على نطاق واسع وأعماله كذلك، ومن

يراه في أثناء العمل لا يصدق أنه نفس الشخص الذي يجمع القمامة أمام بيته كل ليلة كما يفعل الآن. على الأرجح يفعل ذلك تحت إحساس من اللاوعي على ما يرتكبه في عمله أو ربما هو عقاب سماوي معجل له في الدنيا. في كل ليلة تنهض والدته لتصلي الفجر ثم تخرج لتفرق هذه الأكياس اللعينة من جديد قبل أن يأتي العمال لجمعها في الصباح. كانت عادة ابنها بمثابة عذاب يومي لها.

أكمل درهوب سيجارته واستعد لمواصلة مهمته الليلية التي يأمره بها السكر الشديد وتعذيب ما تبقى من ضمير.

- **مسكينة الوالدة. قال خليل متنهدا.**
- **مسكينة البلاد. رد وهاب وهو يتنفس بعمق.**

وواصلنا المشوار.

دخلت فندق باب البحر الواحدة ظهرا بناء على موعد مع حكيم الذي سيأتي رفقة ساسية حديد للاتفاق على بعض التفاصيل. جلست في البهو الكبير أنتظر وسط حركة نشطة لقرب وجبة الغذاء كما حدست. كان هناك جمع من زبائن شبه دائمين. لمحت زيادة الحماص الذي مر على إقامته في الفندق سنوات. انشق عن فصيله اللبناني وشكل تنظيما باسم اللجان الثورية اللبنانية. فضل إدارته من الفندق. كان يتدحرج بجسمه المدور ورأسه المسطح من الخلف باتجاه المقهى الصغير في الركن انتظارا للوجبة، وكان هناك أيضا الشاعر احمد الاسمر وهو خلطة ليبية مصرية سودانية. كان مشروعا لشاعر متميز لكنه غرق في المدح وامتهن العمل الدبلوماسي مكأفاة له على قصائده المتينة التي يلقيها في المناسبات الكبيرة. كان يسير متلفتا في حذر بسبب عقدة دفينة تدفعه للاعتقاد أن الجميع يراقب قامته القصيرة وملامحه القاسية. كنت قد أجريت معه مقابلة طويلة في أيام انبهاري به ومع الأيام بدأت

أسأم من طريقته في التبجح بمعرفته للأشخاص المهمين في البلد، وحديثه المكرر عن الاستشارات التي يطلبونها منه ونميمته المتواصلة لشعراء أحبهم مثل الماغوط وأنسي الحاج. طلبت مكياتا وجلست أنظر حتى جاء حكيم ومرافقته التي لم أرها منذ زمن اختفائها من التلفزيون. اكتسبت لمحة من الخجل الدائم ونظرة مكسورة يصاحبها ارتباك واضح من التواجد في الأماكن العامة.

بقينا حوالي نصف ساعة سألتها خلالها عن نوع الفقرات والفواصل التي ترتاح لإدائها في الشريط المزمع إنتاجه، كما تحدثنا قليلا عن عملها وشاركني حكيم الإطراء والثناء عليها. ظللت أجاهد طوال الوقت لطرد الصور التي كانت تهاجمني في حضورها وتصور لي أوضاعا مختلفة عن علاقتها بذلك الضابط الشرس الذي اختفى دون أن يعرف أحد مصيره بالتحديد.

بعد الموعد توجهت من جديد لمبنى الرابطة بعد ان أحضرت معي بعض السندويشات، وعكفت على تصفح المواد الجاهزة من العدد. فتحت النافذة طلبا لنسمة البحر وشغلت الراديو ثم نزلت للدور الارضي وصنعت كأس شاي وجلبت قنينة ماء بارد، وانهمكت في العمل منتهزا فرصة وجودي وحيدا حتى المساء. كنا قد اتفقنا في الاجتماع الشهري على أن يكون موضوع العدد الرئيسي عن المخدرات بعد نقاش طويل. كانت بداية الموضوع اقتراح من سوف الوداني الذي جلب لنا رسالة رسمية موقعة من ضابط كبير مسئول عن مكافحة المخدرات. يقول فيها بأنه بناء على التوجيهات العليا يطلب من كل وحدة تابعة له العمل على إبقاء الكميات المتوفرة في السوق في المستوى المتعارف عليه، وينبه بشدة على عدم تجاوز هذا القدر في الوقت الحاضر التزاما بالتوجيهات الصادرة. كان الأمر يمثل خبطة

صحفية جيدة لكن في ظروف مجلتنا لم يكن ذلك بالإمكان ولهذا قررنا بداية عدم نشر الوثيقة. كان الأهم هو بقاء المجلة وذلك يكون بمواصلة المناورة الضيقة المتاحة، وهكذا منذ البداية خسرنا الهدف الأساسي من التحقيق وهو البحث عن صاحب التوجيه، والسياسة الحقيقية للدولة تجاه المخدرات وهل هناك توجه بالسماح لها بالدخول ولماذ ومن وإلى متى؟.

انقسم الرأي بين عمل تحقيق عام يتناول الظاهرة وطرق ومنافذ تسربها وتوزيعها، وبين رأي آخر حاولت الدفاع عنه صحبة خليل فيتور شددنا فيه على ضرورة الفصل بين نوعين من المخدرات. الخفيفة مثل الحشيش والبانغو وأخرى تؤدي للإدمان وما يترتب عليه من مآس مثل الهيروين، وقلنا إننا نرى أن الموقف الإخلاقي من الخفيفة يعتبر خطأ شائعا علينا أن نكون صرحاء مع انفسنا، ونعترف به ولكن بعد مداولات طويلة وشاقة اتفقنا على عمل تحقيق عام كلفنا به محررا متعاونا، بعد أن وفرنا له عبر علاقاتنا ما يلزم من ضيوف وحالات إدمان ومعلومات عن المنافذ.

جلست لمراجعة التحقيق ووضع العناوين له ثم قلبت عدة مواد أخرى بينها بعض المقالات، وبعد أن انتهيت من ذلك أخذت مقالة وهاب التي ستكون في الصفحة الأخيرة هذا العدد وقربت الكرسي من النافذة، واضعا قدمي على الطاولة المجاورة وجلست أقرأ فيها لمجرد المتعة الشخصية إذ إننا تعودنا أن لا نراقب ماينشر من مقالات ما دامت موقعة من قبل كتابها الذين عليهم أن يدافعوا عما فيها دون تحميل المجلة مسئولية ذلك.

كان عنوان المقالة (الغربان والبلابل)، تأملته لثوان وعندما هممت بقراءة المتن دخل راضي الشايش حاملا لوحة مغطاة بالجرائد

أسندها على الحائط، وجذب كرسيا وجلس بجانبي. فعل كل ذلك في نفس واحد وكأنني غير موجود ثم حياني بإيماءة خفيفة واقترح الهبوط لوسط المدينة للتجوال قليلا حتى يحين الليل فانسقت لرغبته متأففا لعدم قدرتي على رفض طلبه. لراضي مكانة خاصة عندي رغم أني أفضل إلا أبقى معه أكثر من ساعة في الأوقات الأخيرة، لأن ذلك يشتت تركيزي فهو تقريبا لا يتوقف عن الكلام المسنود بالحركة لشرحه في كثير من الحالات. لكني أحبه وأتفهمه وأحترم ثقافته. ساعدني في تفكيك كثير من الكتابات التي تصعب علي، وهو من عرفني على كونديرا وأخذت معه ما يشبه الكورس الطويل في أغلب كتبه التي ترجمت للعربية. نشأت بيننا علاقة ود خاصة تتجاوز التشنجات التي تحدث بيننا أحيانا.

كانت الساعة حوالي الخامسة عندما اتجهنا لطريق قرجي الرئيسي وركبنا سيارة أجرة سرفيس بعد مشاجرة صغيرة بينه وبين السائق، الذي اقترح أن يضع اللوحة فوق السيارة مع العفش فصال راضي متهما إياه بالتخلف، وتدخل الركاب المستعجلون للوساطة وتم وضع اللوحة في الحقيبة الخلفية، بعد أن تطوع الركاب بحمل ما كان فيها من أغراض. استمررت في النظر باتجاه البحر محاولا عدم محادثة راضي الذي كان يقضم أظافره بقلق، عندما وصلت السيارة المنارة القديمة المحاذية لقاعة الشعب فوجئنا بسيارات كثيرة عسكرية ومدنية معروفة بأنها مملوكة للأمن. نزل منها على عجل أفراد من كتيبة أمنية لوقف السير وصف السيارات على اليمين وإنزال الركاب ودفعهم باتجاه البحر، وتمت السيطرة في دقائق على المكان. انتحيت جانبا مع راضي الذي أصر على سحب اللوحة معه رغم كل محاولاتي لجره بسرعة بعدما أصيب الجميع بالجنون، وعندما وصلنا إلى الحاجز الإسمنتي الصغير

على حافة الشاطىء تسلقناه وارتمينا خلفه، ونحن لا نكاد نملك الجرأة على النظر من خلال الفتحات الموجودة في السياج.

بعد دقائق من الهرج بدأت أصوات متداخلة كأنها هتاف متقطع يأتي من طريق قرقارش الموازي، وما إن سمع الجنود ذلك حتى أخذوا وضع الاستعداد بينما كان بعض الضباط يتحركون بعصبية وفزع، وهم يصرخون بالأوامر. كنا نجهل تماما ما يحدث حتى همس أحد المختبئين بجوارنا قائلا إن جمهور الكرة غاضب لأن مباراة المنتخب تم الغاؤها في اللحظة الأخيرة. أعلنت مكبرات الصوت عن ذلك لعشرات الآلاف من الجمهور المتحمس الذي تلقى خبر الغاء المباراة ومنح نتيجتها للفريق الضيف دون سابق علم بغضب كبير تصاعد عند الخروج من الملعب، ونشأت حالة من الهياج العام توجه على إثرها جزء من الجمهور نحو وسط المدينة على الأقدام، وعلى وقع الأصوات المنددة، سرعان ما تحولت تلك الأصوات إلى هتافات سياسية وصل خبرها فورا إلى الجهات المختصة، فسارعت لقفل الطريق بهدف تشتيت الجمع قبل وصوله للساحة الخضراء التي كان اسمها ميدان الشهداء.

في لحظة بروز التظاهرة التي كانت تهلل بمختلف الأصوات رافعة أعلام المنتخب وصور لاعبيه، وشارات النصر من الكوبري الصغير بجانب قاعة الشعب، تقدم ثلاثة أفراد من الأمن حاملين مكبر صوت في محاولة لوقف الزحف المجنون، وتحذير المشاركين فيه الذين لم يعيروا انتباها لهذا المحاولة واستمروا في التقدم يشجع بعضهم البعض في جو حماسي على حدود الهستيريا أطاح بالجنود الثلاثة على الأرض، وتناول أحد المتظاهرين مكبر الصوت وأخذ يهتف عاليا ضد السلطات التي تحشر أنفها في كل التفاصيل. عندها وقف أحد الضباط وسط الجنود المرتمين على الأرض مصدرا صرخة حادة أعقبها بأخرى عالية واهمر

الرصاص على المتظاهرين، وتحول المكان لساحة من الفوضى اختلطت فيها أجساد الجمهور الذي كان يحاول الفرار بكل الطرق، ورأينا من خلف الحاجز البحري أحدهم وهو يسقط واضعا يده على بطنه وآخرين يقعون أرضا بعد اصطدامهم أثناء محاولتهم الفرار بأجساد أخرى مذعورة. ساد الرعب في كل اتجاه. الجمهور الغاضب وقوة الأمن المرتبكة ونحن المختفين، وتحول المشهد على صوت الرصاص لمشهد دموي متداخل الأصوات وانتبهت على يد راضي وهي تهزني وعندما التفت إليه بادرني:

- **لو ألقينا بانفسنا في الماء هل سنصل لمالطا؟.**
- **نظرت إليه فوجدته جادا في كلامه فعجزت عن التعليق وكدت أطلق ضحكة هستيرية لولا الخوف الذي جفف حلقي ومنعني من ذلك فأضاف مستدركا:**
- **ولكن اللوحة. ستبتل اللوحة وسأخسر الجهد الذي بذلته فيها.**

وعندها انتبهت لأول مرة للوحة التي كان يمسك بها بقوة ضاما إياها لصدره وعرفت أنه هو من رسمها، وكدت أسأله لأتأكد من ذلك ولكن طلقات أخرى انطلقت أعادتني للواقع، فتلفت مجددا لموقع الحدث وأنا أصرخ في أن مالطا بعيدة ولن نستطيع السباحة نحوها في هذا الظرف.

هدأت الضجة بعد حوالي عشر دقائق، وامتلأ المكان بسيارات الاسعاف والجيش والشرطة، وتفرقت المجموعات التي تكدست في المكان، وواصلت وراضي سيرنا بمحاذاة الشاطىء نحو وسط البلد صامتين لفترة قبل أن ينطق مقترحا أن نقوم بغطسة سريعة ننعش بها أنفسنا، ورغم أني وجدت هذا الخاطر جنونا في لحظة إلا أنني سرعان ما اقتنعت برأيه فانتخبنا ركنا خلعنا فيه ملابسنا وغصنا في المالح ننشد

السكينة، وأحسست بجدوى الاقتراح عندما غمرني الهدوء ومسح البحر الذعر الذي أصابني من هول المشهد.

بعد أن بقينا في البحر الذي كاد يخلو. فترة قصيرة تناولنا ملابسنا وسرنا دون أن نرتديها فى نفس الخط حتى اقتربنا من نهاية الشط وكانت أجسادنا قد جفت في الطريق فلبسنا، وقطعنا الطريق من أمام فندق باب البحر وتفرقنا عند ميدان بورقيبة حيث ذهب الشايش لمكان لم يخبرني عنه كالعادة، وواصلت أنا طريقي إلى السكن الجامعي مفكرا فيما حدث وهل حدث بالفعل؟

عرفت المنطقة العربية العديد من الأنظمة التي اتسمت بالفوضى والعنف، والضربات الاستباقية لمن تعتقد أنه سيشكل خطرا عليها في المستقبل، ولكن ليبيا تبقى حالة فريدة على هذا المستوى، فالعداء للفنون والثقافة المعروفة عن الأنظمة الشمولية أضيف له هنا عداء مكين للرياضة وخاصة كرة القدم، وسبب ذلك يرجع لخوفها المكين من كل تجمع بشري قد يتحول فى ظل ظروف الكبت لحركة عفوية ربما تتطور لعمل سياسي، أو تخريبي يشكل إحراجا للسلطة، أو خطرا عليها إذا ما توسع وشمل فئات أخرى ناقمة وهي كثيرة، كما أن سلطة ليبيا تميزت بالغيرة الشديدة من أي بروز خارج إطارها الخاص، فهي لا تستطيع احتمال أن يصفق عشرات الآلاف للاعب موهوب، وأن يتحدث الناس عن فريق يحقق إنجازا ما في الرياضة وخاصة كرة القدم، التي صنفها المعجم الثوري بأنها لعبة تتسع لآلاف المغفلين، الذين يملأون المدرجات مشجعين مجموعة لاعبين تتركز لديهم الشهرة والمال، ويشار إليهم بالبنان بينما تخوض الأمة والبلد الذي يمثل رأس حربتها معارك لا تنتهي ضد المؤامرات الإمبريالية، التي تولد كل يوم، إنها بهذا المعنى أداة لتغفيل الجماهير والهائها عن هدفها الأسمى، المتمثل في مقاومة كل

المشاريع المضادة للتحرر والاستقلال، والدفع بها للصفوف الخلفية حيث التفرج على تلك المعارك ووصفها كما يصف المعلق الرياضي سير المباراة.

بدا لي أن الليل قد حل سريعا على غير المعتاد، وكي أهرب من تداعيات ما شهدته اليوم فتحت التلفزيون، وأعددت شايا وأشعلت سيجارة. جلست أشاهد القناة المحلية التي لا نملك غيرها في المجمع السكني. كان المتنبي يقدم فقرته المعتادة وهو متلثم بعمامته الخضراء الكبيرة، يروي فقرة هزلية عن قصة شهدها عندما استقل إحدى الحافلات في المدينة، وأطلق فيها ضبا أثار الفزع بين الركاب، الذين صعدوا مضطربين فوق الكراسي هربا من هذا "التمساح" الأسود الصغير. كان يروي القصة ويقطعها بضحكات حادة، وتعليقات مرة تسخر من المدن القادرة على إفساد الطبيعة البشرية، حتى إنها تحسب الضب تمساحا. يصدر بين الفينة والأخرى أصواتا مفزعة مقلدا بها ما حدث، ويمطر الكاميرا بأبيات مرتجلة تشيد بالبادية وتقاليدها العريقة التي تصنع الرجال الحقيقيين:

"تريس اللي تأكل في الضب عوينه في كمه مصرور، مش خوخ ويوقا وعنب ورأسه كيف أخته مضفور" أي أن الرجل الحقيقي هو من يأكل لحم الضب وزاده مصرور في أكمامه دليل الحذر والنباهة، ولا يأكل الخوخ والعصائر والعنب، وشعر رأسه مثل أخته مضفور".

1

طرق مصطفى الباب حوالي العاشرة صباحا بحجة أن اليوم مشمس، وعلينا الذهاب للغابة الصغيرة حيث سيلعب الآسيويون الكريكت، وسيريني بعض الحركات الصعبة التي لا يقوم بها إلا لاعب

محترف مثله في التاكواندو كما قال. قمت متكاسلا وتشطفت بسرعة تحت ايعازاته المتتالية. تناولت قطعتي بسكويت على عجل من فوق الطاولة وخرجت معه شبه مجبر. عندما وصلنا باب القاطع لمحت عالية رفقة الحبر وسمر الصومالية وجو يصعدون الحافلة المتجهة نحو المدينة، فتذكرت ليلة البارحة التي قضيتها في غرفتها. أحسست في وقت متأخر من الليل بكتلة من لحم ساخن تضغط برفق على منتصفي وتتحرك ببطء في شكل دائري صغير. استيقظت رغبتي. أبذل جهدا في محاولة تذكر أين أنا، وعندما عرفت مكاني تحركت قليلا معدلا من وضعي وضاغطا باتجاه تلك الكتلة الساخنة داخلا فيها برفق حتى وصلت البوابة حين قاومتني قليلا قبل أن تفرج عن ثنيتيها بما يكفي للدخول. عندما أحسست بحرارة اللذة مسكت بكتفها جاذبا إياها نحوي لأ تمكن منها، وبقيت كذلك لحظات قبل أن تحرك مؤخرتها الملساء في هزات متتالية على صوت تأوهات ناعسة من كلينا، قبل أن نقع في النوم من جديد...

مضينا إلى الساحة الخضراء المرمية بجانب الغابة الصغيرة، حيث كان تجمع الآسيويين يلعب الكريكت مطلقين صرخات عالية في سماء شمس مارس، التي أجبرت الغيوم المتبقية على التراجع وإن سمحت ببعض البرد الخفيف. أخذني مصطفى من يدي خشية أن أطيل التفرج على المباراة التي لا أعرف قوانينها، وانتحى بي جانبا طالبا مني الجلوس على عتبة صغيرة ومراقبة ماسيفعله. اتجه هو إلى حيث وضع سترته الرياضية وأخذ في ممارسة عدة حركات للتسخين، قبل أن يتجه للخلف ويعود راكضا بقوة للأمام ثم يقفز في الهواء مثل لاعب جمباز، واضعا يده اليمنى تحت جسده ثم ملتفتا إلي طالبا الرأي فيما شاهدت. كانت الحركة عادية وتشبه تلك الحركات التي يؤديها طلبة المدارس الأبتدائية

فى حصص الرياضة، ولكن مصطفى كان مصرا على فرادتها معيدا إياها عدة مرات مما أضطرني لإظهار اعجابي الكبير بها طلبا للخلاص، فأنضم للتبة وجلس مخرجا لفافة وطلب مني اشعالها. ترددت لحظة لاني لا أحب التدخين في النهار وبالذات صباحا ولكن فعلت ذلك لأنه لم تكن لدي طاقة للمجادلة، وهكذا تبادلنا الأنفاس ونحن نتحدث ثم اقترحت عليه القيام بجولة مشي في الغابة للاستمتاع بالهواء النقي المهم للرياضيين أمثاله، فوافقني الرأي وبدأنا المشي وعندما التقينا بعد قليل بشابين من المركز يتمشيان مثلنا انتهزت الفرصة بحجة التبول، وتسللت مبتعدا نحو البرج الخشبي الذي صعدته، وجلست أتأمل المنظر من عل..

فى الليل قادتني قدماي إلى غرفة الحبر حيث قضيت وقتا جيدا، حتى عرفت بالصدفة من خلال أحاديث الحاضرين أن عالية قد انتقلت لمركز لجوء من الفئة الثانية المخصص لما بعد الاستقبال. بالكاد تمالكت نفسي متذكرا أن لا أحد يعرف بالعلاقة الخاصة التي تربطني بها. مر أمامي مشهد الصباح عندما كنت خارجا مع مصطفى حيث كانت عالية مع الحبر وعثمان وآخرين، وأدركت الآن أنهم كانوا فى وداعها. خرجت من الغرفة بهدوء وأنا غارق في أفكاري حول رحيل عالية الذي بدا لي أنه قاس وبشكل ما مهين. إذ صعب علي أن أجد تفسيرا لعدم معرفتي عن طريقها بذلك. تذكرت ليلة البارحة التي قضيناها معا وكيف كانت عالية لبؤة شرسة تريد أن تمتلك كل شيء فى ذات اللحظة. كانت تعض وتلحس. تربت وتقبل. تدفع وتجذب. تقود وتنقاد. كانت كل هذا وأكثر حتى أنني خلت فى تلك الأوقات أننا باقون بطريقة ما مع بعض للأبد، وأن ما من فراق بقادر على تهديد شراسة ولذة ما يحدث في هذه الغرفة قريبا من الجميع، وبعيدا عنهم فى نفس الوقت.

رحيل عالية نبهني إلى حقيقة كنت غافلا عنها وهي أنني سأغادر المركز مثلها ذات يوم. التفت حولي وكأنني أرى الأشياء على حقيقتها لأول مرة. لقد مضى على وجودي هنا خمسة أشهر وهو زمن يتجاوز الوقت الذي يقضيه اللاجيء عادة في مركز الاستقبال. غادر زاد منذ شهر وجاء مكانه شاب أفغاني يرتدي الزي التقليدي حاملا معه مسجلة مهترئة، وشريط كاسيت لمطرب من بلاده بالكاد تتعرف على صوته من جلبة المسجل، كما غادر سعيد منذ أسابيع وحل مكانه لاجيء من سيرلانكا يحب الببسي كولا والإستلقاء على سريره يتأمل السقف لساعات طويلة تدفع المرء للجنون، وحتى بوجواد غادر بعد أن تحصل على لجوء سياسي، وخصص له بيت في مدينة دنبوش، ولكني لم أشعر بكل ذلك سابقا لأن عالية وبوهدى وبوآثار كانوا لا يزالون في المكان يخففون من وحشته ويشعروني بالتوازن.

علي أنا أيضا أن أستعد للمغادرة في القريب، ويجب أن أحرص على أن تكون مغادرتي بسيطة بعيدة عن أية شحنات عاطفية، ففي النهاية نحن كلنا سنمر سريعا بهذا المكان، ومن الحكمة أن لا نتورط في علاقات تدفع بنا للارتباط بأي شكل به. يجب أن أكون دائما متخففا من الأحمال ومستعدا للعبور نحو النقطة التالية في هذا الخيار الذي تبنيته، وقررت أن أكونه ويكونني، لقد أيقظتني عالية بمغادرتها وعلمتني أكثر مما تعلمت في حضورها الذي كان مفعما باللذة والنسيان والارتباط.

لم يعد المركز يعني لي الكثير بعد مغادرة عالية وأخذت أوطن نفسي على مغادرة ابوهدى وآبوثار معيدا قراءة المكان وظروفه، وكي أغير هذه الأجواء قررت على الأقل أن أتخفف شكليا فمضيت للقاطع الرابع حيث يقوم عمر البنغلاديشي بحلاقة زبائنه في فسحة باب منتصف البلك مقابل خمسة خلدن. جلست على الكرسي البلاستيكي

الأبيض بعد أن لبست كيس القمامة الأسود الذي يشقه عمر من الجانبين لزوم دخول اليدين، فيصبح شبيها بملحافة الحلاقين. أغمضت عينيي بينما كان عمر يحدثني عن قصة حبه المضطربة مع البنت الأفغانية التي تقطن قاطعي. البنت الوسطى في العائلة التي جاءت من السعودية.

عمر يعتبر محظوظا إلى حد كبير مقارنة ببقية اللاجئين هنا، فقد تبنته سيدة من أصل بنغلاديشي تعمل موظفة في المركز، وخصصت له غرفة جميلة أراني مرة صورا لها، حيث بدت مليئة بالألعاب الإلكترونية وكمبيوتر حديث، كما اشترت له دراجة نارية جيدة، ولكن مع هذا يبدو غير سعيد لأن المستقبل لا زال مجهولا بالنسبة له، ففي حال عدم حصوله على قرار بالموافقة على بقائه في هولندا تصبح كل هذه المكاسب في مهب الريح، إضافة لما خلقته قصة حبه للأفغانية المتمنعة من اضطراب في شخصيته الهادئة البريئة. انتزعت منه الغربة المبادرة في التعبير مباشرة لها عما يدور من انهيارات بقلبه كلما يراها.

كان يأتي كل يوم في النهار يسجل حضوره ويبقى في المركز متحينا الفرص لرؤية محبوبته، قبل أن يعود في الليل لينام في غرفته الوثيرة، وبين هذين الواقعين المختلفين كان داخله يترنح بين الأمل واليأس. أغمضت عيني بينما كان عمر يواصل الكلام على وتيرة تكتكة مقصه مفسرا لي أسباب عدم رغبته في العودة لبلده. راسما صورة مقززة للشوارع المليئة بالبراز وطوفان المياه الذي يأتي مرات كل عام، فيذهب بما تم إصلاحه بسبب سيول العام الماضي. تاركا بركه الطينية اللزجة في كل مكان. مصرا على عدم العودة لتلك الأرض المبللة حيث تهاجم حشرات شرسة الناس وتترك بينهم ضحايا حقيقيين.

زادني حديث عمر كربا فأخذت دراجتي وخرجت نحو الغابة. ركنتها جانبا وتمشيت لبعض الوقت، وعندما هبت ذكريات عالية في

البال ركبت من جديد، ومضيت أتجول فى المنطقة الخلفية بدون وجهة معينة حتى خطر لي أن أتجه لوسط المدينة، حيث بقيت هناك أقود من شارع لشارع دون هدف محدد. أسرع وأبطيء حسبما تدفعني إليه مشاعري الجياشة، وبعد أن هدأت نفسي واستعدت سكينتي عدت للمركز للعشاء، ثم لغرفة بوآثار حيث أمضينا الوقت فى لعب الكونكان.

مضت الأيام بطيئة ومكررة حتى اليوم الذي تبلغت فيه بموعد مغادرتي للمركز نحو مركز آخر يقع في قرية بأقصى الشمال الهولندي، وعندما اطلعت على قائمة المغادرين وجدت أن جاد الأفغاني الذى يقطن مع بوهدى سيكون معي في نفس الرحلة. قررنا أن نذهب معا فى اليوم التالي، وانهمكنا سوية في إتمام الإجراءات الخاصة بذلك وتحصيل تذاكر القطار والتاكسي ودراسة الخريطة التي زودنا بها موظف الإدارة وعدت للغرفة في وقت متأخر بعد أن ذهبت للكوفى شوب مع مصطفى وخلدت للنوم سابحا فى بحيرة من الخيال.

2

يحيى

مشاغل العمل في المجلة ودخول يحي لمجال الهيروين جعلت من لقاءاتنا متقطعة ومتباعدة. كنت أزوره فأجده أحيانا فوق السحاب بفعل الجرعة التي تناولها. عيناه شبه مغمضتين. غارقا في الموسيقى والتحليق، وأحيانا أجده في فراشه بركن الغرفة، يعاني من رعشه خفيفة في جسده كأنه "بردان". أعرف حينها أنه في واحدة من توقفاته عن التعاطي التي يكررها كل بضعة أسابيع كي لايقفل باب الرجعة. في إحدى المرات وجدته مرتديا البدلة العربية البيضاء جالسا مع شخصين آخرين قدمهما لي على أساس أنهم من طلبة العلم، لكني اعتبرت الأمر عاديا حينها، إذ كيف يخطر في بالي أن إنسانا مثله سوف ينضم لخلية تتبع مجموعة إسلامية مسلحة، فمثل هذا العمل كان بعيدا على تفكيره كما ظننت، لكني الآن أصبحت أكثر معرفة بدوافعه الحقيقية التي جعلت منه يصحو بتلك الحدة، ويتجه نحو الجهة الأخرى كمتشدد مما لا يخالف تماما طبيعته التي أعرف.

كانت جماعة يحيى الجديدة طائفة من الخلق ظلت متماسكة داخل هذه الأرجوحة الكبيرة التي تحولت إليها المدينة. كانت جماعات من الشباب تكبر في الخفاء كل يوم. يسيرون ناظرين إلى الأرض بثبات. يتشابهون بملابسهم البيضاء اللامعة المقصرة السراويل، ولحاهم النامية

بإهمال. يربطون أصابعهم بخيوط مدلاة من الشبابيك يهزونها كالسنارة وهم في طريقهم لصلاة الفجر. يتلقون العلم الشرعي من أشخاص جاءوا خصيصا بعد أن شاركوا في معارك الجهاد في أفغانستان ضد الإتحاد السوفياتي الملحد، وعلموهم عادات جديدة بسرعة فائقة، فأخذوا ياكلون ويصلون ويتحدثون ويتزوجون بطريقة واحدة مختلفة عما عرفه وألفه سكان المدينة. يختفون من بيوتهم لأيام قبل أن يعودوا للظهور مارين قرب العامة بسرعة وصمت، وهم في منتهى الحذر من اللغو والإسراف في تبديد الوقت على غير الطاعات، وقد سبق واتخذوا القرار ولن يفيد الحديث مع أحد في شيء. يعتمدون في تدبر أمورهم اليومية على نظام بدائي بسيط أي شي فيه يفي بالغرض. كان واضحا أنهم غادروا الدنيا بعد تجارب خائبة وغير ذات شأن، ووضعوا أرجلهم على أول الطريق الذي عليهم أن يسلكوه من أجل الوصول للجنة مباشرة، لتخليص أرواحهم المعذبة بفهم الأشياء بطريقة برئية وخطيرة في آن واحد.

لم يكن يحيى يعتقد بما يفكر به أعضاء مجموعته، ولكن قراره جاء بهدف إنهاء مسار حياته الخائب، والعمل على الانتقام من الثورة التي دمرت مستقبله. كان يريد أن يرد الصفعة لتلك الأعمال العدائية التي جعلت منه ومن آخرين كثر موهوبين مثله مجرد كائنات هشة تجلس أمام منازلها منتظرة القدر والنصيب. لم يفكر لثانية واحدة فيما سيحدث لو أن هدف المجموعة التي تتبعها خليته قد تحقق، وكيف سيكون شكل الحكم؟ وماهو دوره عندئذ؟ لم يخطر على باله شيء من ذلك لأنه لم يكن يهتم إلا بالخطوة الأولى التي تخص القتال. كان يريد أن يطفيء تلك النار التي لم يستطع حتى الهيروين القضاء عليها. قرر يحيى أن يتغير. أن يتمرد على حقيقة الخيبة التي ألمت به بعد فشل

مشروع هجرته لبريطانيا، ودخوله السجن بتونس لأشهر طويلة. لقد فاض الكيل به وقررأن يخرج للقتال و لم يكن يهتم مع من. هناك شيئ ما في جوفه مثل نار التنين يريده أن يخرج للعلن، ومن أجل تحقيق ذلك تكيف مع قوانين خليته، وواظب على واجباته وتدرب جيدا وبقى متجنبا النقاشات النظرية، لأنه غير معني بها. ما يهمه هو النزول للميدان وتنفيذ المهام على أرض الواقع. كان قارئا جيدا للتراث ويحفظ الكثير من الشعر وأيام العرب، ولن يجد صعوبة في التكيف مع ما كان يحدث انتظارا لليوم الموعود، وعندما سمعت خبر جمجم وأنا في مؤتمر الشعب العام الطويل ذاك، أدرك أن ذلك اليوم الموعود لم يأت بعد، ففي مصادفة غريبة تزامن موت جمجم واكتشاف أمر خلية يحيى في نفس الأسبوع. كان الأمن قد توصل لمكان مجموعة كبيرة من المجاهدين بعد مراقبة صاحب مزرعة يشتري كميات كبيرة من الخبز كل يوم، وعندما تمت متابعته اكتشفوا أنه يستضيف مجموعة مسلحين، وعند مداهمة المكان نشبت معركة مرتجلة بالكاد أفلت منها مجموعة بسيطة من سكان المزرعة، وعلى الإثر بدأت سلطات الأمن مسحا شاملا لكل المتهمين المتوقعين، وألقاء القبض على كل مشكوك فيه، وفي الطريق تحصلت على معلومات ثمينة ساعدتها في تفكيك بعض الخلايا كما حدث لتلك التي ينتمي إليها يحيى الذي كان من المقبوض عليهم.

بعد فترة من التنقل بين أقبية مظلمة في وسط البلد تم تحويله إلى سجن بوسليم. كان نوع المساجين قد تغير بعد (أصبح الصبح)، فلم يتبق إلا مجموعة صغيرة تقل عن العشرين من سجناء اليسار، والإخوان المسلمين وحزب التحرير الإسلامي. بعضهم تعدى وجوده في السجن عشرين سنة، بينما كان المئات الجدد من السجناء ينتمون للجماعات الجهادية والسلفية المقاتلة ودراويش متصوفة جلبهم حظهم السيء إلى هنا.

تجمع السجناء القدماء في أول عنبرين متقابلين بعد بوابة العنابر مباشرة، وتوزع السجناء الجدد بين الزنازين في بقية المبنى المستطيل الذي تحيطه الأسلاك الشائكة.

تعامل مع التعذيب في أقبية مظلمة كعملية تطهرية تزيد من تصميمه إذا ما خرج يوما من هذا المكان. أذهل جلاديه ورفاقه وحتى نفسه بصموده وسخريته المتكررة التي كان يطلقها من خلف قساوة التعذيب المهلكة، وبعد أن تم تحويله إلى سجن بوسليم حيث الإقامة الطويلة شعر وكأنه قد خرج من السجن، وأستأنف حياته جائلا بين الزنازين في فترات الاستراحة القصيرة كأنه طالب علم حقيقي. لم يفقد معنوياته وظل يقضي فسحته بالتجول بين العنابر والتعرف على هذه المجاميع المكبلة.

استأنف حياته كأنه سيخرج غدا، ورغم أن هذا اليوم لن يأتي أبدا فقد استمر في تحسين لغته الإنجليزية وتمتين معارفه أينما وجد شيئا يضيفه لها. يرى ويسمع ويتكلم بعد أن أخذ مسافة متوازية من الجميع. ليس لأنه لم يعد يؤمن ببرنامج جماعة خليته وهو أمر لم يكن عليه منذ البدء، ولكن لترك خياراته مفتوحة في حالة خرج وبحث عن جماعة جديدة لمواصلة حربه على النظام. كان اسمه قد أصبح معروفا لأن الخطة التي كان يعمل عليها قبل القبض لا تتكرر كثيرا. لقد كان يخطط لاغتيال صديق الزولي، وإذا لم تكن ليبيا فلن تعرف على الأرجح خطورة ماكان يحي ينوي القيام به، ففي تلك البلاد يكفي أن تذكر اسم الزولي حتى يعرف الجميع من تقصد تماما. لا أحد يعرف له رتبته العسكرية أو مكان عمله، فهو ليس بحاجة لذلك. صديق الزولي باختصار هو الرجل الذي يمسك بكل الأمن وهو رجل القائد والثورة في هذا المجال وعمليا هو الرجل الثاني في الدولة. مشهور

بقسوته وغموضه وقيادته لفرق التصفية الجسدية وكل ما يلزم لحفظ الأمن.

كان يحيى قد لاحظ أن صديق الزولي يمر من جانب بيته أكثر من مرة في الأسبوع. كان على الأرجح يأتي من أحد مباني القيادة في الخلف ويتجه نحو طريق الشط حيث يوجد مركز رئيسي للأمن. يفضل هذا الطريق الفرعي الذي يدور على الطريق العام وينفذ بك إلى شارع الجمهورية، وكان الزولي كما فهم بعد المراقبة يستخدم أكثر من زقاق يبادل بينها للوصول إلى شارع الجمهورية، وكما توقع صار الزولي يستخدم زنقة الشيخة راضية حيث يسكن يحيى أكثر من غيرها لأنها تكاد تكون شارعا شبه رئيسي. يبدأ من ساحة المتحف الإسلامي وينتهي في شارع الجمهورية مقابل عمارة مؤسسة الصحافة، ومع مرور الوقت صار موعد الزولي شبه معروف. يمر بين الرابعة والخامسة عصرا بسيارة غولف صغيرة رصاصية بنوافذ ملونة، فمثل ما ألف هذه الزنقة اختار مع الأيام هذه السيارة، فهي مريحة وقوية وقادرة على المناورة في الأماكن الضيقة، ولأنه كان يمر بلاحماية كما اكتشف، فقد كانت الخطة تتكون من جزئين فقط: الاستعجال في الحصول على بنادق رشاشة، ثم قطع طريق الزولي واغتياله ما إن تصل الموافقة من قيادة الجماعة التي أصر أفراد الخلية جميعا على الحصول عليها أولا، فكانوا السبب الرئيسي في بقاء الزولي على قيد الحياة..

هذه الخطة لم يقدر لها النجاح بسبب القبض عليه مع أفراد خليته، لكنها أضفت عليه مسحة من الاحترام والتقدير بين قيادات المساجين، وصار يرحب به في المجالس العلمية في كل الحلقات، بما في ذلك حلقة الدراويش الذين أقاموا معه علاقة وطيدة. كان وجودهم في السجن محض سوء حظ، فقد كانوا مجتمعين بملابسهم البيضاء ذات ليلة يقيمون

فيها حضرة عندما مرت دورية أمن واعتقلتهم جميعا على الشبهة، ومر وقت طويل قبل أن يكتشف الجميع أنهم فعلا طارئون، وفات الوقت على إطلاق سراحهم بعد أن رأوا كل هذا يحدث في السجن، بل محتمل أيضا أن يكونوا قد أصبحوا خطرين على الخارج ويستحسن بقاؤهم في السجن بعد أن تعلموا كل تلك الخبرات من المساجين الحقيقيين، أما الدراويش أنفسهم فلم يبد عليهم أنهم أدركوا ما حدث أو ربما لم يهتموا به أصلا، واستمروا في مدائحهم وأورادهم وتمتماتهم في ركن المكان القصي. يمارسون ذلك بحذر وقلق، فثقافة الجهاديين والسلفيين عموما لا ترحب بالدروشة في الإسلام.

وهاب

- زويتة

قال وهاب ونظرت أنا للبحر الذي كان أمامنا من جديد، كان يبدو كواد من الزيت يترقرق في هدوء وانسيابية، وهو يلمع تحت بؤر الضوء التي تصله من الشارع. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية ليلا ونحن في بلكونة الرابطة بقرجي في ليلة صيف طرابلسي رائقة. فرشنا مائدة من سندويشات الشاورما وعلب الببسي وكيس بوخة وقطعة حشيش، ثم خلعنا الأحذية وجلسنا على أرضية البلكونة في مواجهة البحر. كان وهاب مثلي مخنوقا وغير مرتاح، زاد ذلك متاعب سببها له مقاله (بلابل وغربان) الذي كدت أن أقرأه لولا دخول الشايش يوم حادثة جمهور كرة القدم التي اختبأت بدورها في مكان ما من ذاكرة الناس. المقال كان بحثا سريعا في السبب الذي يجعل الطعام المفضل للغربان هو البلابل وأعشاشها، وتساءل لماذا يكون ذلك وهل تسعى

الغربان لاكتساب صفات البلابل بالتهامها وإحلالها داخلها، ثم ختم بجملة صارت تتردد لفترة في الأجواء:

- **لن تستطيع الغربان أن تغني ولو التهمت كل البلابل التي على الأرض..بل بلابل الفضاء أيضا أن وجدت.**

كان وهاب يعرف أنه لن يستمر في الوضع الحالي طويلا، ولكنه كان لا يفضل فكرة السفر لأوروبا لأنه يعرف أنها اختلفت كثيرا على ما كانت عليه أواخر السبعينات عندما درس فيها. لا يريد أن يبدأ من جديد في بيئة مختلفة، وكان لا يرى أفقا في وضعه الحالي ويعرف أن عليه تغييره لانقاذ روحه وموهبته.

- **زويته..ولد الكلب..، علقت بعد أن مسحت بنظري ما توفر لي من رؤية البحر من خلف قضبان البلكونة التي نضع عليها أقدامنا الآن. تعرف! – استمر وهاب في الكلام – الموضوع كله يمكن اختصاره في قصة هذه الفيلا اللي قاعدين في بلكونتها توة..**
- **كيف؟.**
- **يعني زي ما انت عارف الفيلا هذه اشتراها رجل أعمال لزوجته الشامية التي تحب الكتابة وتريد أن تصبح كاتبة. كانت تتنقل في أرجاء البيت الواسع المطل على البحر باحثة عن الكتابة بس بدون فائدة، فلا السيدة الشامية كتبت شيئا مهما قبل أن تعود لبلادها كمواطنة عادية بعد مصادرة الفيلا للصالح العام، ولا نحن حافظنا على المكان الذي تحول لبيت فقير ومتهالك، وجلبنا له الكثير من الأعداء بحيث اتوقع أن تصدر البلدية قرار في وقت مناسب من اجل هدمه وإعادة استثماره من جديد. شوف المفارقة هاذي. نحن الذين ندعوا للحوار وحرية الرأي ونزعم أننا من النخبة. مقرنا يقع في بيت مصادر وعلى الأغلب لم يدفع تعويض لاصحابه بعد أن**

اجبروا على اخلائه، يعني أن الفوضى التي نعيش فيها غير منتجة ولا أفق عملي لها.

تستغرقني المفارقة التي أسمعها للمرة الأولى من وهاب حول البيت المصادر ووجود الرابطة فيه، ففي تلك الليلة أخبرني أنه أصبح يفكر في الذهاب لمدينته الصغيرة وشراء قارب صغير لصيد السمك كما كان والده يفعل، وربما يذهب وهاب لمدينته كما قال لكنه لن يشتري ذلك المركب. أعرف أنه لم ينس أخاه الذي مات غرقا في البحر أمام عينيه. وهاب هو من تبقى من أولاد العائلة الثلاثة. أخ مات وأخ هاجر منذ زمن، ولا أخوات يلطفن بعض هذه القسوة، رغم أنه يسبح جيدا إلا أنه لا يتجاوز مستوى صدره في الماء مهما حدث، ويظل ينظر للبحر بحذر وهو يتمشى أو يجلس لأوقات طويلة يتحدث معه ككائن حي مسئول: لن تغريني..مش ناسي خوي، ماكش صاحبي ومانبيش صحبتك...

كان يمكن للحياة أن تسير بمثل هذا التعسر والتكرار واخفاض سقف التوقعات، لكن كان ذلك لسبب مجهول غير كاف، ففي ظهيرة يوم حار تسرب نبأ بالطريقة التي يعرفها الناس هنا، وهي طريقة شفوية لا يوجد بها دليل ملموس لكنها فعالة وتكاد لا تخيب، ففي يوم صيفي حار من أيام شهر يونيو علم جميع سكان طرابلس وفي توقيتات متقاربة أن كومندوس إسرائيلي قد عبر الحدود وهو في طريقه إلى العاصمة لتنفيذ مهام تخريبية خطيرة، ولأن المجموعة الإسرائيلية قد اجتازت الحدود أصلا و لم يعد القبض عليها أمرا مضمونا، فقد قررت السلطات أن تقلب الطاولة على الكومندوس وتخفي العاصمة ذاتها من طريقه. كان ذلك تحديا كبيرا وشبه مستحيل توجب العمل على تنفيذه البدء فورا ودون إبطاء.

1

يوليو 1997 - هوخ هالن

وصلنا هوخ هالن في حوالي الرابعة بعد الظهر، وهي قرية تقع في محيط زراعي بها زهاء ألف ساكن يتحدثون لغة خاصة بشمال هولندا إضافة للهولندية. كانت الرحلة طويلة بسبب عدم معرفتنا بخطوط المواصلات، فقد كنا نتحرك كقبيلة صغيرة تائهة تسارع لإتباع اي مبادرة من أفرادها عسى أن يكون فيها الفلاح.

كنا حوالي عشرة نمثل الدفعة الأولى من لايدن: أكراد، أفغان وعرب من العراق والمرأة النيجيرية التي تحلق شعر النساء بغرفتها وزوجها. جلست طوال الرحلة بجانب مجيد الأفغاني الذي اتفقت معه يوم أمس على السكن معا، وأخذنا نشجع أنفسنا على التقدم بطلب فور الوصول للحصول على غرفة لشخصين.

وصلنا القطار في النهاية لمدينة آسن ومنها أخذنا سيارات تاكسي مدفوعة الثمن مسبقا واتجهنا إلى مركز طالبي اللجوء الواقع على حافة القرية بالضبط. كان (الآزاتسي) الكلمة اختصار للأحرف الأولى من ثلاث كلمات هولندية تعني مركز طالبي اللجوء- في الأصل معسكرا أميركيا يتكون من قواطع أرضية متفرقة على قطعة أرض خضراء مفتوحة على مساحة أخرى، بها أشجار عالية تفصل بين القرية والمركز. كان المنظر العام جميلا.

وجدنا أمامنا مجموعة صغيرة متناثرة في المكان، وبعد دقائق قال لنا أحد الموظفين أن بإمكاننا أن نختار أماكننا بأنفسنا فتقرقنا سريعا فرحين، وفي الطريق راودتني فكرة التخلي عن اتفاقي مع مجيد وأبحث عن غرفة لشخص واحد ولكن لم أفعل. ليس لأنني صاحب مبدأ ولكن لأني تخيلت الموقف الحرج الذي سأكون فيه إذا ما فشلت في العثور على غرفة، ولعله فكر في نفس الأمر. اتجهت مع مجيد لطرف الآزاتسي الذي يحده سور الشجر الكبير. بحثنا في القاطع الأخير حتى وصلنا لغرفة مخصصة لشخصين فدخلناها ورمينا بمتاعنا في دولابها، ثم اكتشف مجيد أنه لا يوجد بها تلفزيون فخرجت في جولة سريعة وبقي هو يحرس المكان. الغرف التي دخلتها كلها كانت خالية من التلفزيونات. رضينا بغرفتنا وقضينا وقتا في ترتيب متاعنا، ونحن نتبادل جملا متقطعة من لغة لا تستطيع إن لم تكن لاجيئا أن تفهم منها شيئا مهما حاولت، وعندما انتهيت من ترتيب حاجاتي خرجت في جولة سريعة داخل المعسكر.

تم اخلاء هذا المكان منذ فترة وأعيد فتحه بصورة سريعة تحت ضغط تزايد عدد اللاجئين، ورغم حالته المهملة فهو مكان جميل ربما كان ينفع في ظروف أخرى أن يكون مخيما لقضاء إجازة للتمتع بجمال شمال هولندا الطبيعي. أثناء جولتي تذكرت أننا لم نسجل أنفسنا لدى الاستعلامات فذهبت وفعلت وعدت مرة ثانية للغرفة وأخبرت مجيد ضرورة أن يفعل ذلك، وأن لا ينسى رقم الغرفة مثلي، وارتميت على سريري بقرب الباب مفتقدا التلفزيون الذي يتحول في مثل هذه الأوقات إلى مؤنس وصديق حميم. أخرجت سجائري وقطعة صغيرة من الحشيش اقتطعت منها ومزجتها بالتبغ ولففتها بحذر. مازلت مبتدئا في اللف ولكني أصبحت أفعل ذلك بشكل معقول. خلعت حذائي وأخذت أفكر وأنا أدخن وأشرب الماء في وقت

مغادرتنا لمركز لايدن ضحى هذا اليوم. بعد سلامات وتحيات مختصرة لمن صادف اتجهنا للمحطة في مجموعة من المرافقين. رافقني إضافة لابوهدى وابوآثار الحاج زكريا الزنجباري، وعندما دخلنا بهو المحطة جذبني بوهدى حاضنا اياي بسرعة قائلا أنه لا يحب لحظات الوداع وانسحب نحو الخارج بخطوات سريعة، وقادني تفكيري للأيام الأولى التي جئت فيها لأوسي لايدن للاجئين، وكيف كانت تلك الفترة المرتبكة. استعرضت أسماء وصورا ومقاطع من أحاديث، كانت ذاكرتي قد بدأت في تكوين مكان خاص فيها لهذا البلد. هناك جنين ذاكرة ينمو يختص بحياتي هنا. مخلوق صغير وطري مثل النطفة ولكنه موجود وينمو. الحقيقة أني لم أعد أفكر كثيرا بليبيا والأصدقاء والمعارف في الفترة الأخيرة، حتى أنني لا أهتم كثيرا بما آلت اليه الأمور هناك. أخبرت بوهدى مرة عن بعض الأحلام المفزعة التي تتكرر معي أثناء النوم، وكلها تدور في ليبيا. سألته إن كان عنده مثلها، فقال إنه كان في السنوات الأولى لمغادرته للعراق يحلم بذلك البلد مثلي الآن ولكن هذه الاحلام ستختفي مع الأيام:

- **شوف عزيزي، الحقيقة الي يجب تعرفها هو أنك تبعد عن وطنك من جهة ويبعد هو من جهة أخرى، يعني البعد مزدوج من الطرفين، يعني ذاكرتك الآن مازالت طرية هنا، بس أصبر شوية وراح تروح هالاحلام في حال سبيلها.**

أصابني وقتها بعض الهلع، فقد كنت راغبا في استمرار ليبيا داخلي ولو على شكل مفزع. فكرة غيابها مني تفضي لواقع جديد لا أعرف كنهه، ولا أظن أنني أستطيع الاستمرار فيه حتى لو عرفته، لكنني الآن المح لأول مرة نور حقيقة في ما قاله بوهدى، وأخذني ذلك النور ليسلمني لسلطان النوم.

بشكل ما يشبه الانتقال من الأوسي إلى الآزاتسي انتقال الطالب من الثانوية إلى الجامعة، حيث هنا أيضا هناك تخرج يمنح للاجيء مما يؤهله للحياة بشكل أكثر حرية. التوقيع يتم مرة في الأسبوع ونظام الوجبات والمنحة والخروج كله مختلف. يحق لك أن تنام خارج الآزاتسي ويحق لك أن تطبخ وسوف تحصل على منحة أكبر خاصة إذا لم يكن هناك في الآزاتسي نظام الوجبة الواحدة الذي يقلل من المنحة. الدخول في مركز جديد هو أيضا عملية صعبة من ناحية تكوين علاقات جديدة، ففي حالتي هذه مهمتي أبسط لأن كل السكان جدد، ومنهم من أعرفه من لايدن لكنها تظل مهمة صعبة. هنا عليك أن تنسى علاقات الثانوية العامة، وتنسج علاقات أكثر ثباتا خاصة إذا كنت مثلي من الجنسيات التي حظوظها صغيرة في الحصول على اللجوء. هناك لاجئون يبقون في هذه المرحلة لسنوات طويلة. يتحول الآزاتسي إلى مستقر لهم قبل أن يجبروا على الخروج بشكل ما. بدا لي أن صحبة بوهدى وابوآثار لن تنتهي هكذا بسرعة وانشغلت بالتعرف على المكان الجديد.

لحسن الحظ أنني جلبت معي بعض البسكويت والسجائر احتياطا من لايدن، فالمطعم في المركز الجديد لايزال مقفلا بعد، وهو بعيد مسافة ثلث ساعة بالدراجة عن مدينة آسن. بعض اللاجئين جلبوا معهم أدوات طبخهم فتعاملوا سريعا مع الواقع وصاروا يترددون على المطبخ الملحق بصالة الرياضة. لم أكن مستعدا و لم أنجح في الوصول لسوق الأشياء المستعملة لشراء طنجرة وصحن وبعض الأدوات. يذهب مجيد إلى مجموعة أفغانية يفطر عندهم. ذهبت معه يوم أمس، وتبين لي أنهم كلهم مدعوون للفطور عند جارتهم وهي أفغانية أم لولدين تلبس الجينز وتطلق شعرها الجميل الذي له لون الحناء حرا في الهواء. كانت

معنا في لايدن. امرأة جميلة وقوية، وكانت في طريقها لكندا حيث تحصل زوجها على لجوء سياسي هناك، وفي الطريق توقفت الطائرة في أمستردام فنزلت في المطار وأخبرتهم بقصة زوجها معتقدة أنها في تورنتو، وأضطرت لطلب اللجوء في هولندا في انتظار إيجاد حل لمشكلتها الأساسية وهي استئناف رحلتها لكندا حيث زوجها ينتظر هناك. بعثت لنا السيدة الأفغانية بيضا مقليا يسبح في الزيت. أقبل عليه الشباب بنهم وتظاهرت بالمثل رغم خوفي من الزيت. قررت بعد ذلك تدبر أمر طعامي حتى يحين موعد افتتاح المطعم، أو توزيع منحة كاملة خلال أيام. ذهبت للمدينة وسألت ودرت و لم أجد سوق الأدوات المستعملة فمررت على سوبر ماركت واشتريت بيضا وخبزا وجبنا وعلبة فواكه محفوظة. صرت أسلق البيض في علبة الفواكه وتحسن موقفي الغذائي وسرعان ما فتح المطعم الذي كان يعطي وجبة عشاء بلاطعم ولكنها تفي بالغرض.

كان الذهاب لمدينة آسن ممكن من محطة حافلات على الجانب الإيسر من الآزاتسي. أفكر جديا في شراء دراجة. الدنيا صيف والدراجة حل جيد، و لم يكن المكان في حالة جيدة لاستقبال مزيدا من الناس. على الأرجح تم تخصيصه بعد فترة بقي فيها مهجورا لصالح إدارة اللجوء بسبب تنامي أعداد اللاجئين. لذا أعد على عجل من جديد ولكن بشكل لم يرض عنه اللاجئون الذين يتبادلون الحديث عادة مرتين في الضحى والمساء في ساحة المطعم.

أصبحت أذهب هناك وتعرفت على بعض الموجودين. كان اللاجئون العرب يجلسون على طاولة في خارج المطعم تحت الشمس ويتبادلون الأحاديث المختلفة. كان هناك بشير العراقي وهو دكتور حديث التخرج وشوقي اليمني الإشتراكي المتزوج من امرأتين، وابوسالم

نائب رئيس اتحاد الطلبة الفلسطينيين في اليمن الديمقراطي سابقا، وكان هناك أيضا اكراد. علي من سوريا وسينار وهو شاب صغير من كردستان العراق، وبومحمد كردي عراقي من سكان الكويت، وفي أثناء الحديث كان العديد يأتي للسلام السريع، أو البقاء بعض الوقت للاستماع والمشاركة، وفي المساء كنت أذهب للصالة الملحقة بالمطعم حيث توجد طاولة بلياردو متهالكة نتبادل اللعب عليها بطريقة خروج الخاسر، وهناك تعرفت على المزيد مثل محمد ولد بومحمد وفؤاد البدون من الكويت، وتوطت علاقتي مع نادر اللاعب الماهر وهو أفغاني من أوسي لايدن الذي كنت فيه، وبعض الأفارقة من زائير وبورندي، وباولو من التوجو، وأحيانا كنت أتوقف عند الاستعلامات في المدخل لمواصلة ادعائي بانتظار رسالة ما، وأتشارك في الأثناء مع بعض الاكراد العراقيين في قراءة جريدة الحياة التي تأتي للاستعلامات وتبقى هناك لعدم وجود مكتبة. كان هؤلاء الأكراد من كبار السن حريصين على ترك مساحة مع الآخرين لتأكيد تميزهم في العمل السياسي، وهو أمر لم أكن أحفل به كثيرا فلم أطور علاقتي معهم إلى مابعد انتظار دوري في القراءة، وهناك تعرفت أيضا على جلال من كوسوفو الذي كان يسكن مع زوجته وابنته بجانب المدخ، ل وينشغل بتربية الحمام وبيع الملابس المسروقة التي يستلمها من أصدقاء من خارج الآزاتسي، وعن طريقه تعرفت على شخص شخص غجري لن أحفظ اسمه حتى مغادرته المركز. كان يشارك جلال في هوايته ولا يتوقف عن الشجار مع زوجته من وقت لآخر، وعرفني جلال فيما بعد على بقية الكوسوفيين الذين في المركز وبعضهم كان جاري في القاطع المحاذي لي.

وهكذا صار لي خلال بضعة أيام معارف وأصدقاء. أقضي اليوم متنقلا بينهم عندما أمل من الانفراد بنفسي، لكن الجلسة الأساسية

كانت في الضحى حيث كانت الأحاديث تنتقل بسرعة من التعارف إلى بعض الشئون السياسية وأخبار اللجوء، ثم تستقر عادة على أحوال الآزاتسي السيئة. نتبادل التذمر ونشعر بالحنين إلى المراكز التي جئنا منها. كانت الإدارة قد وفرت لنا خدمات المطعم بواقع وجبة عشاء يومية ولكنها كانت سيئة جدا. نأتي إليها بدافع الجوع لا أكثر، وبعد مضى حوالي عشرين يوما بدأ إيقاع التذمر يزداد فطرح شوقي اليمني فكرة أن نعترض بشكل علني على أحوال الآزاتسي، ونطالب بثلاجة وتلفزيون في كل غرفة أسوة بما يحدث في المراكز الأخرى، ووجدت دعوته قبولا حذرا في البداية ثم تصاعدت الموافقات عليها بشكل متسارع، ورغم أنني لم أكن موافقا على الفكرة في البداية إلا أنني مضيت في تطويرها مع المجموعة، وتكفلت بإقناع أصحابي الجدد من الكوسوفيين والأفارقة بعد أن طلب مني ذلك، بينما تكفل بشير وسينار بالتحدث مع العراقيين عربا وأكرادا وشوقي وبوسالم للتحرك في الاتجاهات الباقية، أما بومحمد فكان لا يعول عليه لطيبته الشديدة ونزوعه نحو السلامة وانتظاره التحاق بقية أفراد عائلته به من الكويت.

2

الإخفاء

كان أول ما توجب القيام به في خطة إخفاء العاصمة هو إزالة كل المعالم والإرشادات الموجودة على لافتات الطرق والشوارع، وكانت ضربة معلم، فحتى في أسوأ الاحتمالات التي يكون فيها الكاموندوس الإسرائيلي قد وصل إلى المدينة أصلا، فإن بداية بهذا الشكل سوف تبعثر عناوين خرائطه وتجبره على التجمد في مكانه لمعالجة الموقف، ومعرفة مسارب ومفاتيح المدينة التي اختفت فجأة. نزلت مجاميع من العمال منذ وقت مبكر من المساء إلى الشوارع حاملة سلالمها وفرشها إلى الشوارع وتفرقت كأسراب النمل بين مسارات الطريق السريع وافرعه. كانوا ينزلون اللافتات الضخمة زرقاء اللون المثبتة بجانب الطريق لتدل السائقين على الاتجاهات وأسماء الأحياء والشوارع التي يمر بها الطريق الدائري السريع، ويستبدلونها بأخرى رسمت عليها صور لانجازات الثورة ورموز توضيحية من تروس مصانع وآلات حرث وزرع، وصورا لكل أنواع الشعب من عمال وطلاب وفلاحين وجنود. كانت اللوحات الجديدة مرسومة على عجل وبها أخطاء كثيرة ولكنها كانت تفي بالغرض بالنسبة للسرعة المسموح بها في الطريق السريع، أما اللوحات الصغيرة فقد كانت المهمة تقتضي بأن تطلى باللون المتوفر ويكتب عليها شعارات ثورية سادة بدون رسوم.

استمرت العملية بضعة أيام وليال وفي غضون ذلك كانت تتم عمليات أخرى سريعة الإيقاع وخاطفة، وتأتي دائما من مكان غير منظور لتغافل قدر الإمكان شعبا تعلم لغة الشم من بعيد، فسرعان ما أعلن عن تغيير التاريخ الرسمي المعمول به في البلاد كلها، وحسب التوجيه الجديد الذي سرى بين الناس بنفس الطريقة وتقبلوه بنفس الطريقة أيضا أن تختفي أسماء الشهور وأرقام السنوات المعتادة، وتترك مكانها لتشكيلة جديدة من الأسماء والتواريخ سرعان ما انفض عنها الناس لأنها بدت غير قابلة للحفظ، وعادوا إلى طريقتهم التي اعتادوها في العد أيام زمان، محاولين الوصول إلى مقاصدهم بالحدس والتقدير بعد أن اختفت العناوين والأسماء باذلين كل جهد للتغلب على الواقع الجديد المفاجيء الذي اكتسبت فيه المدينة وجها جديدا مزخرفا بلاعناية ولا يدل على ما ينبغي. كانوا يمضون نهارهم في انسياب متداع ضائعين في الطرق التي كانوا يعتقدون أنهم يحفظونها غيبا. فجأة تغيرت الاتجاهات وصار الوصول والتنقل يحتاج إلى صبر ومجهود ودأب، وبينما كانت الأمور تسير على هذا الحال صدر توجيه آخر يتطلب تغيير العملة النقدية، وتبديل شكل النقود بالكامل مما حدا بالناس لأن تتزاحم أسابيع أمام أقرب مصرف يمكن الوصول إليه من أجل تبديل نقودهم بالجديدة، ولأن الإجراء الجديد يقضي بأن يسلم لصاحب المال فقط ألف دينار، ويحق له سحب نصفه كل شهر من ماله الخاص. انتشرت سريعا قصص تراجيدية عن أناس دخلوا المستشفى النفسي الذي يسمى مستشفى المجانين، وأصيب آخرون بخلطة من الأمراض المزمنة بحيث أصبحوا يعيشون بحذر مذعورين بينما غادر آخرون مخلفين وراءهم كلمات قليلة صاغها كل راو بما يناسب بضاعته.

وبعد مجهود كبير بدأ الناس يرسمون خريطة جديدة للبلاد قادها في البداية سائقو التاكسي، ثم تبعها العقل الجمعي تحت شدة الحاجة لمخرج من تلك المتاهة التي نزلت على عجل. أخذوا يستدلون على الأماكن بأسماء اللافتات ذاتها التي حلت مكان الإشارات والأسماء والعناوين وعليها لذلك أن تقوم بنفس الدور، وبينما كانت هذه الخطة العفوية المضادة تنمو بالرواية الشفهية ويضاف إليها اقتراحات جديدة باستمرار، صدر قرار يلزم تلاميذ المرحلة الابتدائية بالتعليم المنزلي، حيث على الآباء والامهات تعليم أولادهم في البيوت المناهج التي كانوا يدرسونها في مدارسهم حتى ذلك الوقت، وامتلأت الشوارع بأطفال من مختلف الأعمار بعضهم شرس، وأخذوا منذ الصباح في لعب البطش والنقيزة ووابيس والشرطة واللصوص، فرحين بهذه الهدية التي هبطت عليهم من السماء وتخلصوا بفضلها من عسف المدرسة والأناشيد الحماسية المرعبة، ولأنهم لم يكونوا على مقدرة لتفهم أمر القرار فقد ظنوا بطبيعة الحال أن المدرسة اختفت نهائيا و لم يعد هناك ما يقتضي الذهاب لذلك المكان الكئيب بعد اليوم.

التلفزيون الوحيد أيضا شهد تغييرات حاسمة، فقد كان دائما يخلو من أي شيء ذي بال، حيث يكاد يقتصر على الخطب والأغاني الحماسية وتجمعات التأييد ومحاضرات طويلة للأخ القائد يشرح فيها رؤيته للحكم الجماهيري بنفس الطريقة التي يتبعها منذ ثلاثة عقود، لكن الجميع كان يفهم بأنه غرفة الحكم الحقيقية وعن طريقه لابد أن يصل المرء دائما للإجابة على ما يشغل باله شرط أن لا يعتمد كثيرا على المنطق وتتابع الاحداث، ولكن التلفزيون هذه المرة بدا أيضا غريب الأطوار، حيث زادت جرعة الحماس وشرع يبث فقرات طويلة يبدو فيها العقيد القذافي بملابسه اللافتة وهو يتفقد البلاد في رتل طويل

سيارات متشابهه، والجماهير تخرج لملاقاته في كل مكـــان، وكانـــت الأناشيد الثورية تتردد في كل فاصل إضافة لأنـــواع أخـــرى مختلفـــة لنشاطات الجماهيرية وسيل من برقيات العهد والمبايعة التي تستمر قراء تها فترة طويلة من نشرة التاسعة والنصف، وكترفيه عن الشعب عرضت سلسلة جديدة من مسلسلات مكسيكية كل منها يستمر أشهرا، بحيث تختلط فيه الأنساب والأسماء والأماكن وكل شيء، ثم ظهـــر الأســـتاذ جابر محمود بعد غيبة طويلة ليبدأ فورا في عمل حياته "قل ولا تقـــل" وكأنه كان ينتظر خلف الشاشة منذ السبعينات:

- **لا تقل ياهوه..قل ياشريكة حياتي.**
- **لا تقل هنري كيسنجر..قل مفتاح الغناي**
- **لا تقل قاعد ماجاش..قل لم يأت بعد**
- **لا تقل تاتشر..قل قاتلة الاطفال**

كان الشيب بالكاد قد غزا شعره الكث رغم ســـنوات عمـــره المديدة، بدا أقل حدة من سنوات شبابه ومطلع كهولته لكنه كان لازال قادرا على الأمر والنهي، ويملك الرغبة في اغتنام الفرصة وهو يـــؤدي بشكل معقول على كل حال.

وفجأة انتشرت معلومة بين الناس تفيد باكتشاف محاولة لتسميم آبار المياه الخاصة بالمدينة، وأنه قد تقرر من باب الاحتياط قفلها حـــتى تتم معرفة كافة الأمور التي تحيط بتلك المؤامرة، فمن يدري قد يكـــون للكوماندوس أنصار في الداخل وقد تلقوا الإشارة بالعمل. هـــذا إذا لم يكن أفراد الكوماندوس قد وصلوا بالفعل للمدينة رغـــم مـــا تم مـــن خطوات للتضليل، وشرعوا فورا في العمـــل علـــى تنفيـــذ مخططهـــم الصهيوني الحقير، والذي رغم أن لا أحد قد عرفه على وجه التأكيد إلا أنه سيكون شريرا ورخيصا وابن كلب.

وبدأت جموع الناس تخرج حاملة براميلها وسطولها للشوارع قاصدة الجوامع والنقاط التي توجد بها السبل القديمة، وتلك التي تبرع بها الميسورون الذين مدوا أنابيب المياه إلى الشوارع من آبارهم الخاصة، ومن لم يستفد من هذه التسهيلات عليه أن يشترى المياه من شاحنات أخذت تجوب الشوارع في تجارة جديدة أنجبتها الحاجة والروح الجماعية التي تكافح كي تعيش وسط بساط الريح ذاك.

كان الأطفال العاطلون عن الدراسة والأهل الساعين بحثا عن الماء والسيارات التي يتكرر مرورها بنفس الطريق عدة مرات قبل أن تهتدي للاتجاه الصحيح، وغير ذلك من تغييرات متعاقبة قد جعل من المدينة متاهة متداخلة مليئة بالحركة السريعة والضجيج والضياع. غير أن هذا لم يكن كافيا لتضليل ذلك الكوماندوس الحقير على ما يبدو، فتم تغيير لوحات السيارات بأخرى أكثر حروفا وأرقاما يحتاج فهم مدلولها لأيام، كما غيرت المعالم الرئيسية في الشوارع الكبرى وكسرت قوائم خيل النصب الواقع على طرف الساحة الخضراء من جهة مصرف الأمة، وسمح للمواطنين بركن سياراتهم في الساحة الخضراء بقلب العاصمة على مقربة من القلعة المهيبة حيث يقول الناس أنه توجد شبكات معقدة من الأنفاق التي تخفي سجنا يقع تماما تحت المنصة التي تمر أمامها مواكب العرض السنوي في عيد الثورة عندما تختار طرابلس لتكون مكانا للاحتفال.

كانت الهمهمات المعجبة التي تروى عن مسئولين أمنيين معروفين في البلد معبرين من خلالها عن إعجابهم بخطة التضليل تنتشر بسرعة بين الناس، مرددين أنه إذا كان هذا حال سكان المدينة الذين اعتقدوا أنهم يعرفونها كما تعرف الأم وليدها من بين ألف، فكيف سيكون حال أولئك المخنثين الإسرائيليين الذين يحملون بضعة خرائط وصورا ملتقطة

من السماء، معتقدين أن ما يدور أمامهم هو ما ينبغي له أن يكـــون. كانت تلك التعليقات القصيرة المتقنة تتردد من قبل الأفواه في الجلسات البيتية المضمونة بنوع من الرهبة والإعجاب والترقـــب، فمـــا يعرفـــه السكان بشكل مؤكد، أنه كلما مرت بالمدينة فترة جنون كالتي فيهـــا الآن يذهب العديد من سكانها ضحايا دون أن يدروا ما السبب. حتى أن سجن بوسليم المركزي الذي تم هدم بوابته في اصبح الصبح كـــان لايزال يشمل قسما كبيرا اسمه قسم البراءة، لذلك كانوا حذرين جدا، وخفيفي الحركة حتى إنهم باتوا يشبهون الدواب الليلية. يلتزمون التعبير عنما يريدون بشبكة من التعابير والأسمـــاء المرمـــزة الـــتي يبتكرونهـــا لقاموسهم الخاص المصاغ بحذر شديد.

كان السكان يقضون يومهم في قضاء مصالحهم وتدبير أمـــورهم بحيث تتوافق مع الوضع الجديد. يحومون كطيور البر بقرب مصـــبات المياه - مهملين أعمالهم الحقيقية - نهارا على المصارف وســـبل المـــاء العامة وإدارات المرور وثكنات الجيش متبادلين بشكل سريع في لقاءاتهم الليلية المعلومات والخبرات الجديدة، ويتساندون بطريقتـــهم الشـــعبية لمواجهة غياب المدينة أمام أعينهم في ضرب أقرب إلى السحر.

وبرغم تقدم سكان المدينة في إيجاد حلول للواقع الجديد تمكنـــهم من قضاء مصالحهم الضرورية، كانت الأحـــداث تتســـارع مطيحـــة بإنجازاتهم الصغيرة لتدفع بهم لسهوب الحيرة من جديد في كل مرة، ففي أحد الأيام المشئومة ظهرت عصابة إجرامية متخصصة في خطف البنات المراهقات اللواتي بالكاد نفرت نهودهن، وبدأت حكايات مجنونة تـــرد من هنا وهناك تلهج باسم العصابة الغريب (عصابة القط الاسود) الـــتي تنتقل كالريح من مكان لآخر وتنقض كالصقر على ضـــحاياها مـــن الشابات الغضات اللاتي يختفين للأبد. لم ير أحد تلك العصابة ولا حتى

ضحاياها، ولكن القصص حولها كانت تنتشر كالحمى في جسد طرابلس المريض، من كل الإتجاهات والأبواب والأحياء كانت الحكايات تتوالى لتزيد من رعب الأمهات والآباء الذين اتخذوا إجراءات استثنائية بحيث صار من شبه المستحيل أن تلمح فتاة تسير بمفردها في أي وقت، حيث تشكلت حراسات مرتجلة من أفراد وجماعات حسب الحال ترافق الفتيات وتنتظرهن على أبواب المدارس، والأماكن التي من الضروري أن يقصدنها خوفا من عصابة القط الأسود الرهيبة.

وبعد مضى أسابيع على هذا الرعب العصابي اختفت العصابة فجأة بعد أن كتبت على حائط مدرسة طرابلس المركزية للبنات بخط اسود عريض مطلبها الأخير، الذي نص على رغبتها الإجرامية في أن يوفر السكان سبع بنات شقراوات ومثلهن سمراوات إذا اردوا أن يستريحوا من هذا البلاء، غير أن عصابة جديدة كانت على وشك الظهور اسمها عصابة (الطاسة المشلومة والشيشة المكسورة) التي استهدفت كل أنواع السكان بدون تفرقة وجعلت من عصابة القط الأسود مجرد لعبة طفولية بعد أن مارست مختلف أنواع تقطيع الأطراف ضد ضحاياها، الذين ألقى بهم حظهم العاثر في طريقها الخالي من الرحمة، ولمواجهة هذا الرعب كان الأهالي ينامون بالدور في بيوت مشتركة مقسمين أنفسهم على ورديات عسس منهكة طوال الليل، وفي كل مرة كانت الجريمة تحدث في الحي المجاور برغم كل الاحتياطات حتى أصيب البعض بالجنون، وفضل الاستسلام لقدره دونما أية محاولة لانقاذ الروح.

كانت لعنة إخفاء المدينة تتراكم كل يوم، بحيث أن الأهالي أصبحوا يفضلون سيطرة الكوماندوس الإسرائيلي على المدينة مؤكدين أن ما يحدث في فلسطين المحتلة لن يكون بأية حال أكثر رعبا مما

يعيشونه هنا، متبعثرين بين كل أنواع الخوف وسد الحاجات التي صارت تزداد صعوبة مع كل توجيه جديد.

'''

لم تتوقف حملة الإخفاء التي صممت كخطة بدت بلانهاية، فإضافة لما سبق من توجيهات وما أتخذ من إجراءات، صدر أيضا توجيه بالغاء شركة النقل العام وإيقاف حافلاتها والتمويه على محطاتها، وتم ذلك فورا لترسو كل حافلة في المكان التي وصلت إليها فيه الأوامر بعد صدور التوجيه، وبقيت هناك تتفكك ببطء حتى ظلت هياكلها العارية ملعبا للأطفال الذين توقفوا عن الذهاب للمدرسة في النهار، وظلت كتلها الكبيرة تطل كالأشباح من أماكن مختلفة بالمدينة في الليل. أوقفت الحافلات لأنها بطبيعة عملها تمثل خطرا أمنيا في مثل الظروف التي تمر بها البلاد الآن، فهي وسيلة جاهزة كي يستخدمها الكومندوس بالتأكيد للتنقل بين أطراف المدينة، ورسم خرائط جديدة لها للتحرك نحو الهدف، وهو ما يعني إصابة الخطة الأمنية لإخفاء العاصمة في مقتل، وحل شيفرتها وانهيار كل التدابير التي تم اتخاذها حتى اللحظة، ولنفس الأسباب تقريبا تم حل شركة النظافة العامة كي لا تتمكن فرقة الكوماندوس من رصد المكان بالليل، إذا ما نجحت في التنكر بزي عمال النظافة، وهكذا بعد أيام قليلة تكومت أكياس القمامة على بعضها مكونة مرتفعات صغيرة في مفترق الشوارع والطرق تعج بمختلف أنواع الديدان، ثم جاء دور تحسين مستوى قدرة الاكتفاء الذاتي في هذه الأزمة، وبدأت السلطات في توزيع أقفاص يحتوي الواحد منها على عشرة دجاجات وديك، وتقديم تسهيلات مغرية جدا لشراء بضعة رؤوس من الأغنام لتربيتها فوق سطح بيوت المدينة، وهكذا امتلأت شرفات البيوت بالدجاج وأسطحها بالاغنام والماعز والأرانب،

كانت هذه المخلوقات البائسة تمر بلحظات من اليأس التام نتيجة ضيق المكان، وعدم التعود على العيش في أماكن مرتفعة، فتصدر أصواتا حادة متوترة مصابة بالفزع ومنفرة، تزيد من حالة القلق والشد التي سادت بين السكان، وبعد تغيير أرقام ورموز لوحات السيارات، وتعطيل أغلب مؤسسات الدولة الخدمية كالبريد والضمان وبقاء عشرات الآلاف في بيوتهم جراء هذا البلاء، ثم الإعلان عن ملحمة تحصين الساحل وتسيير دوريات راجلة في كل منطقة من الأهالي وهم يرتدون شارة الأمن الشعبي المحلي على الكتف الأيمن، وسلسلة مكثفة من الأناشيد الثورية والمسيرات ذات البيانات الطويلة المتشابهة التي تقرأ من مكبرات صوت لا تتوقف عن الصرير.

وفي ليلة مشؤومة خرج المذيع جادا ليقرأ قرار مؤتمر الشعب العام ملتقى المؤتمرات واللجان الشعبية والروابط والنقابات المهنية، بخصوص توزيع الثروة نقدا على الجماهير، وبعد ليلة قلقة مضطربة النوم صحت الجماهير واتجهت بالطبع نحو المصارف، والتقت هناك بالجماهير الأخرى التي كانت لا تزال في طوابير لتستلم أموالها وفقا للتوجيه الذي صدر من قبل بتغيير العملة، فظن هؤلاء أن اؤلئك قد أتوا لأخذ أموالهم التي وقفوا في الطابور أياما طويلة لوضعها في البنوك، وسرعان ما كانت تنشب معارك بين الفريقين تنتهي غالبا بتدخل قوات الامن، والفصل بينهم وإقناع الفريق الذي جاء لنيل نصيبه من ثروة النفط بالانتظار حتى تنشر الأسماء المستحقة في الجرائد، ولكن ما تكاد الجماهير التي جاءت مطالبة بالثروة تخرج من المصارف حتى تظل تحوم حولها في انتظار الخبر الأكيد، كي تعود وتنال ما كتب لها من مال.

صاحب هذا القرار حملة إعلامية تحرض بشدة السكان على هجرة البلد والاستثمار في الخارج، بحجة أن البلاد تقع فوق سبخة مالحة لن

تكف عن التوسع حتى تبتلع ذات يوم كل شيء، ومع غرابة الفكرة وسذاجتها منذ اللحظة الأولى إلا أن أناسا كثيرين أصابهم الهلع وازدادت طلبا في ثروتها تحسبا ليوم الغرق في السبخة.

كانت البلاد قد تحولت إلى مناطق مسيجة حيث انتشرت شابيك وأبواب الحديد على المنازل بكثافة، نتيجة أفعال عصابتي القط الأسود والطاسة المشلومة، وتحولت إلى مدينة كالحة متشققة الشفة عانت من هزة شديدة، وكأن كل ما حدث معها في العقود الماضية لم يكن إلا تدريبا على هذا الاضطراب الشديد.

في هذه الأثناء انتشرت ورقة منسوخة بين السكان تقول بأن الشيخ كاشيرما قد رأى في منامه خاتم الأنبياء والمرسلين النبي محمد -صلى الله عليه وسلم - وأمره أن يكتب للناس هذه الرؤية على أن تنسخ من قبل كل من تصله عشر نسخ، ويقوم شخصيا بتسليمها باليد لآخرين حتى تكتمل الرسالة، ورغم أن الشيخ كاشيرما كان حديثا في عالم الروح والكرامات، فهو وصل إلى القمم الروحية دون سابق معرفة، واحتل ركنا من جامع سيدي الشعاب الذي سرعان ما امتلأ بالأنصار والمريدين.

كانت تدور حول كاشيرما إشاعات تقول بأنه من صناعة الدولة بهدف نشر فكر ديني معقم، يلقي بظلاله على الحركات الأصولية التي بدأت تسود في محاولة للجمها وتوظيفها في السياق العام، لكن أجواء الشد والتوتر ساقت الناس وراء رؤيته المنسوخة التي أصبحت توزع بأرقام متصاعدة كل يوم، دون أن يتساءلوا عن مضمونها وما تدل عليه، وظلت تكتب بكل أنواع الخطوط والأحبار وتتنقل في عرض البلاد وطولها، مضافا إليها في كل مرة ما يجود به خيال الناقل وما يعتقد أنه المقصود، ولكن النسخة الأصلية لم يكن بها شيء. فقط أن

الشيخ الكاشيرما رأى النبـــي في المنام، وأن على كل من يقرأ الورقـــة أن ينسخها عشر مرات.. لم يكن هناك رسالة من النبـــي إطلاقا...

تمكنت حالة الدوخان من المدينة و لم يعد في الإمكـــان معرفـــة القاعد من الجالس من الماشي من الواقف من الملتفت من الثابت، ومع كل هذا كان أستاذ اللغة العربية الفصحى ما زال مســـتمرا في فقرتـــه يذود عن لغته مرددا:

- **لا تقل بيل كلنتون وقل بلعيد الككلي**
- **لا تقل شكسبير وقل الشيخ زبير**
- **لا تقل المافيا وقل مافي**
- **لا تقل الفاشية وقل الفاسية**

ورغم كل هذا لم يظهر الكومندوس الإسرائيلي اللعين بعد.

1

لم أخرج في حياتي كلها في مسيرة بشكل طوعي إلا مرة واحدة عندما كنت في الثانية عشرة، لم أتذكر فيما بعد مطالب تلك المســـيرة ولاسبب اشتراكي فيها عندما قابلتني في الطريق فقررت فورا الانضمام اليها، لكنني أذكر الطريقة البائسة التي أنهت مشـــاركتي في المســـيرات بشكل طوعي للأبد.

كانت المسيرة مكونة من عشرات الأشخاص وتسير بجانب سور القيادة في معسكر باب العزيزية حيث يسكن العقيد القذافي وتهتـــف بكلام لم أتبينه. لم نقطع إلا مئات من الأمتار عندما سقطت رجلي في فتحة لتصريف المياه نـــزع عنها الغطاء، و لم يسمع أحـــد صـــرخاتي المستنجدة بحيث بقيت في مكاني أصرخ متابعا المســـيرة مـــن ظهرهـــا المغبش بسبب دموعي. ومذاك الوقت أصبح لـــدي رفـــض فطـــري

للمسيرات مهما كانت مقاصدها، ولكنني فاجأت نفسي عندما سارعت للموافقة بعد أن طرح موضوع الإضراب في (الأزاتسي). وبعد أخذ ورد سريع بين مجموعة المطعم اتفقنا على وضع مطالبنا فيما صار اسمها فيما بعد - خطة لتحسين ظروف الإقامة - التي تتكون من ثلاث مراحل، أولا محاولة الحديث مع المديرة بشكل ودي، ثم كتابة عريضة بالمطالب موقعة من قبل اللاجئين وكحل أخير كنا سنخرج في تجمع علني ونرفض العودة لغرفنا.

وشرعنا في اليوم التالي في تنفيذ خطتنا اخترنا شوقي وسنار وجلال الألباني كوفد يذهب لمناقشة المديرة في الأمر، غير أنها رفضت أن تناقش الموضوع معهم قائلة إن مناقشة هذه المواضيع ليست من اختصاصها، فمهمتها هي إدارة "الأزاتسي" بما توفر من إمكانيات وليس السعي لجلب المزيد.

مع حلول الليل أملينا على شوقي صيغة المطالب الأخيرة وديباجتها بعد نقاش طويل. كنا قد اتفقنا على المطالبة بتلفزيون وثلاجة لكل غرفة وإغلاق المطعم وتسليمنا المنحة الأسبوعية كاملة، وطاولة بلياردو جديدة وهو مطلب كاد أن يعصف بالعريضة رغم أننا ظننا أن هذا المطلب بالذات سوف يكسبنا جماهير الشباب، وأخذنا نطوف بين القواطع بجمع التوقيعات حتى حصلنا على أكثر من مائة توقيع. أخذ الحماس الكثيرين الذين وقعوا بكل ترحاب، بينما كانت هناك مجموعة تصل لنصف عدد الموقعين تقريبا رفضت أن توقع لأسباب عديدة. بعضهم قال إن هذا عملا طائشا ودخلنا غرفة بها سياسيون أكراد ذوي تجربة فأخبرونا بأن هذه الوثيقة لا تصلح إلا أن تكون مستمسكا على موقعيها ورفضوا حتى مناقشة الأمر. في كل مرة كان يتقدم أحدنا يظن نفسه مناسبا للقاطع الذي نحن فيه ويبدأ بشرح القصة قبل أن يطلب

توقيع اللاجيء، وقد عملنا بكل اللغات الممثلة في الأزاتسي تقريبا، وكنا نغير الشرح طبقا لمن نجده في الدار. قمت بالدور العربي مع شوقي بعد أن غادرنا بشير منسحبا في الطريق وتأخر أبوسالم في المدينة التي قصدها لحلب تموين، حيث كنا نتبادل شرح مطالب العريضة للقاطنين العرب، واشترك معنا كاسبو الذي غادر نيكاراغوا في الحادية عشرة ووصل أخيرا إلى هذا المركز وهو في الخامسة والثلاثين بشارب فضي خفيف فوق فمه العريض. تولى كاسبو إقناع اللاجئين اللاتينيين وجلال إقليم البلقان وسنار الأكراد وآخرين من إفريقيا وشرق أوروبا كانوا ينضمون لنا في الأثناء، ولم تنته الليلة إلا بعد اجتماع ثان حددنا فيه ثلاثة آخرين ليسلموا المطالب للمديرة.

لكن المقدر مكتوب، فقد رفضت المديرة التعاطي مع العريضة ووضعتها في زاوية على مكتبها وبدا واضحا - كما أبلغنا الوفد - أن مصيرها الاهمال.

في عصر اليوم التالي خرجنا حسب الإتفاق ووقفنا في الساحة المقابلة للمطعم رافضين تناول وجبة العشاء، وأعلنا اعتصاما مفتوحا حتى يأتي مسؤول من دائرة الهجرة للتعاطي مع مشكلتنا، وقفنا هناك لساعة ونصف وعندما انتهت الوجبة ولم يأت أحد عصف بنا الغضب وبالكاد ردعنا الأخوة الألبان وبعض المتحمسين من الهجوم على المطعم بالقوة، وقررنا نقل مكان الاعتصام إلى بوابة "الأزاتسي" في خطوة تصعيدية دبرها علينا بوسالم الذي ارتفع منسوب حماسته مع ساعات تكون الحدث، راجعا بذكراه إلى أيام مظاهرات الطلبة والمطالبة بتحرير فلسطين...

وقفنا متجمعين كيفما اتفق أمام الباب الرئيسي لفترة نتبادل أحاديث متداخلة حتى موعد خروج موظفي المركز الهولنديين

عائدين إلى مساكنهم، فخطرت فكرة للبعض أن يحتجزوهم في الداخل ويمنعوهم من الخروج واستمر تنفيذ هذه الفكرة لدقائق حيث تشكل طابور صغير من السيارات ينتظر الخروج مذعورا مما قد يفعله هؤلاء الغاضبون، قبل أن يتدخل قادة الاعتصام ويصرون على سلميته سامحين للسيارات بالعبور. لكن عندما جاء دور المديرة خرجت فجأة زوجة جلال من الصف ودفعت عربة ابنتها الرضيعة أمام السيارة التي بالكاد كانت تتحرك لتقف من جديد وسط تصفيق الحضور للبنت الألبانية. استمر الوضع عدة دقائق أخرى قبل أن نقنع جلال بتركها ثم فعادت الزوجة وسحبت عربة ابنتها من جديد.

جاءت دورية من شرطة مدينة آسن وعندما اكتشفوا غياب المديرة اتصلوا بها هاتفيا في حديث طويل، ثم فتح الشرطي مايك التلفون وأشار لنا فاقتربنا هرعين بلانظام فأخبرنا أن المديرة ستتكلم معكم الآن، وأرجو أن تصدقوا ماستقوله لأنها ستفي به. كان أغلبنا لم ير الموبايل إلا من خلف الفترينات حتى ذلك الوقت، لذلك انصب اهتمامنا على مراقبة الجهاز الصغير الذي رفعه الشرطي عاليا كي يسمعه أكبر عدد ممكن من اللاجئين، واضعا إياه قرب مايك السيارة المرتفع لفوق كي نشاهد الموبايل والمايك ونتأكد أنه مامن خدعة في الأمر، وتبرع بوسالم بالترجمة فكان له حق وضع أذنه شبه ملاصقة للهاتف، وهو مكان حسده فيه الكثيرون، وبالنسبة للمجموعة التي بجانبي فإني أؤكد بأننا لم نهتم بصوت المديرة الذي يخشخش من فتحة الهاتف الصغيرة التي لم تكن مرئية لنا، اكتفينا بتأمل الجهاز وسماع كلمات بوسالم المترجمة والتي تؤكد لنا أن أول ماستفعله المديرة صباح الغد هو الاستماع إلى وفد من موقعي العريضة، وتلبية كل ما تستطيع

منها ومخاطبة المسوؤلين في الباقي، فقررنا العودة لغرفنا عندها مكـــتفين بنصف نصر، وبعد أن فرغنا كمية كبيرة من العقد التي كانت داخلنـــا وأصبحنا رغم الأضرار التي سببناها أكثر صحة من قبل، أو هذا ماكنت أفكر فيه بعد أن عدت لسريري ودخنت لفافة وبدت أتأمل مـــا مـــر بـــي.

فاصل

في الحقيقة أنا من ذلك النوع الذي لا يحب الكلام عندما يدخن، وأفضل دائما أن أكون وحدي إذا دخنت خاصة في الليل، أنا أيضا من ذلك الذي تنتابه في الليل وهو مستلق على سريره بعد أن يدخن حالة من الخجل من تصرفات قمت بها عندما كنت مســـتيقظا في النـــهار، ومهما حاولت أجد نفسي أراجع نهاري وألوم نفسي على بعض مـــا حدث، ولأني مدخن معتدل - كما أعتبر نفسي - فقد كنت أثبـــت أمام موجات اللوم والخجل تلك ولكن ذلك يحدث بعد ما يكون جزء مني قد انهار تاركا البناء يعاني من فج يحتاج للترميم، إما بالاعتـــذار أو بالرد بالمثل أو التجاهل الذي أحاول جعله واقعا يمكن لمســـه باليـــد - وهذه العادة الأخيرة تمثل لي خجلا دائما - وفي حياة المركز التي أنـــا فيها الآن يبدو المكان دائما ضيقا وأنت معطل من أي فعل حقيقـــي، لأنك في النهاية لست حرا ولا أوراق عندك، ولم يبت في طلبك بعد، وهي تفاصيل تجعل من حالة التوق لممارسة الحياة الحقيقيـــة خـــارج الآزاتسي المترافقة مع حالة اخرى من الملل والخوف من البقـــاء هنـــا لسنوات أخرى، أو الاضطرار لتغيير البلد متحفزة ومشدودة مما يوقـــع الفرد في ارتكاب أخطاء. هناك حالة من العصبية في المكان وأنا جـــزء منها مهما ادعيت اني واع بها.

،،،

عندما تأملت في وقائع اليوم من على سريري خجلت مما فعلنا ولحقني مايشبه الندم والخوف من العاقبة، ووسط هذه المشاعر التي كانت تدب داخلي ككائنات حقيقية أحسها ولا أستطيع رؤيتها أدركت أني في ورطة حقيقة، إذ ليس أمامي إلا إكمال الطريق، وانتابني الغضب من نفسي لبعض الوقت حتى انتبهت من جديد من سرحاني، وقيمت الأمر مجددا وأنا ألف سيجارة ثانية فتراجعت حدة نفسي بقدر كاف سمح لي بالتحول إلى موضوع آخر مناسب للسرحان.

في الصباح اجتمعت مجموعة المطعم وتحدثت مع الموجودين ثم اختاروا وفدهم الجديد ويبدو أنني قد ناضلت بما فيه الكفاية لكي يتم اختياري بالفريق لأول مرة في حياتي. ذهبت رفقة شوقي وبوسالم وجلال وكاسبو إلى المديرة التي وجدناها قد ألصقت أوراق التوقيعات على لوح خلفها في استعراض ديقراطي ملفت. جلسنا معها طويلا ونحن نفاوض حول التحسينات الضرورية والأخرى التي يمكن الصبر عليها بعض الوقت، ثم خرجنا بوعود كافية لطمأنة الجماهير التي رأت نتيجة تحركها "العفوي". بعد أيام جاءت شاحنات أفرغ منها العمال ثلاجة وتلفزيون في كل غرفة، واستلموا في نهاية الاسبوع المنحة كافية بعد أن اغلق المطبخ وتحول إلى صالة تستخدم للمناسبات.

أما أنا فقد رجعت ذلك الضحى لغرفتي فوجدت أن رفيقي الأفغاني قد غادرها، فتذكرت أنه قد أخبرني يوم أن امتنع عن التوقيع بأنه سيغادر خلال يومين لينضم إلى أخته وأخيه القاصرين في مركز لجوء آخر، لكني وقتها لم أنتبه لخبر رحيله لانشغالي بمهام الاعتصام الأول في حياتي وحياة أغلب من قاموا به، وشاهدنا خلاله عن قرب الديمقراطية وإحساس الجماعة المشترك والهاتف الخلوي لأول مرة في حياتنا.

2

في كل مرة كان السكان قادرين على تكييف حياتهم مع ما يستجد من خطوات لإخفاء المدينة عن أعين الكومندوس، ولكن كل مرة كان السكان يفقدون شيئا من مهاراتهم ويبدو عليهم التعب أكثر، وبدوري كنت أستمد طاقتي من هذا العقل الجمعي الذي يدوام على رسم اتجاهات جديدة للمدينة خلف تلك التي يتم تغييبها ومحوها من الواقع. أخرج في كل مرة أقل من قبل ووهاب كذلك يجلس يفكر في مشروعه الجديد ويتبادل معي الحديث حوله. يشتري قاربا صغيرا ويقيم في بيت أمه يقرأ ويكتب. يصرف مدخراته القليلة على الضروريات بعد أن يكون قد أمن جزءا من احتياجاته الغذائية من الحديقة الصغيرة التي سيزرعها في حديقة البيت.

أغلقت الورشة والمحلة والكثير من الشوارع والأمكنة المألوفة، وصارت الأمكنة الأخرى مليئة بأطفال عاطلين عن الدراسة وبالغين عاطلين عن العمل. شوارع وأزقة يحوم فيها الدجاج الذي صار بعد الألفة من السكان. ليبحث عن غذائه من الديدان في أكداس القمامة، وتتصايح فيه البهائم المربوطة على الأسطح وزوايا المباني، ويقضي فيه الناس نهارهم لاهثين بين براميل الماء ومعرفة الاتجاهات ورعاية الماشية والأطفال، والوقوف في طوابير طويلة على باب الجمعيات الاستهلاكية والمصارف في انتظار فتح طاقة السعد.

استيقظت اليوم في منتصف النهار. لم أجد وهاب، اغتسلت وبدلت ملابسي وخرجت نحو مطعم الفول. وصلت بصعوبة حيث كان الإزدحام شديدا. يبدو لي أن وسط المدينة هو الجزء الوحيد الذي صمد أمام الإخفاء، والناس تحب أن تأتي إلى هنا لأنها تحس بأنها تتحرك في مكان تعرفه، حيث ظلت شوارع عمر المختار والفاتح والمحمد

المقريف تقريبا كما هي.بدلت أغلب لافتات المحلات وطليت الحوائط بألوان تشبه الغائط لكن ذلك لم يؤثر على الشكل الأساسي لتركيبة الشوارع، لذلك أصبحت هذه المنطقة مزدحمة معظم فترات النهار، فالناس تحن لها كل يوم لأنها سند للذاكرة ونجاح للمكان. لم تستطع الخطة هزيمة قلب طرابلس لأن هذا القلب صمد في فترات مماثلة من التاريخ وبقى نابضا يدفع الدم في شرايين بقية المدينة والبلد.

في المطعم وجدت الشايش بعد فترة من الانقطاع، بدا لي أنه يعاني من نوم متقطع طويل، جذبني للزاوية وما إن جاء الفول والطرشي، وتأكد من انقطاع الرجل على الطاولة حتى بدا يحكي عن الكومندوس والتغييرات السريعة على المدينة، التفت للناحيتين ثم مال على يميني وهمس:

- **هل تدري بما يدور في المدينة**

التفت نحو اذنه التي كانت تحاذي خدي واجبته بانني اعيش هنا وادري..

- **اعرف انت تعيش هنا..بلا فلسفة..اقصد قصة الكومندوس.**
- **طبعا ياسيدي..**
- **اقسم بأنك تدعي ذلك فقط، انت لا تعرف شيئا**

تأملته بعد أن استندت مجددا على الطاولة وصار أمامي..كان بهيئة من لم ينم لليال طويلة. شعره منفوش وعيناه تتحركان بسرعة، و لم يبدد الشايش ظنوني عندما استرسل:

- **الجماعة لايبحثون على كوماندوس إسرائيلي كما يدعون، إن مركبة غريبة وعلى الارجح من الفضاء حلقت فوق المدينة لمرات عديدة في ليال مختلفة، وقد رصدت وكالة ناسا الاميركية للفضاء الحدث وبلغت السلطات وقدمت كل مساعدة مطلوبة من اجل**

العثور عليها، لأن ناسا قالت بأن المركبة لم تغادر وانما حطت في مكان مجهول بالنسبة للوكالة...

قال ذلك بصوت حيادي ثم قطع الكلام في هذا الموضوع، و لم أعرف هل هو في حالة من حالات الرهاب المعتادة، أم انه شديد الغيظ والحنق لدرجة تفسيره لما يحدث بهذه الطريقة شديدة التهكم والسخرية..

ما كدنا نكمل صحني الفول والمخلل حتى اقترح الذهاب للرابطة لنرى كيف تسير الأحوال، وأصر أن يتم ذلك مشيا على الأقدام في أحد أيام (اغسطس) اللاهب هذا، وهكذا قطعنا الطريق دون صعوبات كبيرة عدا الحر الشديد، حيث تقريبا سلكنا نفس طريق تلك الرحلة التي قطعناها سويا قبل سنوات في يوم المظاهرة التي أعقبت لقاء المنتخب الوطني لكرة القدم، يوم ان أصر الشايش أن نسبح في شاطيء السندباد برغم أننا كنا خارجين توا من المعمعة، وتذكرت تلك اللوحة التي كان يحملها الشايش معه ورفض أن يلقي بها رغم ما حدث، وهممت مرات عديدة لسؤاله عنها وأين أصبحت، ولكنه كان يتنقل في الحديث من السياسة للدين، ومن علوم الفضاء للأدب، ومن ليبيا إلى إيرلندا في لمح البصر، وكنت أجاريه متحمسا في بعض الأحاديث وأتوقف مستريحا في بعضها الآخر مكتفيا بالسماع أحببت أم لا...وصلنا للرابطة حوالي العصر وصعدنا للطابق الأول فلم نجد أحدا فانتقلنا للدور الثاني الذي كان خاليا بدوره، وجلسنا في مقر المجلة ننظر

للبحر من خلف الزجاج، كان ساكنا ومستفزا بهدوئه وجماله وأزليته..

بعد وقت قصير دخل علينا رجل ستيني، أشيب الصدغين ومتعب الجسد ينز عرقا، سلم وجلس، وعندما تأكد بأنه في مقر المجلة وأن

العنوان صحيح بدأ في قصته، حاول الشايش إيقافه وتوضيح أن المجلة توقفت وأننا لسنا مسؤولين فيها على أية حال ولكن الرجل استمر في حدوثته العجيبة.

قال بأنه اسيقظ ذات يوم منذ أسابع ليكتشف أن دجاجاته تنقص كل مرة، وبعد أن تثبت من الأمر جيدا اكتشف أن الخروف الذي يربطه قريبا من حظيرته المرتجلة كان هو من يأكل الدجاج، و"مش هكي وبس" - استرسل الرجل - إنه يفعل ذلك وهو في غاية المتعة، صار يرفض أي علفة غير الدجاج، وأنه وزوجه كتما الخبر عن الأولاد وظلا حائرين في هذه المصيبة التي هي علامة واضحة على دمار كبير قادم يحدث كما في القول المأثور مقترنا بتوديع الدنيا وداعا أبديا وقدوم الآخرة التي لاينفع فيها لا المال ولا البنون.

أراهن أن الشايش قد انفصل تماما عن الجلسة وأنه يسبح الآن في كونه الخاص المليء بالكومندوس وكائنات الفضاء والخرفان التي تتناول اللحم على الخواء. لم أكن لأعول عليه في تخليصي من هذه الورطة، وأدركت أنه علي أن أستلم الجلسة خاصة أني من محرري المجلة المتوقفة، وعندما سألته عن الطريقة التي يريد أن نساعده بها أجابني أنه يريد أن تكتب المجلة عن خروفه، وتنشر صوره لأنه ضاق عن تحمل الأمر وحده، وعندما كررت عليه أن المجلة متوقفة أصيب بخيبة أمل واضحة وهمس ببعض كلمات لم أتبينها. كان على ما يبدو يعول على المجلة كثيرا، ولرفع معنوياته ومشاركته آلامه أعطيته رقم زميل في صحيفة ثورية مؤكدا له بأني بنفسي سوف أتصل به وأطلب منه القيام بالأمر.

خرج الرجل شبه راض لتنطلق ضحكة الشايش مدوية بعد أن حسبته غائبا عما يدور:

- **هه هه هه هي هي هو هو**

واو واو واو..خروف ياكل في اللحم

هه هه...

وعندما حل المغرب خرجنا للشارع وبالكاد حصلنا على صاحب سيارة خاصة يعمل عليها، وعندما عرف أماكننا بالغ في السعر ولعله محق، تبرع الشايش بالدفع، وفي الطريق حاول مع السائق أن يخفض الأجرة مقابل أن يحكي له القصة العجيبة ولكن السائق رفض وبدوره رفض الشايش إخباره بالقصة، أو على الأقل لدى وصولي إلى السكن الجامعي، وما إن نزلت حتى اندفع ورائي الشايش مسرعا:

- **بالله منو من جماعتك كان ايدور على تأشيرة اجنبية؟..**
- **انا شخصيا ياعزيزي.**
- **اوكي..تمشي للسفارة الهولندية بكرة، فتحوا في التأشيرة من ايام..خف رجلك..**

عاد للسيارة وكأنه قال خبرا عاديا بالنسبة لي، وبقيت للحظات مشدوها في الليل، قبل أن أستوعب الخبر متمنيا أن يكون وهاب موجودا لأنقل له الخبر لعل وعسى..

دخلت الغرفة منتشيا بخبر التأشيرات، لم يكن وهاب بالداخل، جلت بعيني في المكان، وأثناء عودتي لقفل الباب لاحظت مظروفا بريديا ملقى تحته، كان به خمسون دينارا ورسالة مستعجلة من وهاب يخبرني فيها أنه ذاهب لبلدته لفترة ويطلب مني أن أبقى على اتصال معه متى ما أمكن.

فتحت التلفزيون ومررت أبحث عن جواز سفري، الذي وجدته كما توقعت في فردة الدولاب العليا، تركته هناك بعد أن اطمأن بالي،

واتجهت للمطبخ الصغير محضرا ما توفر لتناوله، مديرا وجهي من جديد للتلفزيون. كان المنظر المتكرر نفسه منذ أمس. صورة مرسومة على عجل لحذاء عسكري مكتوب تحته أنه هدية من مشاهد لإذاعة الجماهير. هذا يعني في لغة الواقع أن القائد "زعلان"، وفي أغلب الظن أن هذا الحذاء من رسم يده الكريمة، يستمر الحذاء على الشاشة ساعتين أو ثلاث ساعات، وعندما يختفي يحل محله جرار زراعي أخضر من نوع الجدع الذي يتم تركيبه في مصنع تاجوراء.

وفي فواصل متباعدة كانت تبث نشرة أو أغان ثورية يظهر فيها القائد بمختلف الملابس والأماكن والبشر، وبها لقطات من ذلك الزمن البعيد الذي كان فيه شخصا خجولا بسيطا قبل أن يتحول لجمل هادر محاط بالحريم والحرس والغيظ..

بعد نوم متقطع به عرق كثير صحوت واغتسلت وشربت ماء وتناولت جوازي ومضيت. تفقدته في الطريق مجددا. تأشيرة لبنان وقبرص وسوريا والمغرب ومصر وتونس، لا ينقصه إلا تأشيرة هولندا ليتقاعد مشكورا..نزلت من التاكسي واتجهت قاطعا ميدان الجزائر ثم استدرت قليلا لليمين وبعد دقائق استلمت نموذج التأشيرة وملأتها بصعوبة بالغة، وبعد عدة استشارات، سلمته مع الجواز والصور وعشرين دينارا من نقود وهاب ورجعت أمشي دون هدى غير مصدق أن الأمر تم بتلك السهولة، التي تكاد تكون مريبة لبساطتها، بعد أسبوعين أحصل على التأشيرة. شيء لايصدق أصابني بالرجفة، بعد أيام سألتقي بالشايش لأخبره بالأمر فقال لي إنه كان يعرف بأن الأمور ستتم..

- **تعرف ليش**
- **لا**

- **لأن الهولنديين والبلجيك اكتشفوا أننا اكثر شعب يشتري في سياراتهم المستعملة والمنتهية صلاحيتها، فقرروا ان يوسعوا هذه التجارة الرابحة على ناسهم...هه هه هي..انشاءالله غير مايعرفوش انك امنتف (مفلس تماما) هه هه...**

1

لن يغشني الطقس مرة أخرى، في هذا الضحى الجميل المشمس من (أغسطس) بقيت كالعادة متكاسلا في سريري. أشاهد التلفزيون عندما سمعت داوود ينادي باسمي من وراء النافذة. ظهر كما كل يوم مرتديا طاقية صوف مثنية على شكل طاقية يهودية، يبتسم ابتسامته الواسعة.

خرجت للنافذة ليخبرني أن مكتب الشرطة بالآزاتسي يطلبني، دبت رجفة في داخلي، فبالنسبة لمثلي، ذكر الشرطة لا يسره حتى ولو كان في الجنة. اغتسلت وغيرت ملابسي والتحقت بداوود الذي بقي كما توقعت ينتظرني نزولا عند رغبة فضوله الكبير.. بقي أيضا أمام باب المكتب عندما دخلت ووجدت رسالة من وزارة العدل تخبرني بأن طلبي للجوء رفض، وبرغم الصدمة الأولية تمكنت من مراوغة داوود بكذبة سريعة مفادها أن الرسالة من أيام أوسي لايدن، وأنني نسيت استلامها وهاهم يرسلونها لي من جديد، بالطبع ظل متشككا يعيد سؤالي بعد كل بضعة أمتار حتى دخلت غرفتي وأقفلت الباب وبقيت لصباح اليوم التالي في خلطة من المشاعر. الغضب والخيبة والخوف والذنب وكل ما يمكن أن يفكر فيه في هذا الموقف. لكن مع الأيام تحسن الحال. الرفاق في المركز أمدوني بتجارب عديدة لأناس أخذوا اللجوء بعد الاستئناف، والحقيقة أن هذا كان معروفا بالفعل، كما

تسلمت رسالة من المحامي يخبرني فيها أن الوزارة ردت عليه بأنهم يعرفون أنه لا توجد حرية صحافة ولارأي في ليبيا، وهم بحاجة لجمع بعض المعلومات عن هذا الموضوع بخاصة أنهم متأكدون من أني صحفي بالفعل ويقدرون طريقة تقديم اللجوء باسمي وجنسيتي الحقيقيتين. سمعت الكثير من الكلام من مثل هذا وذاك ساعدني على التفكير في نسيان الموضوع وأني محتاج فقط للوسيلة التي تخرجني من هذا، وهكذا بلغ الشوق منتهاه للمكرونة الليبية والمكبكة تحديدا، وقررت أن أداوي نفسي بوجبة من الأكل الحقيقي الممعن في البساطة واللذة..

لست طباخا ماهرا ولاذواقة كبيرا للأكل، لكني من تلك النوعية التي تعتبر الطبخ حالة خاصة تشبه حالة اليوغا. حالة تداوي من الآلام وسقم النفس ومحاولة جدية لإعادة الانسجام مع النفس والمحيط والتخلص من العلل. المكبكة بالنسبة لأمثالي رحلة علاج قصيرة تتوج بمتعة السلام الداخلي ولذة الطعم.

لذا انحدرت مع الضحى نحو القرية المجاورة على دراجتي البيضاء. لا أحب عادة التسوق من القرية لتحفظ سكانها الواضح ومشاعرهم القلقة تجاه سكان المركز، ولكني قررت توفير المشوار لمدينة آسن والاحتفاظ بطاقتي قدر الإمكان.

في المتجر الكبير الرئيسي بالقرية تسوقت بمهل و لم أعر صاحبه الذي كان يراقبني باستمرار أي انتباه. أعرف أنه يتعامل مع كل ساكن من المركز باعتباره لصا محتملا، وقد حدثت بالفعل سرقات عديدة من متجره، لكنه لم يستطع تطوير أسلوب فعال في الرقابة. كنت أكتشف وجوده على بعد أمتار مني بينما أتجول في المحل، وعندما أراه كان يطلق بعض الصفير المنغم ويلوي سلسلة مفاتيحه حول إبهامه موحيا بأنه غير مهتم بي. كان أسلوبا بريا وساذجا ولاعجب أن السرقات تحدث

كل مرة في محله. اشتريت ما أحتاجه للمبكبكة وأضفت على البضاعة قنينة فودكا اخترتها لشفافيتها وشبهها بالماء، فالشرب خارج الغرفة ممنوع. عدت للغرفة بعد أن وضعت اشيائي خلفي على الدراجة وربطتها جيدا في القفص الصغير.

بقيت في الغرفة أشاهد التلفزيون. شاهدت شريطا وثائقيا حول صنع الشمبانيا في فرنسا. طرق العناية بالكرم، واستخدام العصرة الأولى فقط من العنب للشمبانيا بينما تذهب الثانية والثالثة لصنع النبيذ. كانت المنتوجات تخزن في أقبية محفورة في كهوف من الطباشير وهي الطريقة التي أتبعها الرهبان منذ القرن الخامس عشر، ويتم توظيف أناس مختصين فقط في التذوق والشم لمعرفة المدى الذي بلغته البضاعة من النضج..

ثم شاهدت الأخبار ومسلسلا مكسيكيا حول ثلاثة توائم فرقتهم الأحداث في قناة الام بي سي، قبل أن تأتي "كوثر البشراوي" ببرنامجها الثقافي الذي تلعلع فيه حول الحرية وقضايا الثقافة في نسخة أعرف جيدا أنها مزيفة حتى العظم. أتذكرها في زيارتها لليبيا لتسجيل سهرة عربية وأكاد أجزم أنها لم تلتق مثقفا حقيقيا واحدا...

في حوالي التاسعة والنصف أفرغت قدرا لابأس به من الفودكا في زجاجة مياه عادية، وجمعت العدة واتجهت نحو المطبخ العام حيث وجدت عبدالرزاق السيرلانكي بالكاد يشرع في طبخته. كان عبد الرزاق مع نادر أفضل لاعبي بلياردو في الآزاتسي، وهو شخص هاديء ومحترم وفي حاله. تركت بضاعتي في قرب أحد افران الغاز الثلاثة ووقفت بجانبه نتحادث مراقبا طبخته... عندما سخن الزيت رمى فيه حفنة من الفلفل الأسود، مضيفا لها وسط البخار المتصاعد حفنة أخرى من مسحوق الفلفل الأحمر، ثم أضاف بعض الكاري قبل

أن يقذف ببعض قرون يابسة من الفلفل الأحمر، وعندها رفعت الراية وسط السعال وخرجت مسرعا وضحكاته خلفي وهو يردد فرحا:

- **Libyan people can not stand against the sharp food**

(الليبيون لايستطيعون تحمل الأكل الحار)

لم يكن اكلا حارا، انه الجحيم بعينه

خرجت لدقائق ثم عدت حيث قابلني عبدالرزاق في الباب خارجا بوجبته التي تفوح بالبهارات الحادة. تبادلنا التحايا وأكملت نحو الداخل حيث أخرجت ما في كيسي، ونقلت نظري مرات بين الإناء أوالطنجرة الصغيرة التي سبق واشتريتها من سوق الأشياء المستعملة - أساسا هي لتسخين الحليب - كانت صغيرة وتحتاج لتقدير دقيق لمقادير ما يوضع فيها ولكنها كافية بالتأكيد لشخص وحتى لشخصين ربما...

وضعتها على الغاز وتركتها قليلا حتى سخن قعرها ثم سكبت فيها الزيت، وقطعت حبة طماطم وأضفتها ثم قطعتين من اللحم - خروف استرالي - وأضفت عليه البصل وحركت الخليط لحظات ثم أضفت ملعقتين من الطماطم المعلب ومقدارا من مسحوق الفلفل الأحمر والبزار ومثلهما من الكركم، وحركت الخليط مرة أخرى مرات عدة حتى ظهر لونه الأحمر اللماع، ووضعت الملح فتصاعدت الرائحة الزكية ثم صببت مقدار كوبين من الماء معيدا تحريك الخليط مرة أخرى، وأضفت ثلاثة قرون من الفلفل الأخضر إثنان منهما مقطعان وواحد كما هو قبل أن أغطي الطنجرة بالصحن وسكبت دورا من الفودكا من زجاجة الماء وشربته جرعة واحدة على الطريقة الليبية. بقيت لدقائق أمام طنجرتي كالحارس الأمين أراقب سير الطبخة. في هذه المرحلة هناك أمران أساسيان لنجاح الوجبة، أن تبقى بجانبها للمراقبة الدقيقة وأن لا تضيف كمية الماء الأساسية حتى تذوب قطع الطماطم الأخضر

في المكونات، وبناء على هذين السببين يترتب مستقبل المبكبكة ونوعية طعمها. شربت في الأثناء كأسين آخرين وتفقدت الطبخة وانتظرت حتى تأكدت من ذوبان الطماطم، فسكبت حوالي نصف لتر من الماء وانتظرت قليلا حتى غلى وأقفلت الطنجرة مجددا، ونظفت المكان من القشر والبقايا وصار بالإمكان في هذه المرحلة أن أبتعد قليلا عن الطبخة، فأخذت زجاجة الماء وجلست على بقايا كرسي قرب الباب. كانت النشوة قد بدأت تدب في جسمي ورفعت رائحة ما في الطنجرة من معنوياتي وأصابني نوع من الزهو. بين الحين والحين يمر أحدهم فنتبادل التحايا ولحسن الحظ كان الوقت متأخرا قليلا بحيث لم يزاحمني أحد ويفسد علي مزاجي بالمقاطعة والاسفسارات، بعد حوالي نصف ساعة فتحت الغطاء وذقت الخلطة التي أرجعتني سريعا لأيام خوال مضت.

أضفت بعض الماء ثم عدت بعد دقائق وتفقدت اللحم فوجدته ناضجا تقريبا، وكانت "الطبيخة" أيضا خاثرة وداكنة وكل شيء قد ذاب فيها فصببت مكرونة الخرز التي سبحت أولا كالعقيق، ثم رست في مكانها تحت الحساء الأحمر، وأعدت وضع الغطاء و لم تمر إلا لحظات حتى سمعت ذلك الصوت الجميل، صوت المبكبكة وهي تبكبك محركة الغطاء في إيقاع هزاز وسريع ومتلاحق. وضعت ثلاث من فصوص الثوم في قطعة نايلون ثم دققتها حتى لانت وقطعت الكزبرة الخضراء وأضفت خليط النكهة الأخير قبل أن أطفيء النار مباشرة، ثم حركت المحتويات كلها من جديد فاندفعت الرائحة الزكية لتملأ المكان وأعدت الغطاء وتركتها تنضج نفسها بنفسها في لحظاتها الأخيرة.

حملت وجبتي الثمينة وبقايا أغراضي منتشيا نحو الغرفة وسكبتها في الصحن، وختمت يومي بتلك اللذة في المأكل والمشرب، وبالكاد

وصلت من الطاولة لسريري متخما رائق المزاج وسرعان ما ذهبت في نوم مريح على إيقاع التلفزيون.

‘‘‘

استعدت حياتي بالتدريج وأضفت للمبكبكة التي صرت أطبخها مرة إلى مرتين في الأسبوع وجبة يومية تقريبا من سندويتش التونه والهريسة الحارة التي تحصلت عليها من محل مغربي بمدينة آسن. كانت هريسة تونسية شبيهة بعض الشيء بما تعودنا عليه في ليبيا.

وبعد هذه الدفعة الجديدة في نظامي الغذائي كنت أمارس يومي بشكل روتيني هاديء. أستيقظ في الضحى. أتناول سندويتش التونة او البيض او الجبن والهريسة، ثم اذهب لمجموعة المطعم أتحدث مع بشير وشوقي وبوسالم ومن يصادف وجوده في مختلف الأمور، ثم أخرج أتمشى في الغابة المجاورة أو أعود للغرفة وأشاهد التلفزيون أو أرتجل برنامجا يوافق مزاجي في تلك اللحظة.

‘‘‘

تعرفت أيضا على إياد، وهو شخص أنيق من العراق. أخبرني أنه من تنظيم يتبع لشخص اسمه إياد علاوي، على الأغلب اسمه وهمي ويحاكي به اسم علاوي كما فكرت. بعض العراقيين من أصدقائي لا يرتاحون له لأنه أنيق الملبس والساعة ومتحفظ بأكثر مما يكون عليه اللاجيء، لكنني لم أهتم ولا للحظة بذلك ما إن عرفت أنه قرأ ماركيز وعلى معرفة جيدة به، تعرفت عليه بداية في طابور جريدة الحياة بالاستقبال ثم بالمكتبة الصغيرة عندما فتحت حيث كنا نقرأ الجريدة ونتناقش خاصة حول ما إذا كان هناك كلمة منشورة لصدام حسين، نحاول أن نحفظ منها مقاطع قبل أن نخرج للمساحة الخضراء خلف البوابة الرئيسة ونبدأ في التعليق عليها وإعادة صياغتها بشكل تهكمي ساخر.

كان إياد من تلك النوعية القادرة على التقاط الشخصيات الفريدة ذات النكهة الخاصة، جاء مرة للغرفة وطلب مني الخروج معه وأوقفني في الساحة المتربة التي تفصل بين القاطع الذي يحد الآزاتسي، وبقية القواطع وأشار لغرفة معينة وقال لي: **شوف**

كان الوقت غروبا، خلف النافذة شخص نحيل جالس عند الطاولة خلف الشباك في غرفة مظلمة مكتفيا بشمعة ويكتب باستغراق. أخبرني أن اسمه علي وهو من ايران وهو شخصية خاصة، وعرفني عليه واستمعت باسترساله في الهذيان حول الحب والفخر والغربة والشعر والديانات والمحبة وكل شيء. كان إياد يتعامل مع علي بطريقة راقية وجدية تحتويه تماما. لذا لم يكن متحفظا أمامه، واستمررنا نأتيه في بعض المساءات ونقف خلف الشباك حيث ينساب في الحكي عن عالم خاص مثالي مليء بالتذمر من واقع الحال، قبل أن نذهب في حال سبيلنا. استمر علي حوالي عشرة أيام في الآزاتسي قبل أن يتم ترحيله على الأغلب بسبب طلباته الكثيرة، وانزعاجه الدائم من عدم تقدير مواهبته ومعرفته بأحوال العالم، وهكذا جاءني إياد مرة اخرى وهو يضحك ليخبرني بأنه قد وجد شخصية فريدة أخرى. كان هذه المرة لشاب لم نتبين جنسيته الأصلية بالتحديد، يتحدث لغات عديدة ودائم النقاش لكل من يواجهه من مسؤولي المكان، وجلسنا مرة نراقبه وهو يتحدث لموظفة المكتبة متنقلا بين اللغات بسلاسة عجيبة، وهو يشكو لها متاعبه في هذا العالم الناكر للمواهب، وفي أثناء الحديث سحب حبة شوكلاته ومنحها للموظفة وهو أمر ظل إياد يتذكره دائما معلقا بلهجته العراقية:

- **لا.. لا..شفته لما اعطاها الحبة...دوخها والله العظيم..**

كان إياد واحة صغيرة تضاف للمكان بمعرفته الأدبية الواسعة وصبره وأناقته وهدوئه على غير المعتاد..

أمر أيضا على توم وهو من سكان جنوب السودان. لاعب سلة ماهر وإنسان على حاله. أتبادل معه الحديث حول أحوال الجنوب و(جون قرنق) الذي يحبه وأحوال الآزاتسي التي يراقبها ويفهم تفاصيلها من على بعد. يقيم توم مع رفيق من نيجيريا قدم أوراقه على أساس أنه من جنوب السودان ولكنه ارتكب خطأ كبيرا عندما ادعى أن اسمه محمد، ومتحصل على رفض لمرتين وينتظر النتيجة النهائية ويبدو غير مبال بشيء. في كل مرة أطل من الشباك المفتوح أجده يتفرج على شريط "سكس" أو قناة ام تي في للموسيقى.

وعندما أريد التغيير كنت أبحث عن عباس العربستاني الذي يحب أغاني أم كلثوم، ويظل ينغمها طوال الجلسة، أو رهباني الأفغاني الذي يتحدث العربية بطلاقة حيث ندخن سوية لفافة من الحشيش، وهو يردد فرحا حامدا لله الذي جعل من بلده مصدرا لبضاعة تهم العالم ولو كانت الحشيش.

أشارك في لعب البلياردو وفزت مرة بالترتيب الرابع على مستوى الآزاتسي في إحدى المنافسات، وألعب أيضا تنس الطاولة وبعض الشطرنج وأتابع التفزيون بنهم فهو الرفيق الوحيد الذي يعطي دون أن ينتظر منك الرد، أوأن تبذل مجهودا في الفهم إذا لم ترغب في البضاعة المعروضة.

2

طرابلس - (أغسطس) 1996

الدنيا تعوم في الحر نهارا والرطوبة ليلا، لكني لم أعد أحفل بمثل هذه الأشياء والظواهر، فقد ضمنت التأشيرة الهولندية في جيبي وليس أمامي سوى أيام لنقل جذوري لبلاد أخرى وأفق مختلف، تنتابني أحيانا رعدة خفيفة وتنمل في الأطراف ولكنني أصر في كل مرة أن لا أفكر في الموضوع. كنت أهيم في الشوارع أحيانا حيث حديد الشبابيك والأبواب والسياج يسد بعض الطرقات ويرسم جغرافية جديدة للمدينة، أو أبقى ليوم أو يومين في الغرفة منفردا بنفسي ومبتعدا عن الجميع. كانت قصة الخروف الذي يأكل الدجاج قد أصبحت على كل لسان، فبعد نشرها في الجريدة اعتبرتها السلطات دليلا ماثلا على تسرب داء خبيث يغير من الطبيعة الحيوانية، ويجعل من الخروف ذئبا وأن هذا تم بفعل فاعل وماهو إلا مقدمة لاستخدام هذه الجراثيم الخطرة على المواطنين، وانتشرت توجيهات تأمر بضرورة التخلص من الأنعام المربوطة بالمنازل، ودخل السكان في متاهة جديدة ونشأت أسواق مرتجلة استفاد منها ولا شك سماسرة محترفون كما شهدت نظرية أن هذا الخروف ما هو إلا من علامات فساد الزمان، وإقتراب القيامة الكبرى ورجعت أجواء شبيهه بأجواء عصابة القط الأسود والطاسة المشلومة، حيث يتكوم الناس في الليل قرب بعض وهو يتبادلون مختلف الآراء والنظريات.

بعد أن أخذت التأشيرة في العشر الآواخر من (أغسطس) قررت زيارة وهاب. ذهبت لميدان بورقيبة وانتظرت حتى وجدت سيارة أجرة سرفيس ذاهبة لماريش. كانت الطريق محاذية للساحل حيث بالإمكان رؤية آثار حملة تحصين الساحل ضد الغزو المحتمل، وكانت الأسلاك الشائكة تمتد على مسافات بقرب الشاطيء قبل أن تتقطع إثر عبث الطبيعة وتعود لتمتد من جديد، وكان الشاطىء خاليا من أي أثر بشري برغم هذا الحر الكافر، الذي يشبه الصحراء السائلة المهجورة التي تمر بها سريعا ولا مطلب لك إلا سلامة الوصول للهدف.

كانت (ماريش) في السابق مدينة صغيرة جميلة بها مصيف يقصده سكان العاصمة الراغبون في الخصوصية صيفا لبعده النسبي عن العاصمة، ولكنها الآن تبدو متعبة ومريبة الهدوء. بحرها خال وشوارعها الضيفة تصفر فيها الريح، والجميع مستعجل نحو البيت، وكما توقعت لم يشتر وهاب القارب لكنه كان مشغولا بمحاولة زرع بعض الخضروات والورود في حديقته الصغيرة. كان يرتدي البذلة العربية ويبدو شخصا مختلفا عن نسخته المعتادة، جاد ومصمم ويستعد لبقاء طويل.

أخذني في جولة بسيطة داخل البيت ثم فتح غرفة المخزن القصية حيث أشار لقطارة صغيرة تنزف داخل قنينة شفافة، فأخرجت فورا بعض النقود وطلبت منه أن يبيعني كيسين من البوخة وغرقنا في ضحكة خبيثة موجعة كسرت جهامة الموقف وبؤس الخيارات.

بقيت معه للصباح نتحدث ثم عندما غفا انسللت للخارج يتعتعني السكر. لم أجد الشجاعة الكافية لتوديعه بما هو أكثر، وبقيت في ركن مقابل البحر أدخن شاردا في الفراغ، وعندما اكتمل شروق الشمس مشيت لمحطة السيارات وركبت نحو طرابلس من جديد.

أشياء تنأى

عندما كنت في الرابعة عشرة ذهبت مع أولاد الشارع لمشاهدة مباراة الدربي بين فريقي العاصمة الأهلي والإتحاد بملعب المدينة الرياضية. بين الشوطين طوقت الملعب سرايا كاملة العدة من الجيش فجأة، لكن الراغبين فقط في السلامة الأكيدة تنازلوا عن مشاهدة الشوط الثاني من المباراة، وغادروا من الأبواب التي ظلت مفتوحة حتى ذلك الحين. كانت الجماهير تزأر كالأسود مع كل فرصة يضيع فيها أحد اللاعبين تسجيل هدف في مرمى الخصم، فينهمر سيل من اللعنات التي صممت خصيصا له، وكان الحكم تائها بين الجميع وتحول إلى مكب لكل البذاءات التي لا تستطيع الأرض نفسها تحملها لو أنها سقطت من السماء، وفي الأثناء كانت المدرجات المخصصة للسكارى تحت الساعة الكبيرة بحكم العرف تشهد غارات متقطعة، تشرع فيها الخناجر والسيوف طلبا للشهرة في هذا الجمع الكبير، وبدا أن الزلزال نفسه غير قادر على قطع المشاركة من قبل الجميع في متعة الدوري في مباراته الأخيرة. لم يكن أحد من الحضور يبالي باللافتات الثورية التي غطت حواف الملعب، مطالبة بتحويل المدينة الرياضية لإنجاز نافع للأمة كمخازن مركزية لمحصول الشعير، لدرجة أن عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الداخلية قال في خطاب له

"لو توجد طريقة لجر المدينة الرياضية ورميها في البحر لما ترددنا في ذلك".

وما إن انتهت المباراة وهدأ الزئير وعادت الأسود الطليقة من صحاريها إلى أجسادها الآدمية، وأغمد طالبو الشهرة سيوفهم وخناجرهم حتى صرخ فينا مكبر صوت جبار:

- **نحن نفتش عن المخنثين الهاربين من الخدمة العسكرية، قفوا في طوابير وجهزوا أوراقكم يا أولاد القحاب.**

ومنذ الوهلة الأولى بدا ذلك طلبا عبثيا إذ كيف يمكن أن يصطف سبعون الف مذعور فى طوابير؟ هاجت الجماهير وظلت تموج فى المدرجات الدائرية مروجة مختلف الإشاعات، بينما عاد السكارى لأماكنهم مطمئنين بعد أن تبين لهم أن الأمر لايعنيهم فى شيء، وتزاحم الآلاف على الأبواب شاهرين أوراقهم بأيد متعرقة وهم يغمغمون...

وصلت بعد ساعتين محمولا على كتف رجل مدجج بالأوراق انتشلني في لحظة حاسمة من بين الأرجل، وهمس في أذني عندما حان دورنا بأن أخبر الجندي المكلف بالفرز بأنه أبي، وهكذا أفلت من السحق وأخذت أركض وأفكر في أبي، ومتمنيا أن يكون لاهيا عن غيابي بشيء... أي شيء. اجتزت أخيرا الباب المترع بالجنود نحو البراح والحرية. كان عند كل باب صفان متقابلان من الجنود، ومجموعة أخرى مخصصة للفرز، وآخرون يأخذون الشباب وأولئك الذين نسوا أوراقهم نحو حافلات كانت تمتليء بسرعة. رماني الرجل بسرعة على الأرض صارخا في بحزم:

- **اجري ياولد، امك مشغولة عليك هالوقت.**

لكنني كنت تلك اللحظة أفكر في أبي ويده الغليظة شاعرا بخفيفها قريبا من وجهي. كان هناك أيضا خاطر من الخيبة يمر بي، فلو كنت شابا لعشت هذه المخاطرة كاملة. تذكرت مجموعة من الشباب الذين جلسوا في ركن بالمدرجات وبدوا غير مبالين وهم يغنون:

لالي يالالي اليوم عشانا في التكبالي... (التكبالي أكبر معسكر للجيش في طرابلس).

أفكر فى أبـــي وأجرى بقوة صبـــي مراهق يعرف أن ما يحـــدث خلفه شيئ غير جيد، وبه في نفس الوقت حسرة صغيرة تكسر خاطره لأنه ليس شابا قويا يخالف القانون، ويقاد فى الحـــافلات إلى أمـــاكن مجهولة. قاسية وبدائية، حتى إنهم يصنعون فيها الرجال، معزيا نفســـي بأنني رأيت الليلة حدثا لا يراه إلا الكبار.أمر راكضا بأحياء كاملـــة في الطريق للبيت، وأنا أفكر فى أبـــي وبـــي فما رأيته هو شـــيئ معقـــد درجة تحويلى إلى طور جديد من الحياة. لقد سمعت الرصـــاص الحـــي ورأيت الشباب اليائسين فى مرحلة متقدمة من الفرز، وهم يقفزون من المدرجات نحو الخارج فى محاولة مجنونة للإفلات من القـــدر المحتـــوم، ورأيت ذلك الشيخ النحيف الذى يبدو كشبح وهو يمر كالطيف بـــين الجموع محرضا:

- **اقفزوا، اقفزوا يا أولادي، فربما تكـــون هنـــاك فرصـــة للنجـــاة بالمستشفى.**

وسمعت صوتا مشككا يرد بحنق:

- **لكن من يضمن أن هناك مستشفى؟.**

غير أن الشيخ الشبح استمر فى تحريضه وهو يذوب بين الجموع غير مبال بالتعليقات حتى اختفى كما جاء، وعندما وصلت فى المـــرة الأولى إلى الباب رأيت أحد الجنود أزعجه تزاحم الناس الذي أفســـد عمل جنود الفرز، وهو يتخذ وضعا قتاليا كمـــا يحـــدث فى أفـــلام الكاراتيه، ويطير عاليا ليحط برجليه فوق صدر أحد المشجعين فينهار الطابور، وكأنه أحجار الدومينو بينما يتراجع المقاتل مزهوا لمكانـــه، بعد ان أدى واجبه الوطني كما يفعل زملاؤه الذين يصرخون الآن في وجه التكدس البشري: جهزوا أوراقكم يا أولاد القحبة، وكفوا عن اختراق الطابور.

المجزرة

لم يكن ذلك اليوم يبدو مختلفا في شيء، لا في المدينة التي تعج بأهلها المفزوعين وهم دائخون في الطرقات بنقودهم وبراميل المياه، ومحاولاتهم الدائبة لاختراع أسماء ومسارب جديدة تمكنهم من حفظ الشكل الجديد للمدينة وقضاء حوائجهم فيها، ولا في سجن بوسليم جنوب المدينة، حيث يعيش يحيى ومئات السجناء يتقاسمون العنابر الإثني عشر، والزنازين العشر وقسطا وافرا من العذاب كل يوم، لكن حدث شيء لم يكن في الحسبان ولا بالإمكان نسيانه منذ حدث، ففي السادسة صباحا عندما كان بضعة مسجونين يوزعون الفطور المتكون من غسيل شاي وكسرة خبز يابسة برفقة جندين. انقضت فجأة مجموعة من السجناء على الحارسين وأمسكوا بهما. استسلم الأول سريعا وتركهم يأخذون بندقيته دون مقاومة، بينما حاول الثاني أن يعاجلهم فأمسكوا به وأداروا عنقه للخلف وذبحه أحدهم بحافة الصفيحة المعدنية التي يتناولون فيها الطعام على مهل فشخب دمه، وتناوشت الأيدي حزامه حيث المفاتيح وفتحوا كل العنابر والزنزانات.

كان يحيى وقت وقوع الحادث في العنبر الأخير من جهة اليسار قد استلم منذ وقت إفطاره، فوضع كسرة الخبر على فم الطاسة ووضعها في الركن، وعاد للنوم وعندما سمع من بعيد ضجة السجناء ظن أن الأمر يتعلق بحفل تعذيب لسجين أو عنبر في مكان ما من السجن كما هو معتاد، وواصل نومه على ترانيم بعض رفقاء الزنزانة بالدعاء والصلوات.

بعد دقائق من سيطرة السجناء الذين كانوا في أغلبهم من التيار الإسلامي وصل الخبر إلى العقيد سنوسي عابد، فهاتف مجموعه من

ضباطه المقربين واتجه فورا للسجن، وعندما وصل وعرف ملخص القصة أمر فورا ضباطه المشدوهين بتدبير أمر انقلاب شاحنتين من النفط في طريق "بوسليم" الرئيسي الذي يوصل للمدينة، ويمر بمنطقة السجن وأخرى عند مدخل الطريق الفرعي الذي يقود للسجن ما إن تصل القوة المساندة التي أمرها بالتحرك، وبعد هذه الأوامر المحددة والدالة على خبرة طويلة في القدرة على اجتراح المصاعب، والتصدي لها اتجه العقيد عابد نحو الأعلى وخاطب المساجين الذين كانوا يزمجرون في الساحة تحته طالبا منهم أن يرسلوا وفدا ليسمع مطالبهم، فجاءه خمسة شباب شعث رفضوا النظر اليه حتى لايقعوا في الحرام، وقدموا له ورقة تتضمن طلباتهم بخصوص العناية الصحية وتحسين الإعاشة ودخول الكتب والزيارات وضرورة حضور مندوب من الصليب الأحمر، وآخر من منظمة حقوق الإنسان ليشهد على الإتفاق إذا ما توصلوا إليه. طلب منهم بادرة حسن نية بإطلاق الرهينة ولكنهم اكتفوا بتسليمه جثة الجندي الذي لم يجف دمه بعد، وعادوا إلى الساحة من جديد بينما خرج العقيد عابد سريعا لمكان مجهول، وعندما عاد كانت القوة المساندة قد وصلت والشاحنتان انقلبتا في المكانين المحددين، فوزع قواته على طول أسطح السجن وقصد مكتب رئيس السجن ليعقد اجتماعا بضباطه لتوزيع المهام من جديد.

كان العقيد عابد من المدرسة الأمنية التي تؤمن بأنه عندما يدخل الطعام الجيد والعناية الصحية والكتب للسجن، فإنه لايعود سجنا ولايعود هناك من يريد أن يخبر عن الجرائم التي يخطط لها لقلب النظام أو زعزعته، لذلك كان من الممكن أن يضخ جرعات متباعدة من هذه التحسينات ولكنها لن تصبح حقا دائما وهو على قيد الحياة، أما شرط مندوبي الصليب والمنظمة فلم يتطرق إليهما، ولو تلميحا على اعتبار

أن هذا الأمر غير قابل للتفكير به أصلا، ثم انفرد بنفسه في المكتب ليتأمل ماهو فيه. ليس عنده أي شك في إنهاء تمرد السجناء على النحو الذي يريده، و لم يكن من ذلك النوع الذي يأسف لموت أو يفكر في أحد، ولاعنده الوقت للتفكير في هذا، فهو خارج هذا المجال، لكنه وهو يتأمل أثاث مكتب رئيس السجن، المليء بإنتاج المساجين من دمى ومسابح وكتب صغيرة مصنوعة من ورق البافرا تمت مصادرتها من أصحابها الذين قضوا ليالي طويلة حذرة في صنعها، طاف بخاطره مرارة قدره الذي يفرض عليه أن يخضع في كل مرة للتحدي من جديد. لم يكن متأثرا أو خائفا لكنه كان تعبا بعض الشيء من العمل، ويؤسفه أنه يعرف أن التقاعد في هذا النوع من الأعمال أمر بعيد الحدوث. يشعر بنوع من الضيق والحنق على السجناء، وعلى وقع أصوات ضباطه البعيدة وهم يخبون متفقدين التحصينات التي أمر بها تمنى أن ينتهي هذا الأمر اليوم كما يخطط، وغرق في نومة قصيرة تشبه الحمى المكثفة مادا رجليه على الطاولة.

عندما فتح باب عنبر يحيى ثانية وسط جلبة وضجيج متداخل رفع رأسه بتثاقل من تحت البطانية المتسخة معتقدا بأنهم الحراس، وعندما عرف حقيقة ما يجري خرج مسرعا ليلقي نظرة عن المكان. استعرض الجموع التي تدور في الساحة على غير هدى متبادلة همهمات مرة على شكل صراخ من هنا، ومرة على شكل نداء من هناك فعرف للتو ما حدث.سمع أحدهم ينادي باسمه وهو يجره نحو العنبر الذي انطلقت منه الشرارة، حيث لمح بقايا دم فسأل وعرف لمن، ففكر للحظات قبل أن يرفض عرض مشاركته في وفد المفاوضة الذي اقترحه عليه مجموعة من العنبر بأصوات متتابعة. رأى أن ماحدث لايعنيه و لم يستشر فيه وعبر عن اشمئزازه من قتل الحارس، وطلب منهم إطلاق سراح الجندي الأسير

قبل أن يعود مجددا إلى فراشه متصرفا على أساس أن الأمر لايعنيه. لم يكن خائفا ولا حتى متفاجئا فقد كان يدرك أن الوضع في السجن سيصل لامحالة في أحد الأيام إلى هذه النقطة، أو نقطة شبيهه لها، لكنه كان غير موافق على الطريقة والمضمون، فهو كان قد انتمى لتلك الجماعة المتشددة دينيا بغرض أنها وسيلة ربما تمكنه من تنفيذ عمليته، وليس كفكر يؤمن به. كان يريد الانتقام من رؤوس النظام وليس من المجتمع ككل باعتبار أنه خارج عن الملة.هزه مقتل الحارس ولمس داخله وترا بقي على مر الأيام مشدودا. كان خياره يتجه مباشرة فوق، والطريقة الوحيدة التي يمكن له أن يشارك فيها بالوفد هي اتفاقهم معه على أن المهمة هي خطف العقيد عابد نفسه وليس مفاوضته، وعندما رفضوا هذا الاقتراح عاد لغرفته واندس في فراشه من جديد، بالطبع لم ينم واستمر في التقاط كل الأخبار التي تصله، محاولا رسم تطورات المشهد خارج العنبر، ولكنه لم يخرج حتى عودة العقيد عابد في الضحى وإطلاله على السجناء، وإبلاغهم أن القيادة قد وافقت على طلباتهم وأنها تطالبهم بإخراج المرضى لنقلهم للمستشفيات، وتسليم الحارس والبدقيتين اللتين لم يأت على ذكرهما حتى تلك الحظة حتى لايعطي انطباعا بأنه يعتبرهما أهم شيء في العملية كلها، فلاينقص هذا المشهد إلا أن يبدأ السجناء في اطلاق النار قبل ان يقرر هو، وبعد أن انسحب إلى الداخل ليعطي فرصة للسجناء لمناقشة الأمر بينهم، خرج يحيى بعد أن تأكد أن الأمر لن ينتهي بسلام وأن عليه أن يساهم في صنع مصيره النهائي.

كان شعره ينسدل في دوائر صغيرة تصل حتى كتفيه، وقامته ناحلة مثل عصا البيلياردو، ووجهه ناشف من قلة السوائل ولكن عينيه بقيتا دائما حادة كعيني صقر. اتجه إلى التجمع الرئيسي مرة ثانية مارا

بتجمعات صغيرة متناثرة ومتحركة للسجناء، وأدرك قبل أن يصل أنه ما من رأي واحد يجمع هذا التحرك الغاضب، فبعض السجناء كان مع التسليم وحتى الاعتذار عما بدر منهم، وبعضهم لم يكن يفكر في التراجع أبدا، وآخرون مبهوتون يشلهم الخوف من رفاقهم الذين يقودون الإضراب، وأيضا ما ينتظرهم في الخارج عندما يأخذون بجريرة لم يساهموا فيها وكانوا منها على غير علم.

ظل يحيى يتمشى محاولا إعادة ترتيب نفسه متأملا الحشد بأسماله البالية، يدور في الساحة الصغيرة المستطيلة ذاهلا كأنه في يوم الحساب، وبعد برهة بدأ بعض السجناء بإخراج المرضى المرميين على أسرتهم، وآخرين يعرجون على عكازات قديمة، كأنهم موتى خارجون توا من القبور لسماع القرار الأخير يوم الحساب، وعندما رأى الجندي الرهينة في المقدمة حاملا البندقيتين على كتفيه عرف أن المضربين قرروا أن يقبلوا بالعرض الأدنى للعقيد عابد، وارسال المرضى لتلقي العلاج.تابع القافلة الصغيرة وهي تئن في خطواتها نحو الباب، وانتابه غيظ شديد حتى أحس بأنه قد أغمي عليه في وقفته، وسار كالنائم السائر في كابوس، ثم سار خفيفا كريشة وشاهد جسده وهو ينفصل عن الارض. راقب المجموعة التي أرسلها العقيد عابد حاملة قدورا وأواني وترامس تفوح منها راوئح زكية وضعوها في منتصف الساحة، حيث تجمع السجناء وبدأوا في توزيع وليمة حسن النية، بينما تسللت المجموعة للخلف لقفل العنابر والزنازين حتى يصل عمال خصصوا لتنظيفها ما إن ينتهي الغداء. أخذ يحيى زجاجة ماء عبوة لتر ونصف وشرب منها، ثم جلس بها أمام غرفته مثل تلك الأيام التي كان يشرب فيها البوخة على عتبة البيت في أواخر الليالي من ربيع طرابلس، قبل أن تصل شمس الصيف اللاهبة. شعر وهو يلتفت إلى

ذلك الزمن بالمسافة الشاسعة التي قطعها بين اللحظتين. مسافة تكفي لأكثر من عمر رغم سنواتها المعدودة. مكثفة ومتسارعة ومليئة بالإخفاق. كان جنود الحرس الثوري الخاص قد ظهروا الآن فوق السطح في بذلاتهم العسكرية وخوذاتهم الحديدية كالفطر المسموم، وبدا واضحا أن القدر يسطر كلماته الأخيرة في هذا الكتاب. ضم ركبتيه إلى صدره وأطلق نظرة شملت المكان. عم صمت تام وجليل، وبعد لحظات سُمع صوت قوي يأمر بإطلاق الرصاص. انطلق الرصاص من كل ركن، تساقطت الاجساد على بقايا الطعام، وتناثرت الأطراف بين الأواني. راقب يحيى المشهد في زمنه المكثف الخاثر كالدم، وفي اللحظة التي أغلق فيها عينيه داسا رأسه في حجره متفرجا على الصور الأكثر التحاما بذاكرته. اخترقته قطعة حديد صغيرة ساخنة وصلت لتوها للهدف وأمعنت فيه. حاول أن يرفع رأسه من جديد لكنه أدرك قبل أن ينام أنه قد وصل أخيرا إلى يومه الذي كتب له. بقي ثابتا في مكانه حتى أزاحته صلية رشاشة الى أغراض عامة، وفي ذلك الوضع ظهرت عيناه الصقريتان تتابعان تجمع البركة الصغيرة من الدم التي استطاع أن يراها بوضوح.

بعد ساعات من إطلاق النار المباشر كانت العملية قد قاربت على الانتهاء. نزل العقيد عابد يتفقد مسرح المعركة بينما كانت أنات الرمق الأخير تصدر من البعض. أجهز على جرحاه وأمر جنوده بتكويم الجثث التي شحنت في شاحنات مبردة تابعة للشركة الوطنية للمواشي، والشركة الوطنية للصيد البحري، وفتحت الطرق في نفس الليلة ونامت المدينة بجوار ألفين ومائتين وواحد من القتلى، بما في ذلك أفراد ذلك الموكب المريض الذي ظن أنه في طريقه نحو المستشفى.

فاطمة

مال علي سوف بتثاقل وهمس في أذني بأن فاطمة تحتضر. نظرت إليه طويلا نظرة أبله ضائع في الملكوت طافيا في الفراغ قبل أن أستعيد وقفتي من جديد، وألمح عينيه تترقرقان بدموع مكبوتة وحزن أليم وضعف يكاد يلمس باليد. لقد نسينا فاطمة في زحمة الحياة ومتاهة المشاغل الوهمية التي لاهي تنقضي ولا نحن نتخلى عنها. فاطمة الزميلة المفتونة بالشعر والسينما. مر أمامي شريطها الطويل في تلك اللحظات الثقيلة القابضة على الصدر، منذ ان كنا معا نتردد على الجرائد وننشئ علاقات المبتدئين. كانت فاطمة عندئذأكثرنا جرأة وحماسة ومبادرة، تبدو وكأنها نسيت فاجعتها الشخصية وقفزت إلى مرحلة جديدة من حياتها متخطية كل ماحدث لها.

كل يوم كانت فاطمة تتحامل على نفسها وتدخل مطبخها الواسع رفقة خادمتها، وتنهمك في إعداد كمية كبيرة من الطعام في طناجر مختلفة الأحجام، وتظل تتنقل بينها حتى تصاب بالإعياء فتنسحب وتترك الخادمة لمراقبة الطبخ، وتعود لغرفتها لتبكي براحتها وهي تراجع حياتها التي على وشك الوصول إلى المحطة الأخيرة.

كانت فتاة يافعة ترفل في العزعندما داهم زحف ثوري هتّاف مبنى المجمع الجديد الذي شيده والدها للتو، وقرر أن يسميه باسمها ويخصص داخله ثلاث قاعات للسينما حبا فيها. كان تاجرا معروفا من جيل الرأسمالية الوطنية التي تسعى إلى جانب الربح للصيت الحسن. الجيل الذي شب على الاستقلال وحكايات نضال الآباء والأجداد التي كانت في كل ركن من البلاد، وعندما استلم أعمال أبيه زاد فيها وتوسع حتى أصبح من التجار الكبار. كانت فاطمة تتجول في الأروقة

العديدة عندما دخل ذلك الفريق الزاعق وسيطر على المبنى، واتجه نفر منهم إلى مكتب والدها ليعلمه بمصادرة مبناه لصالح الجماهير، وأعطي له اسم جديد حيث سيسمى منذ هذه اللحظة قاعة الشعب.أصيب الوالد فورا بجلطة ثم شلل ومات بعد أيام، وانتهى بها الوضع إلى الزواج من مرزوق دهيمش الثوري الذي سطع نجمه في عالم صحافة الثورة، والذي ترأس لتوه تحرير جريدة "للأمام" النافذة وصار يشار اليه بالبنان كما يقولون.

كانت بداية سيرة دهيمش بعد نجاحه بالاتصال بالناهي ملحا في أن يريه محاولاته الشعرية وينال شرف رؤيته، ودون انتباه كبيره رحب الناهي به في أي وقت يناسبه وأعطاه العنوان. في ذلك اليوم كنا نجلس في مكتب جانبي نسميه مكتب سوف بالرابطة، وكنت ووهاب حديثي التردد على المكان أما فاطمة فكانت البنت المدللة فيه، فأغلب كتاب جيل الستينات كانوا على معرفة جيدة بوالدها وبعضهم كان صديقا له.

لسوء الحظ كان ذلك هو الوقت المناسب لدهيمش الذي جاء في التو واللحظة. إذ لم تمض ساعتان على تلك المكالمة الملعونة حتى دخل علينا شاب أبيض في بذلة عربية وشبشب إصبع، على هيئة من ندم على خطوته ومد لفة أوراق معروقة نحو الناهي وهو مازال يلهث ككلب.كانت اللفة تحتوي على خواطر شعرية ونثريات ثورية لاهبة تهدد بتصفية كل الأعداء، وعندما لمح الناهي ذلك لم يفكر وهو يرتكب الخطأ الثاني، ويدله على أن أفضل مكان لنشر مايكتبه هو جرائد الثورة حيث - كما قال دون أن يلاحظ دهيمش تهكمه - هناك البراح أوسع والسقف أعلى بما يناسب نتاجه، وفعلا ذهب دهيمش إلى هناك وداوم منذ اليوم الأول دون أن يسأل أحد، و لم تمض

أشهر معدودة حتى عرف المسارب كلها، وصار اسما مكررا في كل عدد، وقفز من مكان إلى مكان حتى شاءت الأيام أن يلتقي فاطمة في واحدة من فترات ضياعها الخفي، التي يزداد فيها بحثها عن الحماية والطمأنينة. عندها التقى قدراهما في صفقة ضعف فازت فيها فاطمة بالسكينة، كما ظنت ونال فيها دهيمش مصاهرة مع عائلة عريقة مناسبة تماما لشاب ريفي ضاع بين شتم المدينة وحب الانتماء اليها في آن واحد.

كانت طباخة ماهرة وسيدة طاولة بالفطرة وذواقة نادرة للنكهات، وكانت حتى في تلك الأوقات المتدهورة التي تمر بها لازالت قادرة على التفريق بين أنواع ماتطبخه من خلال الرائحة وهي جالسة في دارها تبكي وحيدة.

عندما أخبرها الدكتور أن ايامها أصبحت معدودة كان أول ما فكرت به كيف تحتفظ بذكراها في ذهن ابنتها وولدها لأطول فكرة ممكنة. كانا دائما يقولان أنهما يشعران بوجودها في المدرسة بمجرد أن يفتحا صندوقي وجبتهما الصغيرين، لذلك أرادت أن تبقى معهما ماوسعها بعد الرحيل.

بعد الزواج انتقلت إلى حي دمشق الغني بعد ان استرد لها زوجها بنفوذه فيلا صودرت من عائلتها أيام الزحف الثوري على الممتلكات، وبقدر ماهنئت بإقامتها في البيت الذي ظنت أنها فقدته إلى الأبد أصيبت بالخذلان في زواجها بعد أسابيع، فلم يكن زوجها المنطلق كالسهم في فضاء الثورة ليكتفي بامرأة واحدة كما اكتشفت، ففي رحلاته الطويلة لنشر الفكر الجماهيري ومطاردة المعارضين في الخارج كان دائما يجد الوقت الكافي لمغامرات نسائية أممية، تشمل نساء من كل المنابت لم تسطع إحداهن أن تروي

العطش الأزلي الذي كان يسكنه. كان يعتبر لبس الواقي الـذكري معرة للرجل، و لم ينتبه الشك في أن الإيدز مرض "إمبريالي" ناتج عن التلاعب الغربـي في المختبرات، كما قرأ في الأدبيات الثورية الـتي دأبت على تحليل مايجري في العالم كما تحب وتشتهي وتريد. لكنه عاد من إحدى تلك الجولات بالمرض "الإمبريالي" وقضى ماتبقى من وقت يطوف من مشفى إلى آخر في رحاب الإمبريالية صحبة فاطمة، التي رافقته فقط لتتأكد من أن يوم خلاصها معه صار قريبا، وهو ما حدث بعد أشهر ولكنه لم يقع حتى كانت فاطمة أيضا قد أصـيبت بالوباء الإمبريالي بعد أن أثبتت تحليلات الدم الذي قامت به علـى سبيل التجريب.

كتبت وصيتها طالبة من أمها وماتبقى من العائلة الانتقال لبيتـها لرعاية البنت والولد، ومتمنية أن لاينفذ خزينهما مـن الأكـل حـتى يكونان قد اعتادا على غيابها الغامض، الذي حرصت علـى أن يـتم بهدوء. اشترت ثلاجات ومجمدات أخرى واستمرت لأسابيع في حفظ كميات كبيرة من الطعام المطبوخ في حافظات وأكياس وأوان، كمـا شددت في وصيتها على أن تدفن في أبعد قبر ممكن من "ذلك الـداعر الذي أوقع بـي"، وعندما أحست بدنو أجلها قررت الخـروج مـن البيت واستقبال عدوها القاهر في مكان محايد رافضة أن يدخل بيتـها حتى لا يكدر صفو طفليها.

ستبقى فاطمة دائما في خيالي كما رأيتها في آخر زيارة في اليـوم الذي مر فيه الموت من جانبنا، حتى وصل لسريرها ونال مـا يبتغيـه. وصلت عصرا لذلك المستشفي المرمي في حي من منطقة أبـو سـتة، والذي تحوطه بقايا أشجار يختفي خلفها بحيث من الصعب ملاحظتـه مهما مررت على مقربة منه. كان مستشفى صغيرا معدوم الإمكانيات

مخصصا لمرضى الصدر. اختارته لأنه قصي ويمكن الموت فيه بهدوء. عندما وصلت إلى المكان وجدت كثيرين وصلوا قبلي فاكتفيت بتحيتها من بين الأكتاف رافعا يدي، وردت علي بوهن من خلف الأسلاك تبدو شاحبة ومعذبة ونادمة فعلا على خيارها الوحيد الخاطيء بعد فوات الآوان.

عدت للخلف من جديد ووقفت على حافة الحائط القصير المفضي لبراح صغير بجانب وهاب، الذي كان يدخن بصمت متأملا نقطة ما على الأرض. التفت نحوي ببطء وأخبرني أنها اللحظات الأخيرة كما يقول الدكتور.

مضت فاطمة إلى الجانب الثاني بهدوء وبقينا نحن أصدقاء البدايات نخوض في العاصفة بدون التعويذة، التي يرفعها الصيادون ضد المخاطر في عرض البحر.

المتنبي

في ذلك الفجر المنعش من مارس تلقى المتنبي هاتفا مستعجلا في بيت المزرعة الواقعة بجنوب البلاد، والتي يحب أن يقضي فيها ماتيسر من هذا الفصل مستمتعا بتفقد أنعامه ونخيله، ولقاء الأصحاب والخلان وإنشاد الشعر والاستماع إليه. كان الاتصال من طرف قلم القيادة شخصيا، والطلب أيضا مستعجل. سيقام احتفال جماهيري كبير بعد غد بميدان الفروسية على مشارف العاصمة، والقائد شخصيا قد وجه بضرورة استدعائه ليشارك في هذا الحشد الفروسي بما تجود به قريحته.

ما إن سمع المتنبي كلمة القائد حتى هام في الملكوت وصار يدور في المكان كالمجذوب وهو ينادي سائقه الخاص نائب العريف

سعد المجريس، الذي استيقظ متكاسلا في غرفته بركن المزرعة كاظما غيضا قديما، مادا أطرافه ليتخلص من تعب متراكم حل به منـــذ أن دفعته الأقدار الغشيمة للعمل مع هذا الكائن الضاج، والمحير والكـــثير الطلبات والتنقل. كانت الساعة الثالثة فجرا، وفي الثالثة والربع كان المتنبـــي في الكرسي الأمامي يهمز سائقه في رجله كالحصان حاثا إياه على الانطلاق بسرعة، والاتجاه نحو الهدف المنشود وهو لايكف عن ترداد:

- **سيدي القائد طالبني، خف روحك. الدنيا صبح وإحنا ما زلنـــا في مكاننا.**

وما ان انطلقت السيارة بحدة كغضب السائق المكبوت حتى بـــدا المتنبـــي سابحا في فضاء الفجر المغبش، وهو يدندن بقصـــيدة جديـــدة خطرت له للتو تحكي قصة استيقاظه من النوم في غير ميعاد تلبية لنـــداء القائد الذي يأمر فيطاع وينده فيجاب.

لكن هذه الدندنة ما كانت تعني للسائق المتعب الذي لم ير عائلته منذ اسابيع، و لم يزد راتبه منذ سنوات إلا دعوة صريحة للنـــوم. كـــان المتنبـــي في كل مرة يعود فيها من سباحته في بحر الشعر الذي يجره نحو البعيد يكرر همز السائق من جديد. وما إن ينتبه هذا حتى يعود المتنبـــي لدندنته فينجر السائق رويدا رويدا لسلطان النوم متتبعا إياه نحو الهـــوة العميقة التي لاتقاوم حيث لاتفكير ولاهموم.

اجتازت السيارة المدينة الصغيرة ودخلـــت بـــراح الصـــحراء الشاسع. بالكاد كان السائق يغير معشق السرعات ويـــناور كثبـــان الرمل الصغيرة التي تنبت فجأة كلما هب الريح. كان الأفق المفتـــوح يمثل اتجاهين مختلفين لراكبـــي تلك الســـيارة المشـــؤومة. بالنســـبة للمتنبـــي كان ذلك الأفق الذي بدأت الشمس تطل عليه من بعيـــد

بهالتها الحمراء كبرتقالة كبيرة قصية ومشتهاة، مدعاة للإلهام وزيادة صدر أو عجز جديد في تلك القصيدة الأخيرة التي لم يسمعها أحد. أما بالنسبة للسائق الذي مل كل شيء فقد كانت تلك الهالة الحمراء الخجولة دعوة صريحة للغياب والراحة، وإقفال الشبابيك عن هذه الحياة المتعبة من أجل إكمال النوم، وفجأة وبينما كان المتنبي قد أمسك أخيرا بقرن شيطان قصيدته، وبدأ صوته يعلو بالتدريج بما يتناسب مع مقام الأبيات فرحا ومنتشيا وفخورا بأنه قد أكمل ما بدأه في زمن يليق بفحل مثله كان السائق قد غرق في النوم، وبينما كانت السيارة طائرة في قفزتها الأخيرة نحو الأبدية كان المتنبي لحظتها منشغلا تماما عمايحدث، وهو يردد النسخة الأخيرة المكتملة من تلك القصيدة الملعونة التي جرته إلى قبره، أما السائق فقد تلطفت به الأقدار أخيرا ومنحته نهاية طالما أحبها. نهاية الموت وهو غارق في النوم.

‘‘‘

بقت أيام قليلة على موعد سفري. قررت أن يكون ذلك في بداية (سبتمبر) عندما تحتفل الثورة بذكرى انقلابها على الملك، وتختلط الكثير من الأمور عندها ورغم التشدد الأمني الذي يحيط المدينة إلا أن الكثير من الثغرات يمكن المرور من خلالها. في هذا اليوم عادة ماتفرض حالة طواريء غيرمعلنة على الداخلين للمدينة، وليس على الخارجين منها، كما أن خبرا غريبا انتشر في عرض البلاد وطولها يقول إن الثورة قامت في العام 1969 وهذا العام يصادف 1996 وإن تصادف مفارقة الرقمين له دلالة قدرية تخبر بانتهاء هذا العصر، كما أفتى بذلك أصحاب الاطلاع على ما تيسر من علم الغيب، وساد هذا الخبر في كل الأنحاء لدرجة أننا على بعد أيام قليلة من هذه الذكرى المشؤومة و لم نر بعد

أيا من المظاهر التي اعتدناها في هذه الظروف. المنصات والأضواء واللافتات وما شابه ذلك. أعرف شخصا يعيش فقط من هذه الذكرى ولا بد أنه في موقف لا يحسد عليه الآن. كان يقوم بتزيين الشاحنات في هذه المناسبة ويتحصل على مبلغ يكفيه للعيش طوال العام دونما خصاصة.

راجعت خطة الخروج من الحدود البرية مع تونس عدة مرات. كانت بسيطة ولكنها تحتاج لقلب قوي عصي على الارتباك. تعلمتها من عراقي زار أقرباء له في ليبيا وفي الأثناء أمر ما عدت أذكره كان يلزمه بورقة إضافية من أجل الخروج فخطرت على باله هذه الفكرة البسيطة جدا لدرجة أنها مرت بسلام، ومن يومها وأنا أدسها ليوم أحتاجه كالذي أنا مقبل عليه.

كنت قد تحولت في المدة التي قضيتها بدون عمل متهما ملاحقا لعدة جهات، فأنا بحاجة لورقة من المربع الأمني الذي أقطن فيه، ووثيقة رسمية من الجيش بأنني قد أديت خدمة العلم حسب آخر طبعة، ورسالة أخرى من العمل تؤكد حصولي على إجازة رسمية تخولني السفر، وربما وثائق أخرى لا أدري بأنها مطلوبة في مثل هذه الظروف.

وفي اليوم الموعد، الأول من سبتمبر صحوت باكرا وتمشيت خارجا من الباب المطل على الهضبة الشرقية ثم سرت قدما حتى التقيت بسيارة نقل أوصلتني إلى وسط أطراف المدينة بسعر مضاعف، حيث عاودت المشي مخترقا الشوارع الكبيرة حتى وصلت لميدان بورقيبة الذي انتظرت فيه نحو ساعتين قبل أن تمتليء سيارة الأجرة بمسافرين نحو تونس العاصمة. كان أغلبهم من العمال التوانسة، اخترت الكرسي الأمامي بجانب النافذة كما تقتضي خطة العراقي وهو مكان يتيح لك

تأمل الفراغ المحيط بك على مهل طوال الرحلة، والقاء نظرة أخيرة على المدى المفتوح أمامي من هذا البلد الذي قضيت فيه ثلاثة عقود وأنا على وشك أن أتخلص منه اليوم. كانت المدينة محاطة بالدبابات والآليات الثقيلة وهي نصف مخفية كي يراها من يفكر في تحقيق تلك الرؤية المزعومة، والجنود منتشرون في مداخلها يفتشون بدقة وصرامة أولئك الذين ساقهم حظهم النكد لدخولها في هذا اليوم، بينما كانت طريق الخروج من طرابلس وضواحيها مفتوحة ورحبة كأنك في بلاد الله الواسعة فعلا.

بعد توقف في الطريق وحوالي أربع ساعات وصلنا إلى الحدود التونسية. كان طابور الانتظار قصيرا بالنسبة لما قدرت لذا كان علي أن أستجمع نفسي للمرة الأخيرة سريعا، وأخذت نفسا عميقا ومر شريط حياتي أمامي في لحظات وما إن وصلنا لمكتب الجوازت حتى فتحت الباب ومثلت دور المتطوع المتحمس، ودونما انتظار أخذت في تجميع جوازات سفر الركاب مقسما أن لا ينزل منهم أحد. أخذت كومة الجوازت بين يدي واتجهت بها للحاوية التي بها موظف الجمرك او الأمن أو الشرطة لا أدري بالضبط. صبحت عليه بالخير وأعطيته الجوازات وأنا في قمة تركيزي حتى أن بطني كانت تتقلص من مفاجأتي لنفسي. أخذ الموظف يختم الجوازات وهو يتنقل بنظره بينها وبين راكبي السيارة خلف الشباك الحديدي الصديء، وعندما وصل لجوازي لم يجده صاحبه في السيارة فسأل:

- **وين صاحب هذا الجواز...**

ولحسن الحظ كنت في الموعد

- **هذا جوازي ياخوي...**
- **جوازك انت... خادم القوم سيدهم...**

ولم أصدق عندما ختم الجواز دون أي تداع مهلك. انتظـرت قليلا مغالبا رغبةمفاجئة في البكاء وتقبيل ذلك الموظـف ثم أخـذت الجوازت المختومة وعبرت نحو السيارة، غير مصدق لأكون بعد دقائق في الجانب المقابل من الحدود.جانب النجاة.

1

نوفمبر 1997

في أحيان كثيرة لا يدل الأمس على اليوم ولا اليوم على الغد. عشت الأيام الماضية في روتيني العادي حتى كان الأمس الذي جاء يوما مميزا بعض الشيء. جاءني كاسبو في الضحى بالمطعم وأخبرني أنه بإمكانه تزويدي بالمارجوانا بنصف السعر الذي اشتريها به، أي خمسة خلدن بدل عشرة، رفض أن يوضح لي كيف وممن لكنه أكد أنه مستعد لعمل ذلك ما إن أوافق على عرضه، وما إن تمشيت قليلا راجعا لغرفتي حتى لحق بي الصيني لي ليخبرني بحقيقة مصدر صفقة كاسبو دون أن يدري عرضه الذي قدمه منذ قليل. كنت وكاسبو ولي نمثل نوعا نادرا في الآزاتسي حيث، لا يوجد من جنسيتنا سوانا بالمكان، ولذا ربطت بيننا علاقة ود ضمني وإن لم نكن نلتقي بشكل دائم. أخبرني لي أنه عثر وكاسبو على مزرعة كاملة من المارجوانا في الجوار، خلف القرية تماما، غالبت خيبة ظني في كاسبو وركبت دراجتي ورافقت لي نحو المزرعة، وما إن تجاوزنا القرية بقليل حتى أوقف دراجته وسط السهل الأخضر المنبسط مشيرا إلى المكان. كانت النباتات الخضراء مترامية وكأنه حقل ذرة، وبينما كنت متجها للتوغل في غابة الكيف هذه قال لي إنه سوف يموه على وجودنا، وفتح سحاب بنطاله ووقف عند شجرة مجاورة وأخذ في التبول، ومضيت أسبح في تلك

الخضرة واتشممها ثم انهمكت في الحصاد قاطعا الرؤوس التي بها الثمرة المقصودة، وواضعا إياها في جيوبي، حملت ما استطعت وعدنا للمركز واتجهت للغرفة وأفرغت ما حملت، ثم خرجت باتجاه أصدقائي الألبان ووزعت عليهم بعض الغنيمة، وقضينا بقية النهار وقسما من الليل ونحن نجري تجارب مختلفة من أجل تسريع انضاج النبتة، ولكن كل تلك المحاولات انتهت بالفشل، فدورة النبتة الطبيعية كانت لا تزال بحاجة لدورة أخرى، فنظرا لنقص الحرارة الطبيعية وقلة ظهور الشمس كان المزارعون ينقلون هذه الثمرة التي تشبه عنقودا صغيرا مليئا بالبذور إلى أماكن مضيئة خاصة، حيث تستمر عملية التدفئة حتى تنضج وهو ما فشلنا فيه لأننا أردنا أن يتم عمل أسابيع طويلة في ساعات.

صحوت اليوم في حوالي العاشرة ينتابني صداع بعد تدخيني عدة لفافات خضراء في تجارب البارحة، فتحت الثلاجة الصغيرة بتكاسل وتناولت قرصي إسبرين، وعدت للسرير أراقب ابتعاد الصداع عن مجالي الخاص، ثم خرجت ببطء من الغرفة وتجولت على غير هدى لبعض الوقت ثم عدت من جديد، واكلت سندويتشة تن بالهريسة أنعشتني بعض الشيء وشربت بعض الماء وكأس شاي وتابعت، التلفزيون حتى الثالثة تقريبا حيث خرجت وانضممت لجماعة البلياردو وبعد ان لعبت جولتين سمعت اسمي يتردد في المدخل.

كانت السيدة آتي ترافقها فتاة أخرى من الشئون القانونية، وبيديها بعض الأوراق ترددان اسمي فخرجت ألتقيهما عند الباب فصرختا تقريبا في نفس الوقت بأنني قد تحصلت على اللجوء السياسي. مررت عصاة البلياردلمن لمن كان بجانبي وبقيت للحظات جامدا ومتصلبا في مواجهة حضن آتي، التي فاجأني فرحها وخبرها وصرخات الحاضرين، يبدو أنني لست الوحيد - كما ظننت - الذي كان ينتظر

خبرا سعيدا كهذا ينهي مرحلة كاملة من حياتي، ويخرجني من مغامرتي بشكل مشرف لا يتكرر كثيرا لمن هو في حالتي...

قضيت الأيام الباقية طافيا على ظهر نتيجتي الباهرة، ومخططا لحياتي القادمة، ومنتظرا بيتي الذي ستخصصه لي الجهات المسؤولة متجنبا حالات الوداع ومتظاهرا بأني غير مهتم كثيرا. أيام عشتها كأني عريس المركز. الكل يهنيء والكل ينصح والكل ينتظر معي، حتى جاء اليوم المشهود الذي أخبرني فيه مكتب الشؤون القانونية بأنه تم تخصيص بيت لي في مدينة امستردام بالذات، ملأت كل البيانات المطلوبة وأكملت إجراءات انتقالي، وأخذت تذكرة التاكسي والقطار ونمت ليلة متقطعة شبيهة بليلة قدومي منذ حوالي عام مضى لمطار امستردام طالبا اللجوء، وفي ذاك الصباح السعيد نهضت باكرا وأخذت السيارة إلى المحطة، ثم قطار السادسة والنصف متجها نحو مدينتي الجديدة حاملا متاعي القليل، وبعد حوالي الساعتين وبينما كانت شمس (نوفمبر) الخجولة تطل من نافذة القطار أعلن صوت نسائي عبر مكبرات الصوت المنتشرة في القطار عن وصوله إلى محطة أمستردام، حيث عاودتني رجفة بت أعرفها جيدا داريتها بهدوء ثم حزمت أمري، ونزلت للمحطة المكتظة بالمسافرين وانسللت وسط الناس نحو الباب الرئيسي لأخرج للحياة من جديد.

امستردام 1998

الدوحة 2012

لمراسلة الكاتب:

Omaromar616@hotmail.com

آزاتسي

مجاهد البوسيفي

بدأ هذا الأسبوع المجنون قبل أيام في مدينة "راس لانوف" حين كان أعضاء مؤتمر الشعب العام منهمكين بمناقشة جدول الأعمال مباشرة على التلفزيون، فجأة تدخل أمين المؤتمر العام ليسكت المتكلم طالبا عودة الأعضاء إلى أماكنهم والتزام الصمت التام، مبلغا إياهم بصوته المتحشرج أن الأخ القائد معهم على الخط ويريد أن يوجه كلمة للمؤتمر. ووسط صمت مطبق عميق جاء بعد لحظات صوت العقيد الأبوي بنبرته البدوية هادئا في البدء ثم واضحا مرتفعا بالتدريج يطلب من أهالي السجناء السياسيين التوجه إلى سجن "بوسليم" بعد الغد كي يستقبلوا ذويهم المسجونين الذين سيطلق سراحهم في احتفال جماهيري مهيب. رفع المؤتمرون جلستهم إلى أجل غير مسمى وركبوا سياراتهم في مواكب مرتجلة نحو العاصمة المنسية للحاق بالحدث، وتوجه أهالي السجناء ومن ساقه الجو المحموم الذي ساد بعد المداخلة مباشرة إلى الركن الجنوبي من طرابلس مقر السجن السياسي الرهيب على مشارف مشاريع الإسكان الشعبي المكتظة التي أقيم عليها مخيم مرتجل . وفي اليوم الموعود ظهر القائد وهو يقود بلدوز تعربش عليه الحرس من كل جانب متوجها إلى بوابة السجن ليطيح بها وسط الهتافات المجنونة من الجماهير التي أحاطت المكان كالسيل. وما إن انقشع الغبار حتى انكشف المشهد عن العقيد من جديد يعتلي منبرا أقيم على عجل بكامل قيافته العسكرية يخطب في الجماهير والسجناء المبهوتين

تصميم الغلاف: علي القهوجي.

مكتبة نوميديا

36678

ISBN 978-614-01-0697-0

9 786140 106970

دار الفرجاني

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com